
حقيقة
التوحيد
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردي , عربي , فارسي)
فضيلة الشيخ
محمد حسان
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل

حقيقة التوحيد

طبعة جديدة منقحة مزيدة

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٧/٧٧٣٥

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

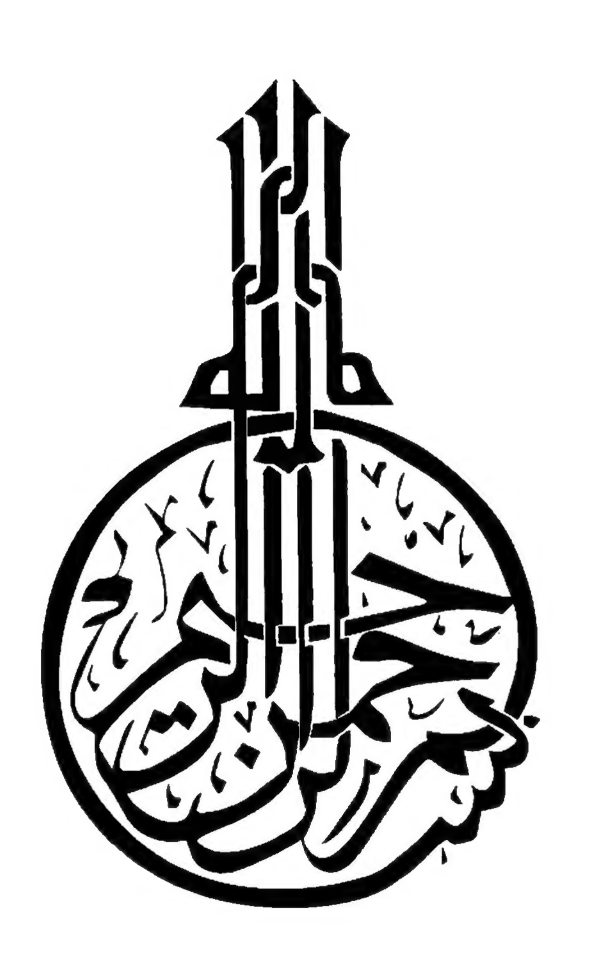
المنصورة: شارع عبد الهادي ـ عزبة عقل

ت: ٠٥٠ / ٢٢٦٧٣٩٨

حقيقة التوحيد

فضيلة الشيخ
محمد حسان

مكتبة فياض
للتجارة والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله ربِّ العالمين ، حمدًا ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، إذ لا يَبْلُغُ وصفَ جلالهِ الواصفون ، ولا يُدرك كُنْهَ عظمتهِ المتفكرون ، ويُقِرُّ بالعجز عن مَبْلَغِ قدرته المعتبرون.

وَصَفَهُ أعرفُ الخلقِ به ﷺ ؛ فقال: « إِنَّ اللهَ لاَ يَنَامُ ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

أَحْمَدُهُ حمدًا كثيرًا طاهرًا طيبًا مباركًا فيه ، عَدَدَ خَلْقِهِ وكلماتهِ ، وملءَ أرضهِ وسمواته ، وَزِنَةَ عرشه ورِضَاءَ نفسه.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ذو الرَّحْمَةِ والطَّوْل ، وذو القوة والحوْل ، الواحدُ الأحدُ ، الفردُ الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، له الملك وله الحمد ، ليس له نِدٌّ ولا ضدٌّ ، جَلَّ عن الشبيه والنظير ، لا إله إلا هو إليه المصير .

بيَّنَ وأنار ، واصطفى واختار ، خَلَقَ الخَلْقَ ، واصطفى من الخَلْقِ الأنبياء ،

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب في قوله ــ عليه الصلاة والسلام :« إِنَّ اللهَ لاَ يَنَامُ » (١٧٩).

واصطفى من الأنبياء الرسلَ ، واصطفى من الرسلِ أُولي العَزم الخمسة ؛ نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ واصطفى من أولي العزم: الخليلين إبراهيم ومحمدًا ـ صلى الله عليهما وسلم ـ واصطفى نبينا محمدًا ﷺ؛ ففضله على جميع العالمين ، ولكرامته جعل أمته سيدة الأمم والماضين ، وشرَّفها بالدعوة وظيفةِ الأنبياء والمرسلين .

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله ، وصَفِيُّه وخليله ، أدَّى الأمانة وبلَّغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وعبدَ ربَّه حتى لبَّى داعيَهُ ، وجاهدَ في سبيله حتى أجاب مناديَه ، وعاش طوال أيامه ولياليه يمشي على شوْك الأسى ، ويخطو على جمر الكيد والعنت ، يلتمس الطريق لهداية الضالين ، وإرشاد الحائرين ، حتى عَلَّمَ الجاهل ، وقوَّم الـمُعْوَجَّ ، وأمَّن الخائف ، وطمأن القَلِقَ ، ونشر أضواءَ الحقِّ والخير والإيمان ، كما تنشر الشمسُ ضياءَها في رابعة النهار .

البدرُ جبينُهُ إذا سُرَّ استنار ، واليَمُّ يمينُه فإذا سئل أعطى عطاء من لا يخشى الإقتار ، والحنيفيةُ دينه القيِّمُ المختار .

البشيرُ النذير ، السراجُ المزهرُ المنير ، خيرُ الأنبياء مقامًا ، وأحسن الأنبياء كلامًا ، لبنةُ تمامهم ، ومِسْكُ ختامهم ، رافعُ الإصْرِ والأغلال ، الدَّاعي إلى خير الأقوال وأفضلِ الأعمال وأصدقِ الأحوال .

أرسله الله ـ جَلَّ وعلا ـ بالهدى ودين الحق بين يدَي الساعة بشيرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ؛ فختم به الرسالة ، وعلَّم به

من الجهالة ، وهدى به من الضَّلالة ، وفتح به أعينًا عُميًا ، وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا .

أرسله الله ـ جَلَّ وعلا ـ على حين فترةٍ من الرسل ؛ فأقام به المِلَّة العوجاء ، وأوضح به الحجة البيضاء ، فأشرقت الأرض بدعوته بعد ظلامها ، وتألفت به القلوب بعد شتاتها .

أرسله الله ـ جَلَّ وعلا ـ والناس صنفان : مغضوبٌ عليهم جُفاة ، وضالُّون غُلاة .

فجاء بالدين الوسط ، وحذَّر من الزَّيغِ والشَّططِ ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

فاللهم اجزه عنا خَيْرَ ما جزيت نبيًّا عن أُمَّته ، ورسولًا عن دعوته ورسالته ، وصلِّ اللهم وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وعلى كل من اهتدى بهديه ، واستنَّ بسنَّته ، واقتفى أثره إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الحقَّ معنا ، وإن الباطل مع غيرنا ، ولكننا لا نُحسن أن نشهدَ لهذا الحق شهادة عملية على أرض الواقع ، ولا نُحسن أن نُبَلِّغَ هذا الحق لأهل الأرض بحق .

وإن الباطلَ مع غيرنا ، لكنه يُحسن أن يُلْبِسَ الباطل ثوب الحق !! ويُحسن أن يصلَ بالباطل إلى حيث ينبغي أن يصل الحق !!

وحينئذٍ ينزوي حَقُّنَا ويضعفُ كأنه مغلوب ، وينتفخُ الباطـلُ وينتفشُ كأنه غالب !!

وهنا نتألمُ لِحَقِّنَا الـذي ضَعُفَ وانزوى ، وللباطـل الـذي انتفخ وانتفش ، ونُعَبِّرُ عن أَلَـمِنَا هذا بصورةٍ من صورتين لا ثالث لهما ، فإما أن نُعَبِّرُ عن أَلَـمِنَا هذا بصورةٍ مَكْبُوتَةٍ سَلْبِيَّةٍ ، فنزداد هزيمةً نفسيةً على هزيمتنا ، وانعزالا عن المجتمع والعالم ، وإمَّا أنْ نُعَبِّرَ عن أَلَمِنَا بصورة مُتَشَنِّجَةٍ مُنْفَعِلَةٍ وأحيانًا دمويةٍ ، فنخسرَ الحق مرةً أخرى حتى ونحن في طريقنا للذود عن الحق ؛ لأن أهل الأرض حينئذٍ سيزدادون بُغضًا للحقِّ الذي معنا وخوفًا منه وإصرارًا على الباطل الذي معهم ، ونصرًا له!!

وَمِنَ اليسير جدًّا أن نقدم منهجًا نظريًّا في التوحيد ، ولكن هذا المنهج سيظلُّ حبرًا على الورق ، وسيبقى مجردَ كلماتٍ جميلةٍ نُردِّدها ما لم يتحولْ هذا المنهج في حياة المسلمين « ابتداءً» إلى واقعٍ عمليٍّ ومنهج حياة ، يتألقُ في دنيا الناس علمًا وفهمًا وعملًا ، عقيدةً وعبادةً وخُلقًا ، وما لم يتحرك به بعد ذلك أصحابُه ليبلغوه لأهل الأرض بحق .

وهنا تتجلى عظمةُ رسول الله ﷺ الذي استطاع أن يُقيمَ للتوحيد دولةً من فُتاتٍ متناثر وسط صحراءَ تموج بالجهل والشرك موجًا ، فإذا هي بناءٌ شامخٌ لا يطاوله بناء في وقتٍ لا يساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق ، وذلك يوم أن قام النبيُّ ﷺ بطباعة عشرات الآلاف من النسخ من عقيدة التوحيد ولكنه ــ بأبي وأمّي وروحي ــ لم يَطْبَعْهَا بالحبْرِ على

صحائف الأوراق ، وإنما طبعها على صحائف قلوب أصحابه بمدادٍ من التُّقى والهدى والنور ؛ فشهدوا للحق بالعلم والعمل ، والدعوة والبلاغ .

وما أحوج الأُمَّة الآن إلى تحقيق التوحيد ، والشهادة له على أرض الواقع ؛ لتكون أهلًا لدعوة أهل الأرض إلى هذا التوحيد الخالص . وإلا فَمَنْ لهذه البشرية التي ضلَّت عن التوحيد ؟ مَنْ لهذه البشرية التي غرقت في أوحال الشرك ؟ مَنْ لهذه البشرية التي تعيش في الظلام على الرغم من كثرة الأضواء ؟ مَنْ لهذه البشرية التي تهذي كالسكران ، وتضحك كالمجنون ، وتجْري كالمطارد ، تئن من الألم ، تبحث عن أي شيء ، وهي في الحقيقة تملك كلَّ شيء ، ولكنها حين انحرفت عن منهج الله فقدت كلَّ شيءٍ؟!!

مَنِ الذي يحمل النورَ لمن يعيشون في الظلام إلا مَنْ أشرقت قلوبُهم بنور التوحيد والإيمانِ ؟! من الذي يُسْمِعُ البشَريةَ عن الله ورسوله إلا من سمعوا لله ورسوله ؟ مَنْ لأهل الأرض إلا صفوةُ أهل الأرض من الموحدين؟!

وهنا يتجلَّى حجم الأمانة الثقيلة والمسؤولية العظيمة التي كُلِّفت بها خيرُ أمةٍ أُخرجت للناس . في تحقيق التوحيد ودعوة أهل الأرض إليه . وما من يوم يمرُّ إلا ونزداد يقينًا أن الخطوة العملية الأولى على طريق النصر والتمكين في الدنيا ؛ بل والسعادة في الآخرة هي تحقيق التوحيد بشموله وكماله ، وصفائه ونقائه . وما أحوج البشرية عامة والأمة خاصة إلى التوحيد .

وها هو كتاب «حقيقة التوحيد» في ثوبه الجديد في طبعته الرابعة التي أَعَدْتُ النظر فيها في مواضع عديدةٍ من الكتاب في طبعاته السابقة، فزدْتُ في بعض المواطن، وحذفت في مواطن أخرى، واستفدتُ كثيرًا بعد فضل الله عليَّ بنصائح إخواني من أهل الفضل والصدق والغيرة على التوحيد، وعلى المنهج الحق.

وبكل حُبٍّ وتقدير استجبتُ لنصح كلِّ ناصح أمين؛ بل وحذفت بعض النقولات؛ حرصًا على صفاء القلوب، وسلامة الصدور، وأخوة أهل الإيمان؛ فوالله إنِّي لمن أحرص الناس على وُدِّ أحبابي وإخواني.

واقتصرتُ على النقل من كتب أئمة السلف ومن اقتفى أثرهم وسار على دربهم؛ فهم أَفْهَمُ الناس لمراد الله ورسوله، وأعلم بالحق من غيرهم، ولا عجب فتلك شهادة رسول الله ﷺ لهم؛ ففي «الصحيحين»[1] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

ومن جميل ما قاله الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية: «وكيف يتكلَّم قي أصول الدين من لا يتلَقَّاه من الكتاب والسنة، إنما يتلقاه من قول فلان، وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسيرَ كتابِ الله من أحاديث الرسول ﷺ، ولا ينظر فيها ولا فيما قاله الصحابةُ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة (٢٥٣٣) (٢١٢).

والتابعون لهم بإحسان المنقول إلينا عن الثقات النقلة »[(١)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أما الاعتقاد فلا يُؤخذُ عنِّي، ولا عمَّن هو أكبر منِّي؛ بل يُؤخذُ عن الله ورسوله ﷺ، وما أجمع عليه سلف الأمة »[(٢)].

ولا زلتُ أردِّد - وربِّ الكعبة - بلسان الحال والمقال:

أسيرُ خَلفَ ركب القوم ذا عَرَجٍ   مُؤَمِّلًا جَبْرَ ما لاقيتُ من عِوَجِ

فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا   فكم لربِّ السما في الناسِ من فَرَجِ

وإن ظللتُ بقفرِ الأرضِ منقطعًا   فما على أعرجٍ في ذاك من حَرجِ

وأسأل الله تعالى أن يردَّ الأُمَّة خاصة والبشرية عامة إلى التوحيد ردًّا جميلًا، وأن يجبر كسر قلوبنا، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا، وأن يُحسن نياتنا وأعمالنا؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه
أبو أحمد محمد بن حسان
القاهرة
شوال ١٤٢٩ هـ

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢١١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٦١).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ..

فهذا كتاب « **حقيقة التوحيد** » في ثوب جديد في طبعته الثالثة بعد أن نفذت بفضل الله الطبعة الأولى والثانية .

أقدمه في وقتٍ تشتدُّ فيه حاجة الأمة إلى التوحيد الصحيح بشموله وكماله ، والله أسأل أن يردنا جميعًا إليه ردًّا جميلًا ، وأن يتقبل منا جميعًا صالح الأعمال ، وأن يقر أعيننا بنصرة الإسلام وعزِّ الموحدين؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

أبو أحمد / محمد بن حسان

القاهرة / جمادى الأولى / ١٤٢٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك وما كان معه من إله ، الذي لا إله إلا هو ، فلا خالق غيره ولا ربَّ سواه ، المستحقُ لجميع أنواع العبادة ؛ ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[الحج:٦٢] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، بعثه الله وأهل الأرض أحوج إلى رسالته من غيث السماء ، ومن نور الشمس والهواء ، فقام بتبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، والنُّصح للأمة حتى أتاه اليقين .

فاللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى أصحابه الغُرِّ الميامين ، وعلى كلِّ من اقتفى أثرهم وسار على دربهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإنه لا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بتحقيق التوحيد ، وكلمة التوحيد : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هي كلمة الشهادة .. ومفتاحُ دار السعادة .. وهي العاصمةُ للدَّم والأموالِ والذُّرِيَّةِ في هذه الدار .. والمُنجيةُ في الآخرة

من عذاب القبر ومن عذاب النار .

وهي الكلمة التي قامت بها الأرضُ والسموات .. وفطر الله عليها جميع الموجودات .. وهي محضُ حق الله على جميع المخلوقات .. ولأجلها بُعث الرسل وجاءت الرسالات .

وبها انقسم الناسُ إلى شقيٍّ وسعيد .. وقريبٍ وبعيد .. ومقبولٍ وطريد .. وبها انفصلت دارُ الكفر من دار الإيمان .. وتميزت دارُ النَّعيم من دار الجحيم .

وذلك لأن كلمة التوحيد هي أَصْلُ الدِّينِ وأساسُه ورأسُ أمره .. وبقيَّةُ أركان الدين وفرائضه متفرعةٌ عنها متشعبةٌ منها مُكملاتٌ لها .. فهي دينٌ شاملٌ ومنهجُ حياةٍ متكامل .

ومُحَال أن يكون ذلك كله من أَجْل كلمةٍ تُرددها الألسنةُ «فحسب!!» بل لابد من الإقرار باللِّسان والاعتقاد بالجَنَان والعمل بالجوارح والأركان .. لتحويل جميع مقتضياتها إلى منهج حياة .

ومن مقتضياتها : البَراءةُ التامة من كلِّ معبودٍ سوى الله جلَّ وعلا .. قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله [١]: « إنَّ طريقة القرآن أن يقرن النفي

(١) «البدائع» لابن القيم (١/ ١٤١) ط مكتبة نزار .

بالإثبات ، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته ، وهذا هو حقيقة التوحيد ، والنفيُ المحضُ ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات ، وهذا حقيقة لا إله إلا الله ».

ومن مقتضيات كلمة التوحيد : إفراد الله تعالى وحده بالخلق والرزق والتصريف والتدبير والأمر كلِّه ؛ قال عزَّ وجلَّ : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

ومن مقتضيات كلمة التوحيد : تحقيق توحيد الألوهية .. وهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة الظاهرة والباطنة سواء كانت عبادة قلبية مناطها القلب .. أو قولية تتعلق باللسان .. أو عملية تتعلق بالجوارح .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] .

فالدين كلُّه هو عبادة الله وحده ، والخضوع له وحده بغاية المحبة له وحده . وهذه هي الغاية التي من أجلها خُلِق الخلق ؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ؛ بل ومن أَجْلِ هذه الغاية: خلق الله السموات والأرض ، والجنة والنار ، وبعث الرسل ، وأنزل الكتب .

ومن مقتضيات كلمة التوحيد : تحقيق توحيد الأسماء والصفات .. وهو إفراد الله تعالى بأسماء الجلال وصفات الكمال ، والإيمان بها من غير

تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ؛ لأنه جلَّ وعلا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

وهذا البابُ من أعظم وأشرف أبواب التوحيد ، ولم لا ؟ وهو يتعلق بذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلا معرفة تدحض الشرك والتعطيل، والتشبيه والتمثيل ، والإلحاد والتأويل .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠] .

ومن مقتضيات كلمة التوحيد : الإيمان الصحيح الصادق برسول الله ﷺ ؛ والذي يتمثل في طاعة النبيِّ في كل ما أمر ، والانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه وزجر ، وتصديقه في كلِّ ما أخبر عن ربه ، ومحبته أكثر من النفس والولد والمال بدون غُلوٍ أو إطراءٍ ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

ومن مقتضيات كلمة التوحيد : الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١] .

فلا يصحُّ لمؤمنٍ دينٌ إلا بموالاة الله ورسوله وأهل التوحيد ، والبراءة من الشرك والمشركين و أهل الضلال وبغضهم ، كما تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار ، وكما تبرأ نبينا محمد ﷺ وصحبُه من كفار قريش ومن حذا حذوهم ، وهذه هي الموالاة للمؤمنين والمعاداة للمشركين التي هي أصل عُرى الإيمان وأوثقها .

وهذا كلام مُجمل سيأتي تفصيله بعد قليل [١] .

ومن مقتضيات كلمة التوحيد : أن يكون الحُكم لله ـ جلَّ وعلا ـ وحده ؛ قال تعالى :

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٠] .

فليس من حقِّ دولةٍ أو مجلسٍ أو برلمانٍ أو هيئةٍ أو سلطةٍ أو أيِّ أحدٍ على الإطلاق أن يُشرِّع للبشر من دون الله مُتجاهلاً شرع الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] .

فمن الذي يدَّعي أنه أعلم بأحوال الخلق وما يحتاجونه في كل زمان من خالق الناس ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] ، هل يستطيعُ أحدٌ أن يزعم بأنه أعرف بالناس من رب الناس ؟!

«فحكْمُ الله وتشريعه مبنيٌّ على العلْم ، والعدل ، والقسط ، والنور ،

---

(١) انظر : مبحث : « لا إله إلا الله ولاء وبراء » .

والهدى ، أما حكم غيره فمبنيٌّ على الجهل ، والظلم ، والغي .

والموقن هو الذي يعرفُ الفرق بين الحكمين ويميز ـ بإيقانه ـ ما في حكم الله من الحسن والبهاء ، وأنه يتعين عقلاً وشرعًا ـ اتباعه »[(١)] .

قال الإمام القرطبيُّ في « جامعه »[(٢)]:

« وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ هذا استفهام على جهة الإنكار ، بمعنى : لا أحد أحسن » ا.هـ .

فأيُّ حكمٍ أحسن من حكم الله إن كنتم مُوْقنين أن لكم ربًّا وكنتم أهل توحيد[(٣)]؟

ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به وأيقن ، وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكلِّ شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء[(٤)] .

ومن مكملات كلمة التوحيد وواجباته: أن يُصاغ النظامُ الاقتصادي كُلُّه وفق منهج الإسلام بعيدًا عن أنظمة الشرق والغرب التي تقوم أساسًا على النظام الربويِّ الخبيث ؛ لأن النظام الإسلامي والنظام الربويَّ لا يلتقيان أبدًا في تصور ، ولا يتفقان في أساس ، ولا يتوافقان في نتيجة .

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للعلامة السعدي (تفسير المائدة:٥٠) .

(٢) «جامع أحكام القرآن» (٦/ ١٤٠) ط دار الكتب العلمية .

(٣) «جامع البيان» للطبري (٤/ ٢٩١٩) ط دار السلام .

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٢) ط دار أولاد الشيخ .

ومن مكملات كلمة التوحيد وواجباته: أن يكون المنهجُ التربويُّ والتعليميُّ والإعلاميُّ والفكريُّ والحضاريُّ والأخلاقيُّ والسلوكيُّ منبثقًا من الإسلام ومن المعايير الربانية ، لا من المعايير الشيطانية التي يُقننها البشرُ للبشر لتصطدم مباشرةً مع تلك المعايير الربَّانية !!

وبالجملة ؛ فكلمةُ التوحيد : « **لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** » تقتضي صياغة كل جزئيات الحياة وكلياتها وفق دين الله ﷻ .

ألم أَقُلْ لكم ـ أحبتي ـ إنها دينٌ شاملٌ ومنهجُ حياةٍ متكامل ؟!

فقضية التوحيد هي التي ظلَّ النبيُّ ﷺ يُرَبِّي عليها أصحابه الكرام في مكة المكرمة ثلاثة عشر عامًا . ولم يَكُفَّ عنها أبدًا في المدينة ؛ **لأن قضية التوحيد لا يُنتقل « منها » إلى غيرها ، بل يُنتقل « معها » إلى غيرها .**

نعم .. إن كلمة التوحيد : « **لا إله إلا الله** » ليست مجردَ كلمةٍ تُنطق باللسان ـ فحسب ـ إنما هي منهجُ حياة ، بل حياةٌ للحياة !!

وظلَّت الأمَّةُ قرونًا طويلة بفضل الله ـ جَلَّ وعلا ـ تَرْفل في ثوب التوحيد الخالص الذي كساها إيَّاه إمامُ الموحدين ، وقدوةُ المحققين ، وسيدُ المرسلين محمدٌ ﷺ.

حتى أطلَّت الفتنُ برأسها الظلوم ، ووجهها الكالح الغشوم. وبدأت الأمة ـ إلا من رحم ربك ـ تبتعد رويدًا رويدًا عن التوحيد بصفائه، ونقائه ، وشموله ، وكماله ، وراح أعداؤُها بخبث ودهاء يضعون الحواجزَ

والسدودَ بينها وبين عقيدتها الصافية وتوحيدها الخالص ، ووقع كثيرٌ من المسلمين في فِصامٍ نكد ، وخَلْطٍ عجيب ، وبُعْدٍ مُزرٍ عن التوحيد الخالص والعقيدة الصافية !!

ومن مظاهر هذا الانفصام النكد :

أننا نرى صنفًا من الناس يردِّد كلمة التوحيد بلسانه ، وهو لا يعرف لها معنى ، ولا يفهم لها مضمونًا ، ولا يقف لها على مقتضى ، أو أمرٍ أو نهيٍ أو حدٍّ ، بل وقد صرف كثيرًا كثيرًا من صور العبادة لغير الله ـ جلَّ وعلا !! فاستعان بغير الله ، وتوكل على غير الله ، واستغاث بغير الله ، وفوض أمره إلى غير الله ، وذبح لغير الله ، ونذر لغير الله ، وحلف بغير الله .. إلى غير ذلك من المظاهر المؤلمة التي تُدمي قلبَ كلِّ مُوحدٍ صادقٍ غيور ، والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

ونرى صنفًا آخر يردِّد كلمة التوحيد بلسانه ؛ وقد انطلق حُرًّا طليقًا يختار لنفسه من المناهج والأوضاع والنُّظم والقوانين الوضعية ما يشاء ويختار !! والله ـ جلَّ وعلا ـ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

ونرى صنفًا ثالثًا يُردِّد كلمة التوحيد بلسانه ، وقد قسَّم حياته إلى قسمين :

أحدهما : يتعلق بأمور العبادات .

والآخر : يتعلق بالمعاملات وأمور الحياة وشؤونها ، وهنا لا تجد مكانًا لمقتضيات التوحيد ؛ بل يسأل بعضهم في دهشة واستنكار ويقول : ما علاقة الدين بالسياسة ؟ فلا سياسة في الدين ولا دين في السياسة !!

وما دخل التوحيد في الاقتصاد ؟!

وما صلة التوحيد بالتعليم أو الإعلام أو السلوك ؟!

والإسلام أسمى وأعظم وأكرم من أن نخرجه من المساجد لنزُجَّ به في أمور الدنيا !!

ونرى صنفًا رابعًا يردِّد كلمة التوحيد بلسانه ، وقد ترك الصلاة وضيع الزكاة ، وتفنَّن في أكل الحرام وأكل أموال الناس بالباطل وأكل الربا، وشرب الخمر ، ومعاقرة الزنا ، بل ومنهم من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، وفي الوقت ذاته يعتقد أنه كامل الإيمان ما دام يردد بلسانه كلمة التوحيد !!

تناقضٌ رهيبٌ .. وانفصامٌ نكدٌ .. وواقعٌ محزن .. يزيد القلْبَ التقيَّ كمدًا وحزنًا وألـمًا وحسرة على ما وصل إليه حال كثير من الناس ، من سوء فهم خطير لقضية التوحيد !

ومن خلال هذا الواقع الأليم نرى الحاجة ماسَّة ومُلِحَّة للتحرك ـ وبسرعة ـ من كلِّ أهل الفضل والخير والعلم ؛ لتعليم المسلمين العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص بمفهومه الشامل ؛ لأن التوقف لإصدار الأحكام على الناس ـ وفقط ـ لن يغير من الواقع شيئًا .

ووالله لن تعود للأمة هُويتُها وعزتُها وسيادتُها من جديد ، إلا إذا صححت عقيدتَها ، وأخلصت عبادتَها ، وتبرأت من كل حول وطولُ وقوة إلا من حول الله وقوته ، ووجَّهت وجهها من جديد إلى ربها جل وعلا قائلة :

اللهم إني أبرأ من العبودية إلا لك .. ومن الثقة إلا فيك .. ومن التسليم إلا لك .. ومن التوكل إلا عليك .. ومن الصبر إلا على بابك .. ومن الذل إلا في طاعتك .. ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم .. ومن الرجاء إلا لما في يديك الكريمتين .

فهيَّا أيها الموحدون المخلصون ..

هيَّا يا شباب الصحوة الكريمة.. يا من منَّ الله عليكم بالتوحيد الصحيح والعقيدة الصافية ..

هيَّا لنتحرك جميعًا بكل قوة وطاقة وجهد ؛ لتعليم الناس التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ ولتحويله من جديد بشموله وكماله وصفائه ونقائه في حياة الأمة إلى واقع .

فهذه ـ بلا أدنى ريب ـ هي الخطوةُ الصحيحةُ الأولى على طريق بعث الأمة .. وهي هي التي بدأ بها رسول الله ؛ بل وكُلُّ رسول بعثه الله ـ جلَّ وعلا ؛ فهي نقطةُ البدء [1] ، ولبنةُ الأساس ، وهي أول خطوة على الطريق النصر والتمكين ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ

(١) انظر : «خواطر على طريق الدعوة جراح وأفراح» ، محمد حسان (ص٤٨) ، ط دار المسلم .

إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، ولا يمكن أن تتحد الكلمة وكلمةُ العقيدة ممزقة !!

فلا يتحد الصف إلا إذا التقت القلوب على كلمة التوحيد ، فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، تنظم هذه الشريعة كلَّ شؤون الحياة ، ولا يقبل الله من قومٍ شريعتهم إلا إذا صَحَّتْ عقيدتُهم .

ونحن على يقين ـ وإن طال الزمن ، ووضعت العقبات والعراقيل ـ بأنه لن تعود للأمة مكانتُها ـ بإذن الله ـ إلا على يد جيل حقَّق التوحيد الخالص .

فالأمة لن تُنْصَرَ إلا بخطواتٍ واضحة ، ومعالم مضيئة نيرة ، أولها تصحيح العقيدة .. ثم تصْحيح العبادة .. ثم تحكيم الشريعة .. ثم تصحيح ما فسد واعوجَّ من الأخلاق ، ثم بعد ذلك إعداد جيل قرآنيٍّ يحاكي جيل الصحابة ، يقيم الدنيا بالدين ، وبعد ذلك سنرى واقعًا مختلفًا ـ تمامًا ـ عن هذا الواقع الذي نحياه الآن !!

وانطلاقًا من الشعور بالمسؤولية لا من الشعور بالأهلية أُقدِّم هذه المحاولة المتواضعة ؛ لأنال شرف الدَّاعين إلى التوحيد في ركب الموحدين الطويل الموغل في القدم ، الضارب في شعاب الزمان من لدن نوح على نبينا وعليه وعلى جميع إخوانهم أطيب الصلاة وأزكى السلام .

وقد قسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول وعدة مباحث في أسلوب سهل وعبارة واضحة . وإليك البيان في إيجاز :

الفصل الأول : وهو تحت عنوان : « لا إله إلا الله » .

واشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : لا إله إلا الله .. نفيٌ وإثبات .

المبحث الثاني : لا إله إلا الله .. ولاء وبراء .

المبحث الثالث : لا إله إلا الله .. تحكيم للشريعة .

أما الفصل الثاني : فهو بعنوان : « شروط لا إله إلا الله » .

وقد اشتمل على المباحث التالية :

تمهيد : أصلُ هذه الشروط .

المبحث الأول : شرط العلم .

المبحث الثاني : شرط اليقين .

المبحث الثالث : شرط القبول .

المبحث الرابع : شرط الانقياد .

المبحث الخامس : شرط الصدق .

المبحث السادس : شرط الإخلاص .

المبحث السابع : شرط المحبة .

ولما كانت كلمة التوحيد عَلَمًا على الشهادتين معًا أي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؛ إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى . كان من الواجب عليَّ بعد ما تحدثتُ عن الشهادة الأولى في الفصلين السابقين ، أن أتحدث عن الشهادة الثانية ؛ لأبين أنها هي الأخرى ليست مجرد كلمةٍ

تُنطق باللِّسان فحسب ، أو ننسج لها المدائح والقصائد والأشعار ، وينتهي الأمرُ عند هذا الحدِّ !

بل إنه بالشهادة الأولى يُعرف المعبود ـ عزَّ وجلَّ .

وبالثانية يُعرف كيف يُعبد ، وبأي طريق يُوصل إليه ؟

ولذا فقد جاء **الفصل الثالث** مشتملاً على المباحث التالية :

المبحث الأول : الإيمان برسول الله ﷺ .

المبحث الثاني : تصديق النبيِّ في كل ما أخبر .

المبحث الثالث : طاعته في كلِّ ما أمر .

المبحث الرابع : الانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه وزجر .

المبحث الخامس : محبته ﷺ دون غلو أو إطراء .

ثم تحدثت في الفصل الرابع عن الشرك المناقض للتوحيد .

وجاء الفصل الأخير مبشرًا لكلِّ من حقق هذا التوحيد الشامل الخالص المتضمن للنفي والإثبات معًا . وعنوانه : **«فضلُ تحقيق التوحيد»** .

وبعد :

أخي القارئ الحبيب .. إن صادفت صوابًا فلله الحمد والمنَّة ؛ فهو صاحبُ الفضل ووليُّ العطاء .. وإن عَثَرتَ على حَرْفٍ أو معنى يجب تغييره .. فأنشدك الله في إصلاحه وأداء حق النصيحة فيه ، فإن الدين النصيحة ؛ لأن الإنسان بنفسه ضعيف عاجز لا يسلم من الخطأ إلا أن

يعصمه الله ـ جَلَّ وعلا ـ بتوفيقه وتسديده .. وإن عَدِمَ منك ـ أخي الفاضل ـ هذا الجهد المتواضع حمدًا وشكرًا .. فأرجو الله ألا يعدم منك عذرًا وسترًا .. وهذا ـ إن شاء تعالى ـ ظني بك .

والله أسأل أن يرزقنا الصواب وأن يجنبنا الزلل ، وأن يصلح قلوبنا ، وأن يتقبل أعمالنا ويجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن يُقر أعيننا جميعًا بنصرة الإسلام وعِزِّ المسلمين ، وأن يشرفنا جميعًا بالعمل لهذا الدين ، وأن يرزقنا خاتمة الموحدين ، وأن يحشرنا جميعًا في زمرة سيد المرسلين ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه
الفقير إلى عفو الرحيم الرحمن
أبو أحمد / محمد بن حسان
مصر ـ المنصورة
ربيع الأول ١٤١٤هـ







الفصل الأول

« لا إله إلا الله »

ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : لا إله إلا الله .. نفي وإثبات .

المبحث الثاني : لا إله إلا الله .. ولاء وبراء .

المبحث الثالث : لا إله إلا الله .. تحكيم للشريعة .










المبحث الأول

لا إله إلا الله .. نفي وإثبات

المبحث الأول

لا إله إلا الله .. نفي وإثبات

هذه هي كلمة التوحيد والإخلاص ، وهي أصل الدين وأساسه ، وهي العمودُ الحامل للفرض والسُّنَّة ، و«مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَـهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

ومعنى « لا إله إلا الله » : لا معبود بحق إلا الله ؛ فهي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ؛ فإنكَ لما نفيت الإلهية ؛ وأثبتَّ الإيجاب لله سبحانه كنت ممَّن كَفَرَ بالطاغوت وآمن بالله تعالى.

ولذا يقول ابنُ القيم : « والنفيُ المحضُ ليس توحيدًا وكذلك الإثباتُ بدون النفي ، فلا يكونُ التوحيدُ إلا متضمنًا للنفي والإثبات ، وهذا هو

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتابُ الجنائز ، باب التلقين (٣١١٦) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٣) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٣، ٦٧٨) ، والبيهقي في «الشعب» (١/ ١٠٨) (٦/ ٥٤٥) ، والشاشي في «المسند» (٤/ ٩٩، ١٠٠) ومحمد بن فضيل في « الدعاء» (١٤٧١) ، والبزار في «مسنده» (البحر الزخار ٢٢٨٣) ، والطبراني في «الكبير» (٢٢١) من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا . وله شاهدٌ من حديث علي ﷺ مرفوعًا ؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٤) ولفظه : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم يدخل النار» ، والحديث صححه العلامة الألبانيُّ في«صحيح الجامع» (برقم: ٥١٥٠) ، و (٦٤٧٩) وحسنه في «أحكام الجنائز» (٣٤) و«الإرواء» (٦٨٧) ، والحديث له عدة شواهد بألفاظ مقاربة .

حقيقة التوحيد »[(١)]. اهـ .

ولنبدأ بشرح ما تقتضيه هذه الكلمة الطيبة من نفي وإثبات :

فهي تنفي : الآلهة .. والأنداد .. والطواغيت .. والأرباب .

وتثبتُ التوحيدَ الخالِصَ بأقسامه الثلاثة لله ـ جَلَّ وعلا ـ وحْدَه لا شريك له[(٢)].

وإليكم ـ أحبتي ـ التفْصِيلَ والبيان .

أولاً : الآلهة :

والآلهة : جمع إِلَه .. وكلُّ ما اتُّخِذَ معبودًا من دون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو إلهٌ عند متخذِه وعابِده .

والإِلَهُ ـ بالتعريف : هو الله جَلَّ جلاله .. حذُفت الهمزة وأدغمت اللام في اللام فصارتا لامًا واحدة مُشدَّدة مفخمة كما قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة.

وقال الإمام ابنُ القيم : « الصحيح أن لفظ الجلالة «الله» مشتق وأن أصله «الإله»[(٣)].

« والإله » هو المألوه المعبودُ الذي يستحقُّ العبادة ؛ لأنه لا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا وحتى يكون لعابده خالقًا ورازقًا ومدبرًا ، وعليه ـ أي

---

(١) تقدم عزوه .

(٢) هذا تقسيمٌ نظريٌّ للدراسة فحسب ، وإلَّا فإن التوحيد لا يتجزأ .

(٣) «البدائع» (٢/ ٤٧٣) .

على عابده ـ مقتدرًا ؛ فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عُبد ظلمًا ؛ بل هو مخلوق ومُتعَبَّد.

والتَّألُّهُ : التَّنَسُّك والتَّعَبُّد . والتأْليهُ : التَّعبيد (١).

وبعد هذه المعاني الموجزة تتضح لنا هذه التعريفات التالية لنخلص بعدها إلى المراد ـ إن شاء الله تعالى .

يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

« والإله » : هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوبُ بحبها ، وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه ، وترجوه ، وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه ، وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته ؛ فهذه المسألة قطبُ رحى الدين الذي عليه مداره، فإذا صحَّت صحَّ بها كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبدُ فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله» (٢).

وقال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله تعالى :

« الإله » : هو الذي يُطاع فلا يُعصى ، خشية وإجلالاً ومهابة ومحبة وخوفًا

---

(١) انظر : «لسان العرب» ، لابن منظور (١٣/ ٤٦٧ وما بعدها) حرف الهاء ، طبعة دار الفكر ، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٦٠٣).

(٢) «طريق الهجرتين» (٤٧٣) ط دار ابن القيم .

ورجاءً وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه ودعاءً له» [١]، ولا يصلح هذا كله إلا لله ﷻ وحده لا شريك له، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك [٢].

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [٣]:

« « الإله » : هو الذي تألهه القلوب محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا وتعظيمًا وذلاً وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وتوكلًا » . وقال في موضع آخر [٤]: «واسم «الله» دَالٌّ على كونه مألوهًا معبودًا تألهه الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب».. « وهو اسمٌ كريمٌ لمسمَّاه كلُّ كمالٍ، وكلُّ مدح وحمد، وكلُّ ثناءٍ، وكلُّ مجدٍ، وكلُّ جلال، وكلُّ عزٍّ، وكلُّ جمالٍ، وكلُّ خيرٍ وإحسانٍ وجودٍ وفضلٍ وبرٍّ، فما ذُكر هذا الاسمُ ـ الجليلُ ـ في قليلٍ إلا كثَّره، ولا عند خوفٍ إلا أزاله، ولا عند كربٍ إلا كشفه، ولا عند همٍّ وغمٍّ إلا فرَّجه، ولا عند ضيق إلا وسَّعه، ولا تعلَّق به ضعيفٌ إلا أفاده القوة، ولا ذليلٌ إلا أناله العزَّ، ولا فقير إلا أصاره غنيًّا، ولا مستوحشٌ إلا آنسه، ولا مغلوبٌ إلا أيده ونصره، ولا مضطرٌّ إلا كشف ضرَّه، ولا شريد إلا آواه، فهو الاسمُ الذي تُكشف به الكربات،

---

(١)«جامع العلوم والحكم» (حديث:٢١) (ص٣٦٣) ط دار ابن رجب .
(٢)«فتح المجيد» (ص٣٨) ط مكتبة ابن تيمية .
(٣)«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٧) ط دار المعرفة.
(٤)«مدارج السالكين» (١/ ٣٢) ط الكتاب العربي .

وتُستنزل به البركات ، وتُجاب به الدعوات ، وتُقَالُ به العثرات ، وتستدفعُ به السيئات ، وتُستجلب به الحسنات ، وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسموات ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أُرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع ، وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقةُ إلى السعداء والأشقياء ، وبه حقت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، وبه وُضعت الموازين القسط ، ونُصب الصراط ، وقام سوق الجنة والنار ، وبه عُبد ربُّ العالمين وحُمد ، وعنه السؤالُ في القبر ، ويوم البعث والنشور ، وبه الخصام ، وإليه المحاكمة ، وفيه الموالاة والمعاداة ، وبه سعد من عرفه وقام بحقه ، وبه شقي من جهله وترك حقه »(١) .

ومن ثَمَّ ؛ فالألوهيةُ : أصلُها هو العبادة ، والتألُّه هو التنسُّك والتعبد ؛ ولذا فكلمةُ التوحيد « لا إله إلا الله » معناها : لا معبود بحقٍّ سوى الله ـ عزَّ وجلَّ .

فكلمةُ التوحيد نفيٌ للإلهية عن كلِّ ما سوى الله ـ عزَّ وجلَّ .. فلا يجوز أن تصرف العبادة بجميعِ صورها الظاهرة والباطنة إلا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده .

ولا يجوز البتة أن تُوجَّهَ إلى أيِّ إلهٍ من الآلهة المكذوبة المدَّعاة الباطلة وما أكثرها !!

---

(١) «فتح المجيد» (ص١٥) ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية الطبعة الخامسة .

فمَنْ صرف شيئًا من العبادة لغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد وقع في الشرك .

فالعبادةُ ليست أمرًا على هامش الحياة ولكنها الصيحةُ الأولى في كلِّ رسالة : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦] .

وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال :

«يَقُولُ الله تَعَالَى: لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَلَّا تُشْرِكَ ، وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ » (١).

فهذا المشركُ قد خالفَ مُرادَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من خلقه ؛ لأنه سبحانه وتعالى ما خلق الخلق ، وما أنزل الكتب ، وما أرسل الرسل ، وما خَلَق الجنة والنار إلا من أَجْلِ هذا الأَصْل الكبير ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، كما قال ـ عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦]

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: « أي: إلا لآمُرَهم أن يعبدونِ وأدعوهم إلى عبادتي » (٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٨)، وفيه أيضًا (٦٥٥٧) ، باب صفة الجنة والنار ، ومسلم في كتاب المنافقين ، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٢٨٠٥) (٥١) واللفظ لمسلم .

(٢) «تفسير البغوي» (٧/ ٣٨٠) ط دار طيبة .

ويُؤيدُ ذلك قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

والآياتُ التي تدلُّ على ذلك كثيرة ، وكلُّها تؤكد أن الله ـ جَلَّ وعلا ـ ما خلق الخلق إلا لعبادته وحده دون شريك[١].

وأما العبادةُ : فهي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضَاهُ من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ؛ فالصلاةُ والزكاةُ والصيامُ والحجُّ ، وصِدْقُ الحديث ، وأداء الأمانة ، وبرُّ الوالدين ، وصِلَةُ الأرحام ، والوفاءُ بالعهود ، والأمرُ بالمعروف ، والنهيُ عن المنكر ، والجهادُ للكفار والمنافقين ، والإحسانُ إلى الجار ، واليتيم ، والمسكين ،وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاءُ والذكرُ والقراءةُ ، وأمثالُ ذلك من العبادة ـ يعني الظاهرة ـ وكذلك حبُّ الله ورسولِهِ وخشيته ـ تعالى ـ والإنابةُ إليه ، وإخلاصُ الدين له ، والصبرُ لحكمه ، والشكْرُ لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكلُّ عليه ، والرجاءُ لرحمته ، والخوفُ لعذابه ، وأمثالُ ذلك هي من العبادة لله[٢] ـ يعني الباطنة ـ وجماعُ الغبادة كمالُ الحبِّ مع كمالِ الذلِّ[٣].

والدينُ كلُّه هو العبادةُ بفعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه يقول

---

(١) وسوف نوضح ذلك مفصلاً في توحيد الألوهية .

(٢) انظر : «رسالة العبودية» ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩) وما بعدها.

(٣) «العبودية» مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٣، ٢٥١) ، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ١٣٢) ط دار الكنوز الأدبية و« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٦/ ٣١) ط دار العاصمة.

الإمام ابن القيم ـ رحمه الله[1]:

والأمرُ والنهيُ الذي هو دينه وجزاؤه يومَ المعادِ الثـاني

إذن : فالمرادُ بالعبادة التي خُلِقُوا لها هي العبادة الخالصة التي لم يلبسها شركٌ بعبادةِ شيءٍ سوى الله كائنًا ما كان أو من كان .

فلا تصحُّ الأعمال ابتداءً إلا بالبراءة من عبادة كل ما يُعبد من دون الله ؛ كما قال ـ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] .

فلقد قرن الله ـ جلَّ وعلا ـ الأمْرَ بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حَرَّمه وهو الشرك في العبادة .

فدلَّت الآيةُ الكريمةُ على أن اجتناب الشرك شرطٌ في صحة العبادة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]

ومن ثَمَّ .. فالإله : هو المعبود .. والتأله : هو التنسك والتعبد .. والألوهية: أصلها هو العبادة .. ولا إله إلا الله ، معناها : لا معبود بحقٍّ سوى الله .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] .

---

(١) «القصيدة النونية» (٢/ ٢٦٣) ط مكتبة ابن تيمية الطبعة الثانية ١٤١٧هـ .

ثانيًا : الأندادُ : -

والندُّ : المثيل والنظير والمناوئ والشبيه .

يقول ابن القيم - رحمه الله [(١)].

«الندُّ : الشَّبيهُ ، يُقال : فلان نِدُّ فلان ونديده ، أي : مِثْلُهُ وشبهه » .

فَجعْلُ الندِّ لله - عزَّ وجلَّ - هو صرفُ العبادة أو شيء منها لغير الله - عزَّ وجلَّ.

وكلمةُ التوحيد « لا إله إلا الله » نفيٌ لاتخاذِ الأنداد مع الله - تعالى - وإفراده وحْدَهُ بالعبادة .

يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] .

قال الإمام ابنُ كثير في «تفسيره»[(٢)]:

«عن ابن عباس أي :لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسولُ ﷺ من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه»[(٣)] .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال : الأنداد : هو الشرك أخفى من دبيب النملِ على صَفَاةٍ

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٩) ط المعرفة بيروت .

(٢) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (تفسير سورة البقرة:آية٢٢) (الجزء الأول) .

(٣) أخرجه الطبريُّ في«تفسيره» (٤٨٦) ، وابن أبي حاتم (٢٢٩) وفي سنده محمد بن أبي محمد وفيه جهالة .

سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ، ويقول : لَولَا كلبه هَذا لَأتانا اللصوصِ البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلانًا هذا كلُّه به شرك »[(١)] ، وهذا من الشرك الأصغر .

لأن اتخاذ الند على قسمين[(٢)]:

الأول : أن يجعله ـ أي الند ـ شريكًا لله في أنواع العبادة أو بعضها ، كما تقدم ، وهو شركٌ أكبر .

والثاني : ما كان من نوع الشرك الأصغر ؛ كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت . وكيسير الرياء ، فقد ثبت أن النبيَّ ﷺ لما قال له رجُلٌ : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ ، قَالَ : « **أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ؟! بَلْ قُلْ : مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ** »[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (رقم:٢٢٧) من طريق: أبي عاصم عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس موقوفًا .

قُلْتُ : وسنده حسن ، وقد أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٤٨٥) من طريق : أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة قوله .

قال العلامة أحمد شاكر في تعليقه على الطبري: «ولعلَّ الطبري قصَّر بهذا الإسناد؛ لأنه يروى مثل هذه الروايات بهذا الإسناد إلى عكرمة عن ابن عباس .... » .

(٢) «فتح المجيد» (ص٧٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٨٣) ، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) ، وابن ماجه في «السنن» كتاب الكفارات ، بابُ النهي أنْ يُقال ما شاء الله وشئت (٢١١٧) ، والنسائيُّ في «الكبرى» (١٠٨٢٥) من حديث الأجلح عن يزيد بن الأصم عن =

وأما الشرك الأكبر، وهو : اتخاذُ ندٍّ لله في العبادة ، ففيه حديثُ عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه : أن رسولَ الله ﷺ قال : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ »[(١)]

يقول الإمامُ ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[(٢)] :

والشركُ فاحذرْه ، فشركٌ ظاهرٌ ذا القِسْمِ ليس بقابلِ الغفران
وهو اتخاذُ الندِّ للرحمنِ أيًّا كان من حجَرٍ ومن إنسانِ
يدعوه أو يرجُوه ثم يخافُه ويحبُّه كمحبةِ الديَّانِ

ولا يقتصرُ اتخاذُ الندِّ عند هذا الحدِّ على النحو الذي كان يفعله المشركون على عهد رسول الله ﷺ من عبادة الأصنام فحسب !!

بل هناك صورٌ أخرى من صور الشرك ؛ كالاستغاثة بغير الله ، والخوف من غير الله ، والرهبة والخشية من غيرْه ، وتعليق الرجاء بغيره ، فقد تكونُ الأنداد على شكلٍ ورسْمٍ وصورةٍ مختلفةٍ تمامًا عن الصورة التي كان يزاولها المشركون .

نعم .. فكم من الناس ـ إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك ــ قد اتخذ أندادًا مع الله أو من دونه يحبونهم كحب الله أو أشد من حبهم لله تعالى ، وقد نُقِشَت محبةُ

= ابن عباس ، وأخرجه النسائيُّ في «الكبرى» أيضًا (برقم:١٠٨٢٤) من حديث الأجلح عن أبي الزبير عن جابر ، والحديث حسَّنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (برقم:١٣٩) .

(١) أخرجهُ البخاريُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا) ـ أضدادًا واحدها : ندٌّ .(٤٤٩٧) .

(٢) «القصيدة النونية» (٢/ ٢١٧) .

هذه الأنداد على جدران قلوبهم ، وقدَّموا لها من كمالِ الذلِّ والانقياد والتسليم والإذعان والمحبة والرضى ما لم يقدموه لمن يستحق كمالَ الذلِّ مع كمالِ الحب وهو الله ـ جَلَّ جلاله ـ وحْدَه لا شريك له .

وقد ذكر الله هذا الصنف الخبيث في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]

أَيْ : والذين آمنوا أشد حُبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم ؛ لأن قُرَّة عين المؤمن ونعيمَه في حُبه لله ورسوله ﷺ أكثر مما سواهما .

بل لو خُيِّرَ بين الكفر وإلقائه في النار ، لاختار أن يُلقى في النارِ ولا يكفر بالعزيزِ الغفار !!

وهذه المحبةُ لا نظير لها ؛ إذ هي تقتضي تقديم المحبوب على النفس والمال والولد، وتقتضي كذلك كمال الذُّلِّ والخضوعِ مع كمالِ الحبِّ والتعظيمِ والإجلالِ .

وفي «الصحيحين» [(١)] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ قال :

« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦)، و مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان(٤٣) .

بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى[(١)] :

«ليس للقلوب سُرورٌ ولا لذةٌ تامةٌ إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبُّه ، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كلِّ محبوبٍ سواه ، وهذه حقيقةُ « لا إله إلا الله » وهذه ملةُ إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وسائرِ الأنبياء والمرسلين ـ صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ».

ومِنْ ثَمَّ ؛ فكلمةُ التوحيدِ نفيٌ للأنداد التي تُعبد مع الله أو من دونه .

وإفرادُ الله تبارك وتعالى وحْدَه بالعبادة الخالصة بركنيها من كمال الذل مع كمالِ الحبِّ له وحْدَه ـ جَلَّ وعلا .

ثالثًا : الطواغيت :

والطاغوتُ : مشتقٌّ من الطغيان ، وهو مجاوزةُ الحدِّ .

قال عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه : « الطاغوتُ : الشيطان »[(٢)] .

وقال مالك ـ رحمه الله : « الطاغوتُ : كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ الله »[(٣)] .

قال الإمام الطبريُّ في «تفسيره»[(٤)] :

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/ ٣٢) .

(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٥٨١٢، ٥٨١٣) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (لسورة البقرة:٢٥٦) . وقد عزاه أيضًا للبغوي .

(٣) «تفسير البحر المحيط» (لسورة النساء:٥١) ، و«تفسير الألوسي» (لسورة البقرة:٢٥٦) ، و«تيسير العزيز الحميد» (٣٣) ، و«المحرر الوجيز» (تفسير النساء:٥١) لابن عطية .

(٤) «تفسيرُ الطبريِّ» (٢/ ١٥٠٠) ط دار السلام .

«والصواب من القول عندي في الطاغوت: أنه كلُّ ذي طغيان على الله، فعُبد من دونه، إما بقهرٍ منه لمن عبده، وإما بطاعةٍ ممن عبده له، إنسانًا كان ذلك المعبود، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيء».

وقد حدَّه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ حدًّا جامعًا، فقال[1]:

«الطاغوتُ: كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه، من معبودٍ أو متبوع أو مطاع، فطاغوتُ كلِّ قوم مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعةٌ لله، فهذه طواغيتُ العالم إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم انصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا» انتهى.

وما من نبيٍّ أو رسولٍ إلا وقد دعا قومه إلى الإيمان بالله وحْده وإلى عبادة الله وحْدَه، والكفرِ بالطاغوتِ في جميع أشكاله وصوره التي لا تنتهي

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥) ط مكتبة ابن تيمية

* قال النوويُّ في «شرح صحيح مسلم» (٣/ ١٨):

«الطواغيت جمع طاغوت، قال الليث وأبو عبيدة والكسائيُّ وجماهير أهل اللغة: الطاغوت: كلُّ ما عبد من دون الله تعالى، وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي وغيرهم: الطاغوت: الشيطان، وقيل: هو الأصنام» ورجح الأخير ابن كثير في «تفسيره» (لسورة البقرة: ٢٥٦).

عند حدٍّ .

فالطاغوتُ له في كلِّ عصرٍ لغة ، وله في كلِّ عصرٍ منهج ، وله في كلِّ عصرٍ أسلوب ، وله في كلِّ عصرٍ لسان ؛ بل ألف ألف لسان !!

يقول الشيخ محمدُ بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى[1] :

« اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ أولَ ما فَرَضَ الله على ابن آدم : الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] فأما صفةُ الكفرِ بالطاغوت : فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله ، وتتركها ، وتبغضها ، وتكفر بأهلها وتعاديهم .

وأما معنى الإيمان بالله : فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه ، وتُخلص جميع أنواعِ العبادة كلها لله ، وتنفيها عن كلِّ معبودٍ سواه ، وتحب أهلَ الإخلاص وتواليهم ، وتبغضُ أهْلَ الشرك وتعاديهم ، وهذه ملَّةُ إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها ، وهذه الأسوة التي أخبر الله بها في قوله :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا

---

(١) «الواجبات المتحتمات المعرفة على كل مسلم ومسلمة» (١٠-١٢) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، وانظر : «الدرر السنية» (١/ ١٠٩، ١١٠) .

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾

[الممتحنة:٤]

والطاغوتُ عامٌّ في كل ما عُبد من دون الله ؛ فكلُّ ما عبد من دون الله ، ورضي بالعبادة ؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ في غير طاعة الله ورسوله ، فهو طاغوت !

والطواغيت كثيرةٌ ، ورؤوسُهم خمسةٌ :

الأول : الشيطانُ الداعي إلى عبادة غير الله ، والدليلُ : قولُه تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[يس:٦٠].

الثاني : الحاكِمُ الجائِر المُغيِّر لأحكام الله تعالى ، والدليلُ : قولُه تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:٦٠] .

الثالث : الذي يحكُم بغير ما أنزل الله ، والدليلُ : قولُه تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤] [1].

الرابعُ : الذي يدَّعي علم الغيب من دون الله ؛ والدليلُ : قولُه تعالى :

---

(١) والمسألة فيها تفصيل يأتي في المبحث الثالث إن شاء الله .

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[الجن:٢٦، ٢٧] .

وقولُه تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام:٥٩] .

الخامسُ : الذي يُعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة ، والدليلُ : قولُه تعالى :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء:٢٩] .

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت، والدليلُ : قولُه تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٥٦] .

الرُّشْدُ : دينُ محمدٍ ﷺ.

والغيُّ : دينُ أبي جهل .

والعروةُ الوثقى: شهادة أن لا إله إلا الله وهي متضمنةٌ للنفيِ والإثباتِ ، تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى ، وتثبت جميع أنواع العبادة كلَّها

لله وحْدَه لا شريك له » . اهـ .

ويقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآية أيضًا (١):

«وقوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، يقول : «أي : من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان ؛ من عبادة كلِّ ما يعبد من دون الله ووحَّدَ الله ؛ فَعَبَدهُ وَحْدَه ، وشهد أن لا إله إلا هو . ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد ثبت في أمره ، واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم » .

إذن ؛ فكلمةُ التوحيد « لا إله إلا الله » هي أيضًا نفيٌ لكلِّ الطواغيت وكفرٌ بجميع الطواغيت ، بجميع أشكالِها وصورِها ، والبراءة من كلِّ ذلك ، والإيمانُ بالله تعالى وحْدَه ، وتوجِيهُ العبادةِ كاملةً إليه سبحانه دون شريك ، وأن كلَّ مَنْ عبد شيئًا دون الله فإنما عَبَد الطاغوت ، فإن كان المعبودُ صالحًا كانت عبادة العابدِ له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له ، كما قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (الجزء الأول : سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦).

أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾

[يونس:٢٨، ٢٩]

وإن كان المعبودُ ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت ، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا ؛ كاللات والعزى ومناة ، وغير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصنامًا على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك ، فهي من الطاغوت الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرؤوا منه ، ومن عبادة كلِّ معبود سوى الله كائنًا من كان ؛ فالتوحيدُ هو الكفر بكلِّ ما عبد من دون الله ؛ كما قال تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ الآية [الزخرف:٢٦، ٢٧] ، فلم يستثن من كلِّ معبود إلا الذي فطره سبحانه وتعالى ، وهذا معنى : «لا إله إلا الله»[1]

رابعًا : الأرباب :

وربُّ : ربُّ كلِّ شيء : مالكُهُ وصاحِبُه ، والربُّ ـ هكذا بالتعريف ـ اسمٌ من أسماء الله تعالى .

وكما يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[2] : «فاسم « الربِّ » له الجمع الجامع لجميع المخلوقات ، فهو ربُّ كل شيء وخالقه ، والقادر عليه ، لا يخرج شيٌء عن ربوبيته ، وكلُّ من في السموات والأرض عبدٌ له

---

(١) بتصرف من «قرة عيون الموحدين» (ص١٩٢ وما بعدها) .

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤) .

في قبضته ، وتحت قهره » .

وقال الواسطيُّ : « الربُّ : هو الخالق ابتداءً ، والمُربِّي غذاءً ، والغافِرُ انتهاءً»(١) .

ولكن هناك من البشر من اتخذوا أربابًا من دون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١].

قال العلامة الرازيُّ ـ رحمه الله تعالى(٢) : « الأكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم » . اهـ .

والأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العبَّاد(٣) .

وهذه الآية قد فسرها النبيُّ ﷺ لعَديِّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ وذلك أنه لمَّا جاء مسلمًا دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم .

فقال: «بَلَى إِنَّهُمْ حرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ ، وحَلَّلُوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ »(٤) .

---

(١) «تفسير النسفي» (١/ ٣، ٧) .

(٢) «تفسير الرازي» المسمَّى «مفاتيح الغيب» (سورة التوبة : ٣١) .

(٣) قال في «اللسان» (مادة حبر٢/ ٢٩٠) :

«والحِبْر والحَبْر : العالم ؛ ذميًّا كان أو مسلمًا ، بعد أن يكون من أهل الكتاب» .

و«الراهب» : المتعبد في الصومعة ، وأحد رهبان النصارى ، ومصدره الرهبة والرهبانية ، والجمع : الرهبان ، والرهابنةُ خطأ . («اللسان» مادة رهب) .

(٤) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٥) وقال:«هذا حديثٌ=

قال أبو العالية: «استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم » (١) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١] .

فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرَّمه الله ، والدين ما شرعه الله .

قال شيخ الإسلام في معنى قوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين :

الأول : أن يعلموا أنهم بدَّلوا دينَ الله فيتبعونهم على هذا التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ؛ فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركًا ، وإن لم يكونوا يُصَلُّون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله

= غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروفٍ في الحديث » والطبريُّ في «تفسيره» (١٦٦٨٦) (١٦٦٨٨) ، وابن أبي حاتم (١٠٢٩٥) ، والطبرانيُّ في «الكبير» (٢١٨) (١٧/ ٩٢) ، والبيهقيُّ في«الكبير» (١٠/ ١١٦) ، والسِّلفي في «الطيوريات» (١٦٧) ، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٣/ ١١٨، ١١٩) من حديث عدي بن حاتم مرفوعًا ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي » ، و «غاية المرام» (٦) وروي موقوفًا على حذيفة ، كما عند الطبريِّ (١٦٦٨٩) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (لسورة التوبة:٣١) .

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (١٦٦٩٧) . وأورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٣٥ط طيبة) عن السدي .

ورسوله كان مشركًا مثل هؤلاء .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ؛ كما قد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال : « **إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْـمَعْرُوفِ** »[1] .

ثم ذلك المُحرِّم للحلال والمُحلِّل للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه . ولكن من عَلِمَ أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمَّه الله ، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان ، مع علمه أنه مخالف للرسول ؛ فهذا شركٌ يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال . وإن كان عاجزًا عن إظهار الحق الذي يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي (٤٣٤٠) ، وكتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، (٧١٤٥) و مسلم، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية الله (١٨٤٠) .

يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الآية [المائدة:٨٣] .

وقوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩]

وأما إن كان المُتَّبِعُ للمجتهد عاجزًا عن معرفة الحق على التفصيل ؛ وقد فعل ما يقدر عليه مثلهُ من الاجتهاد في التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القِبْلة . وأما من قلَّد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيبًا لم يكن عملهُ صالحًا ، وإن كان متبوعُه مخطئًا كان آثمًا ، كمن قال في القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار ، وهؤلاء من جنس مانعي الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال حبًّا منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبدًا له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك .

وفي الحديث : « إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ »[1] ، وهذا مبسوطٌ عند

(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» ، كتاب الفتن ، باب من ترجى له السلامة من الفتن (٣٩٨٩) وقال في «الزوائد» : « في إسناده عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف» ولكنه توبع ، فقد أخرجه الطبرانيُّ في«الكبير» (٢٠/ ١٥٣) والحاكم (١/ ٤٤) و (٤/ ٣٦٤)، والبيهقي في «الشعب»=

النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب » انتهى [1] .

« ويظهر من هذا أن الآية دلَّت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحلَّه الله ، وأطاعه في معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا وجعله لله شريكًا ؛ وذلك ينافي التوحيد الذي دلَّت عليه كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن الإله هو المعبود ، وقد سمَّى الله تعالى طاعتهم عبادةً لهم وسمَّاهم أربابًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٨] .

أي : شركاء لله تعالى في العبادة ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وهذا هو الشرك ؛ فكلُّ معبودٍ ربٌّ ، وكلُّ مُطَاع ومُتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيعُ المتبعُ ربًّا ومعبودًا ، كما قال تعالى في آية الأنعام : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١] ، ويشبه هذه الآية في المعنى ؛ قَوْلُه تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ

= (٦٨١٢) من طريق : زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن معاذ مرفوعًا ، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٣) ، والشاشي في «مسنده» (١٢٦١) ، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٦) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٩٨) من طريق : أبي قحذم عن أبي قلابة عن ابن عمر قال : مر عمر بمعاذ فذكره . قال البوصيري في « إتحاف الخيرة» (٧/ ١٥٤) : « رواه أحمد بن منيع بسندٍ ضعيف لضعف أبي قحذم » . وقد توبع أبو قلابة من مجاهد ؛ كما عند الطبراني في « الأوسط» (٧١١٢) ، والحديث قد أعلَّه قوم ، ولكنه صحيحٌ لغيره ، كما صحَّحه الدويش في «تنبيه القارئ على تقوية ما ضعَّفهُ الألباني » (١/ ١٧٤) ، وراجع «الضعيفة» (١٨٥٠) .

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٧٠ـ ٧٢) .

يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١]، والله أعلم ». انتهى [١] .

ويقول الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء:٦٠] .

يقول الحافظ ابن كثير في الآية : «فإنها ذامةٌ لمن عَدَلَ عن الكتاب والسنة ، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل»[٢] .

ولنا عودةٌ للحديث عن هذا الأمر العظيم ونحن نتحدث عن شرط الانقياد كشرط من شروط « لا إله إلا الله » وعن تحكيم الشريعة أيضًا في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦][٣] :

« قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإنَّ عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظمُ فسادٍ في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك والدعوة إلى غير الله ، وإقامة معبودٍ غيره ومطاعٍ متبعٍ غير رسول الله ﷺ هو أعظمُ الفسادِ في

(١) انظر: «فتح المجيد» (ص١٠٦) .
(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٨) ط أولاد الشيخ .
(٣) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٢٥، ٥٢٦).

الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحْدَه هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلاَّ ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة ، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ، ونهى عن إفسادها بالشرك به ، وبمخالفة رسوله ، ومن تدبر أحوال العالم وجد كلَّ صلاح في الأرض فسببه توحيدُ الله وعبادته وطاعةُ رسوله ﷺ ، وكلُّ شرٍّ في العالم وفتنةٍ وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك ، فسببهُ مخالفةُ رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله ». انتهى.

ومن خلال هذا العرض السريع لما نفته كلمةُ التوحيد « **لا إله إلا الله** » يتبين لنا أن الدين كلَّه مبنيٌّ على تحقيق التوحيد كما قررته هذه الكلمة المباركة ؛ فلا يمكن بحالٍ أن يجتمع في قلبٍ واحدٍ الإيمانُ بالطاغوت والإيمان بالله ، ولا يمكن بحال أن يجتمع في قلب واحد الإيمانُ بالأرباب والآلهة والأنداد والإيمانُ بالله ـ عزَّ وجلَّ .

ومَنْ سوَّى بين المخلوق والخالق في كلِّ شيء فقد عَدَل بالله ، وهو من الذين هم بربهم يعدلون ، وقد جعل مع الله إلهًا آخر وإن كان في الوقت ذاته يعتقد أن الله هو خالق السموات والأرض ، فكلمةُ التوحيد نفيٌ لكلِّ صورِ الشرك ، وإثباتٌ للتوحيد والعبودية لله ـ عزَّ وجلَّ .

وهكذا .. فكما أن كلمة التوحيد « **لا إله إلا الله** » نفيٌ للآلهة والأرباب والأنداد والطواغيت ، وهذا ما تعرفنا عليه في الصفحات الماضية ؛ فهي

أيضًا ـ أي كلمة التوحيد ـ تثبتُ التوحيد بأقسامه الثلاثة لله ـ عزَّ وجلَّ ، وهذا ما نوضحه إن شاء الله في الصفحات التالية .

ما تثبته كلمة التوحيد :

تبين لنا من خلال هذا العرض السابق لمعنى « لا إله إلا الله » أن حقيقة معناها ـ الذي جهله كثيرٌ من المسلمين ـ هو البراءة التامة من كلِّ معبودٍ ؛ من آلهةٍ وأندادٍ وطواغيتَ وأربابٍ ، وتجريد العبادة بجميع أنواعها وصورها لله ـ جلَّ وعلا ـ وحده لا شريك له ، وهذا هو تحقيق التوحيد ؛ فالتوحيدُ هو معناها وأصلها ، وهو حدُّ الإسلام ، وأساسُ الدين وأصْلُه ، وعليه تُبنى كلُّ فروع الدين .

والتوحيدُ الذي تثبته كلمة التوحيد ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام وهي [1]:

أولاً : توحيد الربوبية :

« وهو إفراد الله تبارك وتعالى بالخلق والأمر ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

فالخَلْقُ والأمر ـ وهو التدبير ـ هو الربوبية وهو مختصٌّ بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا خالق إلا الله ولا آمر ولا مدبر إلا الله ـ عزَّ وجلَّ » [2].

فشؤونُ الربوبية جميعها ؛ من الخلق والملك والرزق والتصريف

(١) ذكرتُ قبل ذلك أن هذا تقسيمٌ نظريٌّ للدراسة ، وإلا فإن التوحيد لا يتجزأ .

(٢) «المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العُثيمين» : جمع وترتيب : فهد بن ناصر السليمان (١/ ١٦) ، طبعة دار الوطن للنشر .

والتدبير لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده ؛ فهو وحْدَه الخالق وما عداه مخلوق ، وهو وحْدَه الرازق وما عداه مرزوق ، وهو وحْدَه الربُّ وما عداه مربوب ، وهو وحْدَه المالك وما عداه مملوك .

وهذا أمرٌ تشهد به الفطرة ، ولا ينكره إلا من مات إنصافُه في قلبه فعمي بذلك بصره ، وضلَّ بذلك عقلُه !!

لأن الكون كُلَّه من عرشِهِ إلى فرشِهِ ، أو من سمائِهِ إلى أرضه ينطقُ بذلك .

فمُحالٌ أن توجد هذه المخلوقات على تعدُّد أنواعها وألوانها وأشكالها وصنوفها بدون خالق !!

الأدلة النقلية :

والأدلةُ النقليةُ على هذا أكثر من أن تُحصى في القرآن والسنة المطهرة .

ومنها قول الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾

[الطور: ٣٥، ٣٦]

قال البغويُّ (١):

«قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما (٢): «﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي :

---

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٥/ ٢٣٨) .

(٢) وهو من رواية محمد بن السائب ـ وهو الكلبي ـ عن أبي صالح عن ابن عباس («الأسماء والصفات» للبيهقي) (ص٣٩١) وسنده لا يصح .

من غير ربٍّ ؟! » ومعناه : أخلقوا من غير شيء خلقهم ، فوجدوا بلا خالق، وذلك مما لا يجوز أن يكون »وهذا المعنى هو المشهور في معنى الآية [(١)] .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله [(٢)]:

« أم خلقوا من غير شيء، من غير رب خلقهم ، وقيل : من غير مادة ، وقيل : من غير عاقبة وجزاء ، والأول مراد قطعًا ؛ فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلابد له من خالق » .

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله [(٣)]:

« أَخُلِقَ هؤلاء المشركون من غير شيء ، أي من غير آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بعبرة ، ولا يتعظون بموعظة ، وقد قيل : إن معنى ذلك : أم خلقوا لغير شيء ....

﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ يقول : أم هم الخالقون هذا الخلق ، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ؛ لأن للخالق الأمر والنهي ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ يقول : أخلقوا السموات والأرض فيكونوا هم الخالقين ، وإنما معنى ذلك : لم يخلقوا السموات والأرض ، ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ يقول : لم يتركوا أن يأتمروا لأمر ربهم ، وينتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهي ؛ لأنهم خلقوا السماوات والأرض ،

---

(١) «منهاج السنة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٧٣) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٥١) .

(٣) «تفسيرُ الطبريِّ» (٩/ ٧٦٦٦) .

فكانوا بذلك أربابًا ، ولكنهم فعلوا ذلك ؛ لأنهم لا يوقنون بوعيد الله وما أعد لأهل الكفر به من العذاب في الآخرة»اهـ .

وقول الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤] .

وقول الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس:٣٣-٤٢] .

وقول الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٠ـ٢٥].

وفي «مسند أحمد» و«سنن الترمذي وأبي داود» وغيرهم من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ ، جَعَلَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلَ وَالْحَزْنَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْخَبِيثَ وَالطَّيِّبَ وَبَيْنَ ذَلِكَ » (١).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦)، والترمذي (٢٩٥٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة وقال: « هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر (٤٦٩٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٤٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٠)، والبزار في «مسنده» «البحر الزخار» (٢٦٠٨)، والبيهقي في «الكبير» (٩/ ٣)، وصححه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٠).

ويقول الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ
اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ [النمل:٦٠-٦٤] .

يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله تعالى :

« فلما كان هذا الشركُ في الربوبية موجودًا في الناس بيَّن القرآن بطلانه ؛ كما في قوله تعالى :﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١] ؛ فتأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر ؛ فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا ، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضرَّ ، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه ، لكان له خلق وفعل ، وحينئذٍ

فلا يرضى تلك الشركة .. ثم يقول بعد ذلك : فلابُدّ من أحد ثلاثة أمور :

ـ إمَّا أن يذهب كلُّ إلهٍ بخلقه وسلطانه .

ـ وإمَّا أن يعلو بعضهم على بعض .

ـ وإمَّا أن يكونوا تحت قهر ملكٍ واحدٍ يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه ؛ بل يكون وحده هو الإله ، وهم العبيدُ المربوبون المقهورون من كلِّ وجه .

وانتظام أمر العالم كلِّه وإحكام أمره ، مِنْ أدلِّ دليلٍ على أن مدبره إلهٌ واحد ، وملكٌ واحد ، وربٌّ واحد ، لا إله للخلقِ غيره ، ولا ربَّ لهم سواه » (١).

والآياتُ في هذا الباب العظيم أكثرُ من أن تحصى ، كما أسلفنا وفي هذا كفاية ، وكذلك الأدلة النقلية من حديث النبيِّ ﷺ أيضًا كثيرة نذكر منها حديثين شريفين :

الأول : عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال :

« سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ... » (٢) الحديث .

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٨٧) ، ط المكتب الإسلامي .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦) ، وباب ما يقول إذا أصبح (٦٣٢٣).

الثاني: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : يَا رَسُولَ الله ، مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ قَالَ :

« قُلْ : اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ ... » [(١)] الحديث .

الأدلة العقلية :

وأما الأدلةُ العقليةُ على توحيد الربوبية ؛ فهي أيضًا أجلُّ من أن تستقصى ، ومن أجمل هذه الأدلة ؛ ما استشهد به الإمامُ أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حينما سُئل عن ذلك ؛ فقال : « هاهنا حصنٌ حصينٌ أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ؛ فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره ، فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكلٍ حسن ، وصوتٍ مليح » .اهـ .

« يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الديك » [(٢)].

وعن الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ أنه سُئل عن وجود الخالق ـ عزَّ وجل ـ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩، ١٠) و (٢/ ٢٩٧) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٢) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩/ ٧٢) و (١٠/ ٢٣٧) ، وفي «الأدب» له (٢٣٩) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٧) ، والترمذي ، كتاب الدعوات ، باب (١٤) (٣٣٩٢) ، والنسائي في «الكبرى» (٧٧١٥) ، والطيالسي في «مسنده» (٩) ، والدارمي في «سننه» (٢٦٨٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٩٦٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا ، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله في «الصحيحة» (٢٧٥٣) .

(٢) «معارج القبول» (ج١ ص١١١) طبعة دار ابن القيم .

فقال : «هذا ورق التوت ؛ طعمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الحرير ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا ، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك وهو شيء واحد[1] .

قلْتُ : سبحان الله ؛ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم :

دعوني فإني مفكر في أمر قد أُخبرت عنه ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة ، فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء ، وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد ؛ فقالوا : هذا شيءٌ لا يقوله عاقل ؛ فقال : وَيْحَكُم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة أليس لها صانع ؟ فبُهت القوم ورجعوا إلى الحق ، وأسلموا على يديه .

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك ، فاستدلَّ له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات[2] .

---

(١) المرجع السابق (١/ ١١١) .

(٢) «معارج القبول» ـ الجزء الأول (ص١١٠) وما بعدها ؛ وانظر : «تفسير ابن كثير» (لسورة البقرة:٢٢) ، و «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٨٤، ٨٥) ط المكتب الإسلامي .

وصدق من قال :

سَل الواحةَ الخضراءَ والماءَ جاريا ... وهَذي الصحاري والجبالَ الرَّواسيا
سَل الرَّوضَ مُزْدانًا سَل الزَّهْرَ والنَّدى ... والليل والإصباحَ والطير شاديًا
سَل هذه الأنسامَ والأرضَ والسما ... سَلْ كلَّ شيء تسمع التوحيد لله ساريا
ولو جنَّ هذا الليلُ وامتدَّ سرمدًا ... فمَنْ غيرُ ربي يرجع الصبح ثانيا

ولعل من أجمل ما ذُكر في هذا الباب العظيم ؛ ما قاله قِسُّ بنُ ساعدة الإيادي ، وكان من الناس الذين يعبدون الله على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل بعثة المصطفى ﷺ .

يقول ـ رحمه الله تعالى: « أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فَعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا وقولوا ، وإذا قلتم فاصدقُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، كل ما هو آت آت ، مطرٌ ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن في السماء خبرًا ، وإن في الأرض عبرًا ، يحار فيهن البصر ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تفور » .

ثم يقول بعدها : « شرق وغرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثْرِهَا آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، وفقير وغني ، ومحسن ومسيء ، تبًّا لأرباب الغفلة ، بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا

والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى »[(١)] .

ورحم الله من قال :

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ   أم كيف يَجْحَدُهُ الجاحدُ
ولله في كل تحريكة   وفي كل تسكينةٍ شاهدُ
وفي كل شيءٍ له آية   تَدُلُّ على أنه الواحدُ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٨٨) ، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٤٥) ، وأبو سعيد النقاش في «فنون العجائب» (٤٠) ، والخطيب في «تاريخه» (٢/ ٢٨١) ، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢١٣) من طريق : اللخمي عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس مرفوعًا ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٦٩٧) : «رواه الطبراني والبزار وفيه اللخمي وهو كذاب» ، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٠٢) ، وفي «الزهد» (٦٩٦) من طريق أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا ، وقد حكم عليه بالوضع ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢١٤) ، وقال : « وهذا الحديث من جميع جهاته باطل » ، وأبو الفتح الأزدي كما في [«اللآلئ المصنوعة» (١٦٧) ، و«الفوائد المجموعة» (٢٥١)] ، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٠١) من حديث أنس مرفوعًا ، وأخرجه العسكري في «الأوائل» (١٥) عن ابن مسعود مرفوعًا ، وله طريق أورده الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٣٠) من حديث عبادة ، أخرجه الخرائطي في «هواتف الجنان» وحكم الحافظ ابن كثير على سنده بالغرابة ، ثم أورد له طرقًا وأوجهًا أخرى ، ثم قال : « قال البيهقي : وإذا روى الحديث من أوجه أخر ، وإن كان بعضها ضعيفًا دل على أن للحديث أصلاً والله أعلم ».

ومن أهل العلم من حسن الحديث بطرقه الكثيرة ، ومن هؤلاء الإمام السيوطي ، وقد دافع وردَّ على من ضعَّف الحديث بقوة ، فقال : « فلو وقف الحافظ ابن حجر على هذه الطريق لحكم للحديث بالحسن لما تقدم من الطرق وخصوصًا الطريق الذي في « زيادات الزهد» لابن حنبل (٣٥٥) فإنه مرسل قوي الإسناد ، فإذا ضم إلى هذه الطريق الموصولة التي ليس فيها واهٍ ولا متهم حكم بحسنه بلا توقف» راجع «الفوائد المجموعة» و«تنزيه الشريعة» (١/ ٢٤١، ٢٤٣) ، و«الإصابة» (ترجمة قس بن ساعدة) .

قال أبو نواس [(١)]:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

ولما سُئل الأعرابي الذي عاش بين آيات القدرة وتخرَّج من مدرسة الفطرة . ما الدليلُ على وجود الربِّ تبارك وتعالى ؟ فقال : يا سبحان الله ، إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، سَماءٌ ذاتُ أبراج ، وأرضٌ ذاتُ فجاج ، وبحار ذاتُ أمواج ، ألا يدلُّ ذلك على وجود اللطيف الخبير [(٢)]؟!

ورحم الله من قال :

الشمسُ والبدرُ من آثارِ قدرته والبرُّ والبحرُ فَيْض من عطاياه
الطيرُ سَبَّحهُ والوحشُ مجَّدَهُ والمَوْجُ كبَّره والحُوتُ ناجاه
والنَّملُ تحت الصخورِ الصُمِّ قدَّسهُ والنحلُ يهتفُ حمدًا في خلاياه

فما من ذرة من ذرات هذا الكون إلا وتشهد بربوبية الخالق ـ جَلَّ وعلا ـ والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا.

وهذا التوحيد أقرَّ به المشركون وما عاندوه ولا عارضوه ؛ فلو سألتهم

(١) «تفسير ابن كثير» (سورة البقرة: آية ٢٢) .
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١١) ط أولاد الشيخ .

عن خالقهم ورازقهم ومالكهم وفاطرهم وخالق السموات والأرض لقالوا : « الله » ؛ كما حكى القرآن عنهم ذلك :

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

[المؤمنون:٨٨، ٨٩]

ولم يعارض هذا التوحيد من عارضه إلا على سبيل المكابرة والعناد ؛ كفرعون الذي قال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] .

وكالدهريين الذين أنكروا أن يكون لهذا الكون خالق يُصَرِّفه ويُدبِّرُهُ ، وقالوا : إن العالم يسيرُ بنفسه وما يهلكنا إلا الدهر !!

ومنهم الثنوية من المجوس الذين جعلوا للعالم خالقين : خالقًا للخير وهو النور وخالقًا للشر وهو الظلمة !!

ومنهم أهل التثليث عبادُ الصليب !!

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

[الكهف:٥]

ومن ثم يتبين لنا أن مشركي العرب الذين حكم الله تعالى عليهم بالشرك لم ينكروا توحيد الربوبية على الإطلاق ؛ بل إنهم كانوا يتوجهون إلى الله تعالى وقت الشدة ، ويخلصون الدعاء والرجاء ، وينسون ما يشركون ؛ قال تعالى:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥] .

يا له من أمر عظيم !! فاعلم جيدًا ـ يرحمك الله ـ أن مَنْ أقرَّ بتوحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون ، ومع ذلك فقد وجَّه العبادة إلى غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو مشرك من جنس أمثاله من هؤلاء المشركين .

بل الواجب أن يكون هذا التوحيد مستلزمًا لعبادة الله ـ تعالى ـ وحده؛ فإن مَنْ أقرَّ بأن الله هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحْدَه ، وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، وهو الذي يملكُ الضرَّ والنفع ، وهو الذي يُصرِّف الكون ، ويدبر الأمر كلَّه لا شريك له في ذلك ، فَلِمَ يَعْبُدُ مع الله غيره ؟! فتدبر هذا جيدًا ؛ فما أقلَّ مَنْ يعرفه من أهل الأرض ؛ نسأل الله أن يشرح صدورهم وصدورنا للتوحيد .

ثانيًا : توحيد الألوهية :

وهذا هو الذي وقع فيه النزاعُ في القديم والحديث ، وهو توحيدُ العبادة ،

وإفراد الله ـ تبارك وتعالى ـ وحْدَه بها ، وهذا هو حدُّ الإسلام الذي لا يتحقق بغيره .

وتوحيدُ الألوهية متضمنٌ لتوحيد الربوبية دون العكس . ويجمع العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بين ذلك جمعًا دقيقًا عجيبًا ؛ فيقول : « فالجمع الصحيح الذي عليه أهل الاستقامة هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الألوهية .

فيشهد صاحبه قيومية الربِّ تعالى فوق عرشه ؛ يدبر أمر عباده وحده ؛ فلا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، ولا مميت ولا محيي ، ولا مدبر لأمر المملكة ـ ظاهرًا وباطنًا ـ غيره ؛ فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .. لا تتحرك ذرةٌ إلا بإذنه ، ولا يجري حادثٌ إلا بمشيئته ، ولا تسقطُ ورقة إلا بعلمه ، ولا يعزبُ عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمُه ، وأحاطت بها قدرته ، ونفذت بها مشيئته ، واقتضتها حكمته . فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الألوهية : فهو أن يجمع قلبه وَهمَّهُ وعزمه على الله وإرادته ، وحركاته على أداء حقه تعالى ، والقيام بعبوديته سبحانه .. وهذان الجمعان هما حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن العبد يشهد من قوله : ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال ، التي لها كلُّ الأسماء الحسنى ، ثم يشهد من قوله : ﴿ نَعْبُدُ ﴾ جميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة .. ثم يشهد من قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ جميع أنواع

الاستعانة والتوكل والتفويض »[1] .

فتوحيدُ الألوهية : هو إفرادُ الله تبارك وتعالى وحْدَه بجميع أنواع العبادة ؛ من التأله والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والتسليم والاستعانة ... إلخ ، وهذا هو الذي بُعثتْ به الرسل ، ولأجله أنزل الله الكتبَ ، وخلقَ السموات والأرض والجنة والنار .

فالدين كلُّه هو عبادةُ الله وطاعته وحده ، والخضوع له وحده ، بغاية المحبة له وحده ـ جَلَّ وعلا .

ويقول شيخُ الإسلام ابن تيمية في رسالة «العبودية» :

«وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له التي خلق الخلق لها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

وبها أرسل جميع الرسل ؛ كما قال نوح لقومه : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩] .

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل:٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ

---

(١) مستفادٌ بتصرفٍ يسير من «مدارج السالكين» (جـ٣ ص٥٣٢) وما بعدها .

إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢] .

ثم يقول بعد ذلك : فالدين كلُّه داخل في العبادة .

والعبادة أصْلُ معناها : الذُّلُّ أيضًا . يقال : طريق مُعَبَّد إذا كان مُذَلَّلا قد وطأته الأقدام .

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب .. فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له». اهـ [(١)] .

ويقول الإمام النسفيُّ في تفسير قول الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١] :

«اعبدوا ربكم وحده ؛ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما : كُلُّ عبادةٍ في القرآن ؛ فهي توحيد .

احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم ؛ لأنهم كانوا مُقرِّين بذلك ، فقيل لهم : إن كنتم مُقرِّين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ». اهـ [(٢)] .

فما من نبيٍّ ولا رسولٍ إلا ودعا قومه أول ما دعاهم إلى عبادة الله

---

(١) بتصرفٍ من رسالة العبودية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٢) «تفسير النسفي» (١/ ٢٦) .

ـ عزَّ وجلَّ ـ فليست العبادة شيئًا على هامش الحياة ، ولكنها الأصل الأول الذي من أجله خلق الله الجن والإنس ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

ومن أجمل ما قيل ؛ ما ذكره شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالة «العبودية» قال [١]:

« فكلَّما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية ، وكلَّما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية مما سواه ، والقلبُ فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة ، وهي العلة الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية ، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ، ولا يطيب ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربِّه وحده ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كلُّ ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتيٌّ إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ؛ فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله (فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها ، إلا بإخلاص الحب لله) بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية

---

(١) كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٣ـ٢٢٥) .

مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله ، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله ، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة « لا إله إلا الله » ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله ، وكان فيه من النقص والعيب ؛ بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك . ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يكن مستعينًا بالله ، متوكلاً عليه ، مفتقرًا إليه في حصوله ، لم يحصل له ؛ فإن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فالعبدُ مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ، ومن حيثُ هو المسؤول المستعان به ، المتوكل عليه .

فهو إلههُ الذي لا إله غيره ، وهو ربُّه الذي لا ربَّ سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين .

فمتى كان محبًّا لغير الله لذاته ، أو ملتفتًا إلى غير الله أنه يعينه ، كان عبدًا لما أحبه ، وعبدًا لما رجاه ، بحسب حبه له ، ورجائه إياه ، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله ، وكل ما أحبه سواه فإنما أحبه له ، ولم يرج شيئًا قط إلا الله ، وإذا فعل ما فعل من الأسباب ، أو حصل ما حصل منها كان شاهدًا أن الله هو الذي خلقها وقدَّرها وسخَّرها له ، وأن كلَّ ما في السموات والأرض فالله ربُّهُ ومليكه وخالقه ، وهو مفتقر إليه ، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك .

والناس في هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها [1] إلا الله ،

(١) وفي نسخة العبودية: «طرقها» .

فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ؛ فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر .. إلى أن يقول ـ رحمه الله تعالى :

وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فإنها تنفي عن القلب ألوهية ما سوى الحق ، وتثبت في قلبه ألوهية الحق ، فيكون نافيًا إلهية كل شيء من المخلوقات ، مثبتًا لإلهية ربِّ العالمين ربِّ الأرض والسموات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله ، وعلى مفارقة ما سواه ؛ فيكون مُفرِّقًا في علمه وقصده ، في شهادته وإرادته ، في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق ، بحيث يكون عالمًا بالله تعالى ، ذاكرًا له عارفًا به ، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه وانفراده عنهم ، وتوحده دونهم ، ويكون محبًّا لله ، معظمًا له ، عابدًا له ، راجيًا له ، خائفًا منه ، مواليًا فيه معاديًا فيه ، مستعينًا به ، متوكلاً عليه ، ممتنعًا عن عبادة غيره ، والتوكل عليه والاستعانة به ، والخوف منه والرجاء له ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والطاعة لأمره ، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى .

وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته ، وهو أنه ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه ، ومدبره ؛ فحينئذٍ يكون موحدًا لله » .

ثم يُجمل هذا كلَّه في موضعٍ آخر من نفس الرسالة القيمة الطيبة ؛ فيقول (١) :

---

(١) كما في «مجموع الفتاوى» له (١٠/ ٢٣٤) ، و«الاقتضاء» (٤٥١) .

« وجماع الدين أصلان :

ألا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ؛ لا نعبده بالبدع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

وذلك تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمدًا رسول الله .

ففي الأولى : ألا نعبد إلا إياه .

وفي الثانية : أن محمدًا هو رسوله المبلغ عنه ؛ فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره».

ثم يقول : « وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحدٍ دينًا إلا إيَّاه ، وهو حقيقةُ العبادة لرب العالمين » . اهـ.

ومن خلال هذا العرض السريع يتضح لنا أن توحيد الربوبية وحْدَه لا يكفي لتحقيق التوحيد الذي ينجي صاحبه في الدنيا والآخرة ؛ فإن المشركين كانوا يقرون بذلك ؛ بل وكانوا يخلصون لله الدعاء في وقت الشدة ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥] .

فإذا عرفت ذلك ؛ فاعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنه لابد مع ذلك ـ أي مع

الإقرار بتوحيد الربوبية ـ من توحيد الألوهية ، وهو صرف العبادة بصورها الظاهرة والباطنة وبركنيها العظيمين من كمال الذل وكمال الحب لله ـ جلَّ وعلا ـ وحده ؛ سواء كانت هذه العبادة قلبية مناطها القلب ، أو عبادة قولية تتعلق باللسان ، أو عبادة عملية تتعلق بالجوارح ، أو عبادة مالية تتعلق بالأموال .

وبالجملة : فتوحيد الألوهية هو تحقيق معنى « لا إله إلا الله » وما قُيِّدت به من شروطٍ ثقالٍ ؛ من العلم واليقين والقبول والانقياد والصدق والإخلاص والمحبة . وهذا ما سنوضحهُ بالتفصيل بمشيئة الله تعالى ؛ فهو صُلْبُ موضوعنا وأساسُ بحثنا ، والله المستعان .

ثالثًا : توحيد الأسماء والصفات :

« وهو إفرادُ الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته ، بحيث يؤمن العبد بما أثبت الله لنفسه في كتابه ، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات ، على الوجه الذي أراد الله ورسوله ﷺ ، وعلى الوجه اللائق به ، من غير إثباتِ مثيلٍ له ؛ لأن إثبات المثيل لله تعالى شرك به » (١) .

وتوحيد الأسماء والصفات بابٌ عظيمٌ من أبواب التوحيد ، وهو من أشرف العلوم على الإطلاق . ولِمَ لا ؟! وهو عِلمٌ ، يتعلق بذات الله ـ جلَّ وعلا ـ ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلا معرفةً تُدْحِضُ الشرك والتعطيل ، والتشبيه والتمثيل ، والبدع والتأويل .

(١) «المجموع الثمين» : (ص١٦) .

وسبحان الله العظيم الجليل !

كم زلَّت في هذا المقام أقدام !

وكم ضلَّت في هذا الباب أفهام !

وكم كفرت في هذا العلم أقلام !

فنسأل الله الكريم أن يرزقنا وإياكم الفهم والاستسلام .

ولستُ هنا بصدد الحديث عن هذا القسم العظيم بلغةِ البسطِ والإسهاب ؛ فلهذا موضعهُ من كتب العقيدة لعلمائنا الكرام ، ولكني سأحاول أن أضع بين يديك ـ أيها الأخُ الحبيب ـ بعض القواعد الواضحات لفهم هذا المبحث الهام من الأسماء والصفات .

القاعدة الأولى :

اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن أسماء الله الحسنى هي التي أثبتها الله تعالى لنفسه ، وأثبتها له عبده ورسوله محمد ﷺ وآمن بها جميع المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء:١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه:٨] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ

هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

[الحشر:٢٢-٢٤]

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ»(١).

القاعدة الثانية:

أن أسماء الله تعالى ليست مُنحصرةً في التسعة والتسعين اسمًا المذكورة في حديث أبي هريرة السابق؛ بل هناك من الأسماء ما لا يعلمها ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل؛ فلا يعلمها إلا الله تعالى، والدليل على ذلك: حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال:

«مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي،

---

(١) أخرجه البخاريُّ: كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة (٦٤١٠)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها(٢٦٧٧).

وَنُورَ صَدْرِي ، وَجِلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ الله هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا » .

قَالَ : فَقِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ : « بَلَى ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا» [(١)] .

والشاهد من هذا الحديث المبارك : « أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ » أما عن تعيين الأسماء الحسنى ؛ فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» [(٢)] من مجموع ابن قاسم : « تعيينها ليس من كلام النبيِّ ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه» .

وقال [(٣)] : « إن التسعة والتسعين اسمًا لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبيِّ ﷺ ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي [(٤)] ، الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة ، وحفاظ أهل الحديث يقولون :

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٤٠) (٢٩٣١٨) ، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٦٩) (١٠٣٥٢) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٩٠) وقال : « صحيح على شرط مسلم ، إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه ، فإنه مختلف في سماعه عن أبيه » ، وابن حبان في «صحيحه» (٩٧٢) ، وأبو يعلى (٥٢٩٧) ، والبيهقي في «الدعوات» (١٥٥) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩) وقال بعدما أورد له شاهدًا : «وجملة القول أن الحديث صحيح من رواية ابن مسعود وحده ، فكيف إذا انضم إليه حديث أبي موسى – رضي الله عنهما – وقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم » .

(٢) (٦/ ٣٨٢) .

(٣) «مجموع الفتاوى » (٢٢/ ٤٨٢) .

(٤) برقم : (٣٥٠٧) وراجع في ذلك «الضعيفة» (٢٥٦٣) ، و«ضعيف الجامع» (١٩٤٥) .

هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث ثانٍ أضعف من هذا، رواه ابن ماجه [(١)]، وقد روي في عددها غير هذين النوعين من جمع بعض السلف ».

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله [(٢)]:

« والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ».

القاعدة الثالثة :

اعلم أن من أسماء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما لا يطلق عليه إلا مقترنًا بِمُقابِله ؛ فإذا أطلق ـ أي الاسمُ وحده أي بدون مُقَابِله ـ أَوْهَمَ نقصًا ـ أي في حق الله ـ تعالى الله عن ذلك ؛ فمنها : المعطي المانع ، والضارُّ النافع ، والقابض الباسط ، والمعز المذل ، والخافض الرافع ؛ فلا يُطلق على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المانع الضار ، القابض المذل الخافض كُلًّا على انفراد ؛ بل لابُدَّ من ازدواجها بمقابلاتها ؛ إذ لم تُطلق في الوحي إلا كذلك ، ومن ذلك « المنتقم » لم يأت في القرآن إلا مُضافًا إلى « ذو » كقوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:٤] أو مقيدًا بالمجرمين ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة:٢٢] . اهـ [(٣)].

---

(١) برقم: (٣٨٦١) .

(٢) «تفسير ابن كثير » سورة الأعراف(٢/ ٢٥٨) .

(٣) انظر : «معارج القبول» في « أسماء الله الحسنى » (١/ ١١٨) .

القاعدة الرابعة :

وهي : «أن دلالة أسماء الله تعالى حقٌّ على حقيقتها مطابقةً وتضمنًا والتزامًا؛ فدلالة اسمه تعالى « الرحمن » على ذاته ـ عزَّ وجلَّ « مطابقة » وعلى صفة الرحمة «تضمنًا» وعلى الحياة وغيرها ـ أي من سائر صفات الكمال ـ « التزامًا » وهكذا سائرُ أسماء الله تبارك وتعالى »[(١)].

القاعدة الخامسة :

أسماءُ الله تعالى غير مخلوقة ، ولا تُقاس بأسماء الخلق ؛ لأن أسماء الخلق مخلوقة مستعارة ، وليست أسماؤهم نفس صفاتهم ؛ بل مخالفة لصفاتهم ؛ فقد يسمىَّ الرجل منهم حكيمًا وهو جاهل ، وكريمًا وهو لئيم ، وصالحًا وهو طالح ، وعزيزًا وهو حقير ، وسعيدًا وهو شقي ، ومحمودًا وهو مذموم ، وقد يسمَّى حنظلة وليس كذلك ، وقد يسمَّى علقمة وليس كذلك .

ولكن الحقَّ تبارك وتعالى له أسماءُ الجلال وصفاتُ الكمال ، ليس شيءٌ من أسمائه مخالفًا لصفاته ، وليس شيءٌ من صفاته مخالفًا لأسمائه ، ومن ادَّعى أن صفةً من صفات الله مخلوقة أو مستعارة فقد كفر وفجر ؛ لأنك إذا قلت : الله فهو الله ، وإذا قلت : الرحمن فهو الرحمن وهو الله ، وإذا قلت : حكيمٌ عليمٌ حميدٌ مجيدٌ جبارٌ متكبرٌ قاهرٌ قادرٌ فهو كذلك ، وهو الله سواء .

لا يخالف اسمٌ له صفته ، ولا تخالف صفةٌ له اسمًا . لم يزل كذلك ولا يزال ، كان خالقًا قبل المخلوقين ، ورازقًا قبل المرزوقين ، وعالمًا قبل المعلومين ،

---

(١) المصدر السابق (١/ ١١٩) .

وسميعًا قبل أن يسمع أصوات المخلوقين . سبحانه وتعالى جلَّ عن الشبيه والنظير والمثيل ، لا كفؤ له ، ولا نِدَّ له ، ولا ضد له ، ولا مثيل له : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

القاعدة السادسة :

لقد ورد في القرآن الكريم أفعالٌ أطلقها الله تعالى على نفسه على سبيل الجزاءِ العدلِ والمقابلة ، وهي فيما سيقت فيه مَدْحٌ وكمال ، لكن لا يجوز أن يُشتقَّ له تعالى منها أسماء ، ولا تُطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات ؛ كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة:١٤، ١٥] . ونحو ذلك .

فلا يجوز أن يطلق على الله تعالى : مُخادع ، ماكر ، ناس ، مستهزئ ، ونحو ذلك ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولا يُقال : الله يستهزئ ويخادعُ ويمكرُ وينسى على سبيل الإطلاق ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

«إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا ،

ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى ، ومن ظن من الجُهَّال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه تعالى الماكر المخادع المستهزئ الكائد فقد فاه بأمرٍ عظيم تقشعرُّ منه الجلود ، وتكاد الأسماع تصمُّ عند سماعه ، وغَرَّ هذا الجاهل أنه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه هذه الأفعال فاشتق له منها أسماء ، وأسماؤه تعالى كلُّها حسنى ، فأدخلها في الأسماء الحسنى ، وقرنها بالرحيم الودود الحكيم الكريم ، وهذا جهلٌ عظيم ؛ فإن هذه الأفعال ليست ممدوحةً مطلقًا ؛ بل تُمدح في موضع وتذمُّ في موضع ؛ فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقًا» .

ثم يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى : «والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق ؛ فكيف من الخالق سبحانه وتعالى؟» [1] .

القاعدة السابعة :

وهي من القواعد المهمة تلخيصًا لما ذكره الإمام الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالته القيمة «الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً» حيث يقول [2] :

«اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات ، وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع من البدع التي يكرهها السلف .

---

(١) بتصرفٍ يسيرٍ جدًّا من «المعارج» (١/ ١١٨) وما بعدها ، وانظر : «طريق الهجرتين» (٤٨٦) ، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩) ، و«المدارج» (٣/ ٤١٥) .

(٢) (ص: ٢، ٣٧) .

واعلموا أن مبحث آيات الصفات دَلَّ القرآنُ العظيم أنه يتركز على ثلاثة أسس مَنْ جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخلَّ بواحدٍ من تلك الأسس الثلاثة فقد ضَلَّ.

وهذه الأسس الثلاثة هي :

«الأول : تنزيه الله ـ جلَّ وعلا ـ عن أن يُشْبِه شيءٌ من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين، وهذا الأصل يدلُّ عليه قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١].

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤].

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤].

الثاني من هذه الأسس : هو الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ لأنه لا يصفُ الله أعلمُ بالله من الله : ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال الله في حقه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

الثالث من هذه الأسس : قطعُ الطمع عن إدراك كيفية ذات الله عزَّ وجلَّ؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] » ا.هـ ملخصًا.

القاعدة الثامنة :

«أسماء الله تعالى توقيفيةٌ ـ أي : غيْر اجتهادية ـ لا مجال للعقل فيها ، وعلى هذا فيجبُ الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يُزاد فيها ولا ينقص ؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقُّه تعالى من الأسماء ، فوجب الوقوف في ذلك على النصِّ ؛ لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء:٣٦] .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣] .

ولأن تسميته تعالى بما لم يُسمِّ به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى ، فوجب سلوكُ الأدب في ذلك ، والاقتصار على ما جاء به النص » [(١)].

القاعدة التاسعة :

وهي من أهم القواعد على الإطلاق ألا وهي :

وجوبُ الإيمان بجميع آيات الأسماء والصفات وأحاديثها من غير تحريفٍ لألفاظها أو لمعانيها ، وكذا من غير تعطيلٍ أو تكييفٍ أو تمثيلٍ .

(١)« القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى » ، للشيخ محمد بن صالح العثيمين (ص١٨، ١٩) ط مكتبة العلم .

فإذا شرح الله صدرك لهذا الحق فالزمه ؛ فأنت على المعتقد الذي كان عليه سلفُ الأمة الصالح رضوان الله عليهم .

وإليك ـ أخي الحبيب ـ بعض التوضيح لهذه الشروط :

أولاً : الإيمانُ بها من غير تحريفٍ لألفاظها ومعانيها :

وإني لأعجبُ لهؤلاء الذين أرادوا نفي الصفات فراحوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويُحمِّلون اللفظ ما لا يحتمل ؛ ليوافق ما توصل إليه العقلُ القاصر !! كهؤلاء الذين أرادوا نفي صفة الكلام ، فنصبوا لفظَ الجلالةِ في قوله تعالى :﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:١٦٤] ليكون الكلامُ من موسى ـ عليه السلام !!

ولكن لا أدري كيف يصنعون بقوله تعالى :﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣] ؛فهذه آيةٌ لا تقبل التقديم والتأخير والتحريف والتأويل .

ثم يزيدُ جهمُ بنُ صفوان ـ عليه من الله ما يستحقه ـ الطينَ بلة ، ويقول في جُرأة ظاهرة في قوله تعالى:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] .

يقول جهم[1] : «لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف» ، ولأبدلتها استولى ؛ وذلك لنفي صفة الاستواء على الكيفية التي أرادها

(١) أخرجه البخاريُّ ، في «خلق أفعال العباد» (٥٨) ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٩٠) وصحح سنده العلامة الألبانيُّ في «مختصر العلو» (ص٧٥).

ربُّ الأرض والسماء !! هذا هو التحريف اللفظي .

أما التحريف المعنوي : كتأويلهم «نفسه» تعالى في قوله ـ عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[طه:٤١] .

وفي قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[آل عمران:٢٨] وغيرها .

يأوِّلونها «بالغير» ويزعمون أن إضافتها إلى الله كإضافة : بيت الله ، وناقة الله .

وعلى هذا التأويل الفاسد يكون المعنى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي غيره !! ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ يعني لغيري !!

وأوَّلُوا اليد بالنعمة في قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] أي : نعمتاه ؛ فلم يثبتوا لله تعالى إلا نعمتين !!

والله تعالى يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤] .

وهذا دأبهم في جميع نصوص الأسماء والصفات ؛ فنحمد الله أن هدانا للحق ، ونسأله سبحانه أن يتوفَّانَا عليه ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

ثانيًا : نؤمن بها من غير تعطيل :

أي : لا ننفي ولا نعطل ما اقتضته هذه الأسماء الجليلة من صفات الكمال لله ـ جلَّ وعلا ـ كصفة الاستواء والكمال والمجيء والسمع والبصر وغيرها .

ثالثًا : نؤمن بها من غير تكييف :

فلا نقُل: «استوى الله» بكيفية كذا ، أو على هيئة كذا ، أو ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا بكيفية كذا ، أو بصفة كذا ، أو تكلَّم بكيفية كذا - تعالى الله عن ذلك - فهذا من الغلو والافتراء على الله بغير حق ؛ فلا يعلم ذات الله إلا الله ، ولو كان ذلك مطلوبًا من العباد أن يعرفوه لَبَيَّنَهُ الله ورسوله ﷺ ؛ كما قال تعالى :﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥]» وكما في قوله تعالى:﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠].

وإنما نردِّدُ ما قاله الإمامُ مالكٌ في صفة الاستواء : « الاستواء غير مجهول ، والكَيْف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[1] .

رابعًا : نؤمن بها من غير تمثيل :

أي من غير تشبيه لشيءٍ من صفات الله بصفات خلقه ؛ فهو مُنَزَّهٌ في أسماء جلاله وصفات كماله عن مماثلة المخلوقات :﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

ويقول الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى : « لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبر بها نبيُّه ﷺ أمته ، لا يسع أحدًا من خلق الله قامت عليه الحجة ردُّها ؛ لأن القرآن نزل بها ، وصحَّ عن رسول الله القولُ بها فيما روي عن العدول ؛ فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، أما

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤) ، والبيهقيُّ في «الاعتقاد» (١١٩) ، وجود سنده الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٤١٧) .

قبل ثبوت الحجة عليه فمعذورٌ بالجهل ؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ، ولا بالرؤية والفكر ، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها ، فيثبت هذه الصفات وينفي عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه تعالى ؛ فقال سبحانه :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] »(١).

القاعدة العاشرة :

إذا علمتَ ذلك ؛ فاعلم أيضًا أن الإلحاد في هذا الباب العظيم ينقسم إلى ثلاثة أقسام(٢):

الأول : إلحاد المشركين ، وهو ما ذكره ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، قال ابن عباس : «إلحاد الملحدين : أن دعوا اللات في أسمائه» ، وقال مجاهد : «اشتقوا «اللاَّت» من الله ، « والعُزَّى» من العزيز» (٣)، وكذا «ومناة» من المنان ؛ فالمشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه ؛ فسموا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا .

الثاني : إلحاد المشبهة الذين يكيفون صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويشبهونها بصفات خلقهِ ، مضادةً له تعالى ، وردًّا لقوله ـ عزَّ وجلَّ :

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» عن يونس بن عبد الأعلى به ، وإسناده صحيح .

(٢) انظر : «القواعد المثلى» (٢٥) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٠) ، قلت : وأثر ابن عباس ومجاهد عند الطبريِّ في «تفسيره» (١٥٥٠٢، ١٥٥٠٣) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

وردًّا لقوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] .

وهذا الإلحادُ مقابلٌ لإلحادَ المشركين الذين جعلوا الخالق سبحانه وتعالى بمنزلة المخلوق سواء بسواء ، تعالى الله عن ذلك .

الثالث : إلحاد النفاة ، وهم قسمان :

قسمٌ أثبتوا أسماءه تعالى دون ما تضمنته من صفات الكمال ؛ فقالوا : رحمن بلا رحمة ، عليم بلا علم ، حكيم بلا حكمة ..وهكذا .

وقسمٌ آخر لم يكتف بذلك ؛ بل نفى أيضًا الأسماء وما تدلُّ عليه . وكلُّ هذا كفر ؛ نسأل الله العافية وحسن الخاتمة (١) .

القاعدة الأخيرة:

هي كيف نتعبد لله تعالى بهذه الأسماء الجليلة والصفات الكريمة ؟

وكيف نعمل بمقتضاها ونلزم أنفسنا بواجبها ؟ ونقف على ما تضمنته من المعاني الجليلة وما تدلُّ عليه من الحقائق الكبيرة ؟

وهذا هو المراد بلا ريب ؛ فخذ ـ مثلاً ـ اسم « الرزاق » وما يحمله من معانٍ ومقتضيات . فلو اطمأنت القلوب إلى أن الرزق بيد علَّام الغيوب ـ جلَّ وعلا ـ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦] ، وكما قال

---

(١) انظر : «معارج القبول» (١/ ١٢٨) وما بعدها .

سبحانه :﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢، ٢٣].

لو علم المسلمون أنه ـ جلَّ وعلا ـ يرزق الكفار فهل ينسى أن يرزق من وحدُوا العزيز الغفار؟!! فلو أنهم تعبَّدوا لله ـ جَلَّ وعلا ـ بهذا الاسم الجليل ، وحوَّلوا مقتضياته إلى منهج متحركٍ ، وواقعٍ منظور بالأخذ بكلِّ الأسباب للإبداع المادي في الأرض دون كسلٍ أو تواكلٍ مع اليقين المطلق أن رزقهم بيد الرزاق وحْدَه .. لوقفوا على أرضٍ صلبةٍ بأقدامٍ ثابتة ، ومن ثَمَّ لا تزعجهم تهديداتٌ شرقية ، ولا معونةٌ غربية !! .

لأنهم حينئذٍ يكونون على يقينٍ مطلق أنه لا توجد على ظهر الأرض قوةٌ تستطيع أن تحول بينهم وبين رزق الرزاق ذي القوة المتين .

فما ظنُّك لو أنهم حققوا مقتضيات بقية أسماء الجلال وصفات الكمال ؟!

وبعد .. فهذا مبحثنا الأول : « **لا إله إلا الله .. نفي وإثبات** ».



المبحث الثاني

لا إله إلا الله .. ولاء وبراء

المبحث الثاني

لا إله إلا الله .. ولاء وبراء

لقد أسلفنا أن كلمة التوحيد بمعناها ومفهومها الشامل قد غابت عن واقع كثيرٍ من المسلمين ـ إلا من رحم الله ـ ومن بين هذه المعاني والمفاهيم التي غابت وتلاشت مع بُعْد المسلمين عن معاني هذه الكلمة العظيمة: مفهوم الولاء والبراء، مع أنه لا يمكن بحال أن تتحقق كلمة التوحيد إلا بتحقيق الولاء لله ورسوله والمؤمنين، والبراء من الشرك والمشركين «فإنه لا يمكن أن يستقر في قلبٍ واحدٍ الإقرار بالتوحيد؛ وأنه دين الله ثم يعاديه؛ ويعرف أن الشرك هو الكفر، ثم يواليه، ويذبُّ عنه، وعن أهله باللسان والمال والسنان؛ فهذا الفعل من أعظم الذنوب، وأكبر الآثام»(١).

نعم .. لا يصح للمؤمن دين إلا بموالاة أهل التوحيد، ومعاداة أهل الكفر والضلال والبراء منهم .. إنها قضيةٌ خطيرةٌ .. إنها قضيةُ إيمان وكفر؛ كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[المائدة:٥١].

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (ج١ص٩٦).

وحتى تتضح الرؤية ؛ فلا بد من توضيح معنى الولاء والبراء لغةً واصطلاحًا :

أولاً : الولاء لغة :

جاء في «لسان العرب»(١) : «الولاء : النصرة والمحبة ، والولي : الصديق والنصير ، والمولى : الناصر والمحب والتابع .

والوَلاية ـ بالفتح ـ في النسب والنصرة والعتق .

والموالاة ـ بالضم ـ من ولي القوم ؛ قال الشافعيُّ في قوله ﷺ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ »(٢) :

يعني بذلك ولاء الإسلام ؛كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:١١] .

والموالاة ضد المعاداة ، والولي ضد العدو ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٥] ».

---

(١) انظر : «لسان العرب» لابن منظور (٩/ ٤٠٧، ٤٠٨) ، ط الحديث .

(٢) لقد ورد هذا الحديث عن عشرة أنفس من الصحابة بل أكثر ؛ فأخرجه أحمد (٤/ ٢٨١) ، وابن ماجه ، في المقدمة (١١٦) عن البراء ، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٤٧) ، والنسائي في «الكبرى» (٨١٤٥) عن بريدة ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ (٣٧١٣) عن زيد بن أرقم ، ومن وجه آخر عن زيد بن أرقم عند أحمد (٤/ ٣٦٨) ، ووجه ثالث عند أحمد (٥/ ٣٧٠) ، وأخرجه ابن ماجه ، في المقدمة (١٢١) ، عن سعد بن أبي وقاص ، وثم طرق أخرى للحديث ، والحديث صححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٧٥٠) ، و«صحيح الجامع» (٦٥٢٣) .

وتعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي :

وردت عدة تعاريف للولاء بمفهومه الشرعي ، وكلُّها تدورُ حول المحبة والنصرة والمعاونة والتقرب وإظهار الودِّ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله [(١)] : « والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية : المحبة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد ، وقد قيل : إن الوليَّ سمِّي وليًّا من موالاته للطاعات ، أي : متابعته لها ، والأول أصح ، والوليُّ : القريب ، فيقال : هذا يلي هذا ، أي يقرب منه .. فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ، ويبغضه ويسخطه ، ويأمر به وينهى عنه كان المعادي لوليه معاديًا له ، كما قال تعالى :﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة:١] ، فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، فلهذا قال :« مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ » [(٢)] . اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند قوله تعالى:«﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١] : أي : يتناصرون ، ويتعاضدون ، كما جاء في «الصحيح» [(٣)] : « المؤمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ».

---

(١) «الفتاوى» (١١/ ١٦١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره (٤٨١) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥) .

ثانيًا : المعنى اللغوي للبراء :

قال ابن الأعرابي : « بَرِئَ إذا تخلَّص ، و بَرِئَ إذا تَنَزَّهَ وتباعد ، وبَرِئَ إذا أعذر وأنذر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾[التوبة:١] أي إعذارٌ وإنذارٌ ، والبراء والبريء سواء » (١).

وتعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي (٢):

هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار .

وبالجملة : فإن الولاء أصْلُه الحب ، والبراء أصله البغض ، ومفهوم الولاء والبراء يمثلُ صورةً عمليةً من صور التطبيق الواقعي لعقيدة التوحيد .

« ولا يصحُّ للمؤمن دينٌ إلا بموالاة أهل التوحيد ، ومعاداة أهل الضلال وبغضهم والبراءة منهم » (٣).

وكم يعتصر القلب كمدًا وغيظًا على غياب هذا المفهوم الضخم في حياة كثيرٍ من المسلمين في هذا العصر ؛ الذي اختلطت فيه المفاهيم ، وتبدلت المعايير ، وانقلبت الموازين ، وانتكست فيه القلوب ، فصار الولاء والحب لأعداء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ووضع كثير من المسلمين أيديهم بأيدي الكفار ، ومنحوهم غاية المحبة والمودة والمناصرة والموالاة ، ودافعوا عنهم وعن

---

(١) «لسان العرب» (ج١ص٣٣) .

(٢) «الولاء والبراء في الإسلام» : محمد بن سعيد القحطاني (ص٩٠) ، دار طيبة .

(٣) «الدرر السنية» (ج٢ص ٩٥) .

مناهجهم وأفكارهم وقوانينهم، في الوقت الذي خذلوا فيه أهل التوحيد والإيمان، وأخيرًا زاد الطين بلَّة ما يهذي به الجاهلون الساذجون ممن ينتسبون إلى الإسلام من دعوى التوحيد بين الأديان الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » !! مع علمهم أن اليهود قد حرَّفوا التوراة، وأن النصارى قد بدَّلوا الإنجيل !! وإلا فإن الدِّين الذي جاء به جميعُ المرسلين موسى وعيسى ومحمد وجميع إخوانهم من النبيين والمرسلين هو الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، فما بعث الله نوحًا إلا بالإسلام؛ قال تعالى حكاية عن نوح: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢].

وما بعث الله الخليل إبراهيم إلا بالإسلام؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢].

وما بعث الله يعقوب إلا بالإسلام؛ قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

وما بعث الله نبيه يوسف إلا بالإسلام ؛ قال تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[يوسف:١٠١]

وما بعث الله سليمان إلا بالإسلام فهذا هو كتابه لملكة سبأ والتي قرأته على أتباعها في مملكتها ؛ قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[النمل:٢٩-٣١] ، وما دخلت في الإسلام إلا يوم أن شرح الله صدرها للحق قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[النمل:٤٤] .

وما بعث الله نبيه موسى إلا بالإسلام ؛ قال الله حكاية عنه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس:٨٤] .

وما بعث الله نبيه عيسى إلا بالإسلام ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٥٢] .

وما بعث الله لبنة التمام ومسك الختام ﷺ إلا بالإسلام ؛ قال تعالى لنبيه :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، وأنزل عليه سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] فالإسلام دين أهل السماء ودين أهل الأرض ؛ بل هو دين البشرية كلِّها.

فهل من الممكن أن يلتقي الحق بالباطل والكفر مع الإيمان ، والله ـ جلَّ وعلا ـ يقول وهو الحكيم الخبير :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٢٠] .

أتحبُّ أعداءَ الحبيب وتدَّعي حُبًّا له ما ذاك في الإمكان
وكذا تُعادي جاهدًا أحبابه أين المحبةُ يا أخا الشيطان
شرطُ المحبة أن توافقَ من تحب على محبته بلا نقصان
فإن ادَّعيت له محبة مع خلافك ما يحبُّ فأنت ذو بطلان(١)

« إن المسلم الحقيقي هو الذي يتحلَّى بالمفاصلة الكاملة بينه وبين من ينهج غير منهج الإسلام .. إن المفاصلة واجبة بين كلِّ مسلم وبين كلِّ من يرفع راية غير راية الإسلام .. إن المسلم مأمورٌ بألا يخلط بين منهج الله وبين أيِّ منهج آخر وضعيٍّ ، لا في تصوره الاعتقاديِّ ، ولا في نظامه الاجتماعيِّ ، ولا في كل شأن من شؤون حياته ، وإن الفوارق بين الإسلام

(١) «النونية» لابن القيم (ص١٧١) .

والكفر لا يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة أو المصانعة أو المداهنة ، وإن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح أو التقريب بين الأديان أو التعايش السلمي يخطئون في فهمهم للدين الإسلامي ، وفهمهم لمعنى التسامح الذي يقره الإسلام ، وفهمهم للتعايش السلمي الذي يتفق مع منهج القرآن الكريم »(١).

فالمؤمنُ الصادق في عقيدته هو من أخلص عبادته وعبوديته لله وحده ، وتبرأ من الشرك والمشركين وأعداءِ الله في كلِّ مكانٍ وزمانٍ ؛ بل وتقرَّب إلى الله ببغضهم ومَقْتهم من أيِّ جنس كانوا ، وفي أيِّ مكان كانوا ، وبأيِّ لسانٍ نطقوا ، ما داموا مُصرِّين على كفرهم مُعاندين لربهم !!

وجعل ولاءه وحُبَّه لله ورسوله والمؤمنين ، من أيِّ جنس كانوا ، وفي أيِّ مكان كانوا ، وبأيِّ لسان نطقوا ، وتألم لألمهم ، وفرح لفرحهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[الممتحنة:١].

وينبغي أن نعلم أيضًا أن الموالاةَ عند علماء الاصطلاح شيء ، والبرَّ شيء آخر ؛ فلفظُ الموالاة ليس مرادفًا للبرِّ ، لا في مدلول اللغة ولا في مدلول الشرع .

« فدعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة بعض الكفار ، والبرِّ بهم لا

---

(١) «الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية» : محماس بن عبد الله الجلعود (ج١ ص٤٥، ٤٦) .

يعني الموالاة لهم، فبسماحة الإسلام يتعامل المسلم مع الناس جميعًا على أساس العدل والاحترام المتبادل، بدون محبة القلب للكفار، أو مودة ما هم فيه من كفر » (١).

« وقد انقسم الناس في هذا الزمان في تعاملهم مع الكفار إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسمٌ ناصرٌ لدين الله، مجاهد في سبيل الله، موالٍ لأوليائه، معادٍ لأعدائه، وهم القليلون عددًا، الأعظمون أجرًا عند الله.

القسم الثاني: قسمٌ خاذلٌ لأهل الإسلام تارك لمعونتهم معتزل عن الكفار.

القسم الثالث: قسمٌ خارجٌ عن الإسلام بمظاهرة الكفار، ومناصرتهم بالقول والفعل والاعتقاد، ومعاداة أهل الحق ومحاربتهم » (٢).

نعم لو صدقْت اللهَ فيما زعمتَه لعاديتَ من بالله ويْحك يكْفُرُ
وواليتَ أهلَ الحقِّ سرًّا وجهرةً ولما تُهاجيهم وللكفر تنصُرُ
فما كلُّ مَنْ قد قال ما قلت مُسلمٌ ولكن بأشراط هُنالك تُذكَرُ
مباينة الكفار في كلِّ موطن بذا جاءنا النصُّ الصحيحُ المقرر
وتكفيرهم جهرًا وتسفيه رأيهم وتضليلهم فيما أتوه وأظهروا
وتَصْدع بالتوحيد بين ظهورهم وتدعوهموا سرًّا لذاك وتجهرُ

(١) «الموالاة والمعاداة» (ج١ ص٤٢، ٤٣).
(٢) «مجموعة التوحيد» (ص٢٥٦، ٢٥٧).

فهـذا هـو الـدين الحنيفـيُّ والهُـدَى ... وملـة إبراهيم لـو كُنْـتَ تشعرُ [(١)]

فكلُّ أنواع الموافقة للكفـار موجبـة للـردة عـن الإسـلام ، مـا عـدا حالـة واحـدة وهـي الإكـراه ، كـما يقـول الشـيخ محمـد بـن عتيـق : إن موافقـة المشركين تنقسم إلى ثلاث حالات :

الحالـة الأولى : أن يـوافقهم في الظـاهر والبـاطن فينقـاد لهـم بظـاهره ، ويميل إليهم ويوادهم بباطنه ؛ فهذا النوع كفر يخرج من الإسلام .

الحالـة الثانيـة : أن يـوافقهم ويميـل إلـيهم بباطنـه ، مـع مخالفتـه لهـم في الظاهر ؛ فهـذا أيضًـا كفـر ، ولكـن إذا عمـل بالإسـلام ظـاهرًا عُصـم مالُـه ودمُـه وعُومـل بحسـب ظـاهره ، وهـذا هـو المنـافق الـذي يُظهـر الإسـلام ويبطن مودة الكفار ومناصرتهم .

الحالة الثالثة : أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو على وجهين :

١ـ أن يفعل ذلك وهو في سلطانهم ، وتحت ولايتهم ، مع ضربهم له ، وتهديده بالقتل والتعذيب ، مع مباشرة التعذيب فعلاً ؛ فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان كما جرى لعمار ابن ياسر ـ رضي الله عنه [(٢)] ـ حيث أنزل الله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ

---

(١) انظر : «ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان» للشيخ سليمان بن سمحان (ص٧٩) .

(٢) وهذا هو المشهور أن الآية نزلت فيه ، لكن الإسناد لا يصح ؛ فهو مرسل ، والحديث أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة النحل: ١٠٦) ، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩) =

بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾[النحل:١٠٦].

٢- أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمله على ذلك إما طمع في رياسة، أو مال أو مشحة بوطن، أو عيال، أو خوف مما يحدث في المال؛ فإنه في هذه الحال يكون مرتدًّا ولا تنفعه كراهية لهم في الباطن، وهو ممن قال الله فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[النحل:١٠٧].

فأخبر سبحانه وتعالى أنه لم يحملهم على الكفر الجهل بالدين أو بغضه، ولا محبة الباطل وأهله، وإنما هو أن لهم حظًّا من حظوظ الدنيا، فآثروه على الدين المنزل من عند الله. اهـ[1].

ولخطورة الأمر وضخامته؛ فلقد تضافرت الأدلة من القرآن والسنة وفعل الصحابة - رضي الله عنهم - على تحريم موالاة الكفار، ووجوب موالاة المؤمنين، ومن بين هذه الأدلة القرآنية ما يلي:

الدليل الأول:

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

= وإسحاق بن راهويه في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٢٩٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠).

(١) انظر: «مجموعة التوحيد» (ص ٢٩٥، ٢٩٦).

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١]

قال حذيفة ـ رضي الله عنه : « ليتق أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا ، وهو لا يشعر لهذه الآية »[١].

وقال الإمام القرطبيُّ في قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ : «أي من يعاضدهم ويناصرهم على المسلمين ، فحكمه حكمهم في الكفر والجزاء ، وهذا الحُكْم باقٍ إلى يوم القيامة ، وهو قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين »[٢].

وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ـ رحمه الله[٣] : «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال : إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله .

وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًا من دون الله ورسوله والمؤمنين ؛ فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين ، وأن الله ورسوله منه بريئان » .اهـ.

وقال صاحب تفسير المنار ـ رحمه الله تعالى[٤] ـ في قوله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ :

« أي : ومن ينصرهم ، ويستنصر بهم من دون المؤمنين ، وهم قلب

(١) «مجموعة التوحيد» (ص١١٥) ، وانظر تفسير الآية في «الدر المنثور» (٢/ ٥١٦) ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ؛ فقد أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (لسورة المائدة:٥١) .

(٢) «الجامع لأحكام القرآن الكريم» (٦/ ٢١٧) .

(٣) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٩٢١) .

(٤) «تفسير المنار» (٦/ ٤٣٠) ط دار المعرفة .

واحدٌ عليكم؛ فإنه في الحقيقة منهم لا منكم؛ لأنه معهم عليكم، ولا يعقل أن يقع ذلك من مؤمن صادق؛ فهو إما موافقٌ لمن والاهم في عقيدتهم، أو في عداوتهم لمن والاهم عليهم، وعلى كلتا الحالتين يكون حُكمه حكمهم.

ثم قال: وقال ابن جرير: فإن من توَلاهم ونصرهم على المؤمنين؛ فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍ أحدًا إلا وهو به وبدينه، وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى من خالفه، وسخطه، وصار حُكمه حكمه» اهـ.

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

قال السعديُّ في «تفسيره» لهذه الآية: «فإن الإيمان بالله وبالنبي، وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة مَنْ كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء.

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدلَّا على انتفاء المشروط (ولكن كثيرًا منهم فاسقون أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. وَمِنْ

فِسْقِهِمْ ؛ موالاةُ أعداء الله ».

الدليل الثالث :

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال:٧٣] .

« أي : إن لم تجانبوا الكفار ، وتوالوا المؤمنين ، إلا وقعت فتنة في الناس ، وهو التباس الأمر ، واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فسادٌ منتشر عريض طويل » (١) .

فيجبُ أن يتميز المجتمع المسلم تميزًا واضحًا ، لا لبس فيه ولا خفاء عن مجتمع الكافرين في طرائقهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ظاهرًا وباطنًا ، وأن يجعل المجتمع الإسلامي لنفسه كيانًا مستقلًّا وأن يعتز بدينه وعقيدته وإلا وقع الفساد ، وانتشر البلاء .

الدليل الرابع :

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٩] .

يحذر تعالى عباده المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ، ثم أمرهم بطاعته ، وموالاته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ؛ فقال تعالى :

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٣١، ١٣٢) ط أولاد الشيخ .

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران:١٥٠] (١).

قال الطبري ـ رحمه الله :

« يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني : الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد ﷺ من اليهود والنصارى ، فيما يأمرونكم به ، وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم في ذلك ، وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون ، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ يقول : يحملوكم على الردة بعد الإيمان والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الإسلام ، ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ يقول : فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له خاسرين ، يعني : هالكين ، قد خسرتم أنفسكم ، وضللتم عن دينكم ، وذهبت دنياكم وآخرتكم ، ينهى بذلك أهل الإيمان بالله أن يطيعوا أهل الكفر في آرائهم ، وينتصحوهم في أديانهم » .

ومن الصعب جدًّا أن يقدِّم المسلم الرضا والخضوع لأهل الكفر وهو يزعم في الوقت نفسه أنه محافظ على إسلامه وهويته ، وهذا لا شك خيالٌ وضَرْبٌ من الظنون الكاذبة ، والأوهام الكاسدة ، فمن قدَّم الطاعة والقرب من هؤلاء ، فإنه يوشك أن يخسر خسرانًا مبينًا في الدنيا والآخرة .

الدليل الخامس :

قوله تعالى :﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٠٧لسورة آل عمران:١٤٩، ١٥٠) .

قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

فهذه حقيقةٌ لا غموض فيها ولا خفاء أن اليهود والنصارى لن يسالموا أبدًا على مرِّ الدهور والعصور والأزمان، وإن ادعوا السَّلام، فتلك طبيعتهم وسجيتهم لن يتنازلوا عنها مهما قدَّم لهم المسلمون من تنازلات إلا أن يتبعوا باطلهم وضلالهم وانحلالهم.

قال السعديُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في «تفسيره» (١):

« يخبر تعالى رسوله، أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى، إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذي أرسلت به ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وأما ما أنتم عليه، فهو الهوى بدليل قوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

الدليل السادس:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (سورة البقرة: ١٢٠).

ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[البقرة:٢١٧]

« ففي هذه الآية تقريرٌ صادقٌ من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث والعداوة المتأصلة في نفوس أعداء الإسلام لهذا الدين وأهله في كلِّ جيل وفي كلِّ أرض .

إن وجود الإسلام بذاته هو غيظٌ وكمدٌ ورعبٌ لأعداء الله .. ولذا فَهُم لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردُّوهم عن دينهم إن استطاعوا ، ولم يرخص الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في موافقتهم خوفًا على النفس والمال ؛ بل أخبر أن من وافقهم بعد أن قاتلوه ليدفع شرَّهم إنه مرتد ؛ فإن مات على دينه بعد أن قاتله المشركون فإنه من أهل النار الخالدين فيها ؛ فكيف حالُ من وافقهم من غير قتالٍ ألا يكون أولى بعدم العذر ؛ وأولى بحكم الردة والكفر ؟!»[(١)] .

الدليل السابع :

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران:٢٨] .

نهى الله تبارك وتعالى عن اتخاذ الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرون

---

(١) بتصرف من «مجموعة التوحيد» (ص٢٣٤، ٢٣٥) .

إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك ؛ فقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾أي : ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله [(١)].

وقال ابن جرير الطبري في قوله تعالى : ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ : « يعني : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه ؛ بارتداده عن دينه ، ودخوله في الكفر » [(٢)].

وأما قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾« أي : إلا أن يكون المسلم مقهورًا معهم ، لا يقدر على إظهار عداوتهم ؛ لتعذيبهم له ، فيظهر لهم الرضا بلسانه ، وقلبه مطمئن بالإيمان بالله ، ممتلئ بالعداوة والبغضاء لأعداء الله» [(٣)].

الدليل الثامن :

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[التوبة:٢٣] .

أمر تعالى بمباينة الكفار ، وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي : اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله : ﴿ لَّا تَجِدُ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤ لسورة آل عمران:٢٨) .

(٢) انظر : «تفسير الطبري» (ج٣ص١٥٢) .

(٣) انظر : «تفسير القرطبي» (ج٤ ص٥٧) .

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢] (١).

فرابطة الإيمان والعقيدة مقدمةٌ على رابطة الأخوة والنسب ولو كان أقرب قريب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عند الآية السابقة (٢): « أخبر الله تعالى أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله ؛ فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينافي أحد الضدين الآخر ، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده ، وهو موالاة أعداء الله ، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه ، كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب » .

ولقد قال ابن حزم ـ رحمه الله (٣): « صَحَّ أنَّ قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾إنما هو على ظاهره بأنه كافر في جملة الكفار ، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ... » .

وما زالت الأدلة القرآنية كثيرة ـ ولله الحمد والمنة ـ ومن خلال هذه

---

(١)« تفسير ابن كثير» (لسورة التوبة:٢٤) .

(٢)«مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧) .

(٣)«المحلى» (١١/ ١٣٨) .

الأدلة يتضح ويتقرر بها لا يدع مجالًا للشك أنه لا يصح إسلامُ المسلم إلا إذا تولى الله ورسوله والمؤمنين قولًا وعملًا واعتقادًا، وتبرأ من الشرك والمشركين قولًا وعملًا واعتقادًا ما داموا على كفرهم وشركهم، ويظل على هذا المعتقد حتى يلقى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على ذلك.

والأدلةُ النبوية الشريفة في ذلك أيضًا كثيرة، ونختار منها هذه الأحاديث الكريمة:

أولا: روى النسائيُّ وأحمد والبيهقي في «الكبرى» من حديث جَرِير ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُبَايِعُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أُبَايِعَكَ وَاشْتَرِطْ عَلَيَّ فَأَنْتَ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ:

«أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ الله، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُنَاصِحَ الْمُسْلِمِينَ، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ»(١).

الثاني: عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ: سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٥)، والنسائي، كتاب البيعة، باب البيعة على فراق المشرك (٧/ ١٤٨)، وفي «الكبرى» (٧٨٠٠)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٦٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٥٩) (٢٣١٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب لا يقول المملوك ربي وربتي (٤٩٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٦، ٣٧٤)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٦٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٧٣)، والحاكم (٤/ ٣٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٨٨٣)، وصححه على شرط الشيخين العلامة الألباني في «الصحيحة» (٣٧١).

الثالث: ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال:

« الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ »[(١)].

الرابع: عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

« أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ »[(٢)].

الخامس: عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال:

« مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ »[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٣)، والترمذي، كتاب الزهد، باب (٤٥) (٢٣٧٨) وقال: «حسن غريب»، وأحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٣١)، والحاكم (٤/ ١٧١) وحسَّنه لغيره الألباني في «الصحيحة» (٩٢٧).

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٧٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٤٤٣)، وفي «مسنده» (٣٢١)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥٣١ ـ ١٠٥٣٧)، و«الصغير» (١٣٠١)، والحاكم (٢/ ٤٨٠) وحسنه بمجموع طرقه الألباني في «الصحيحة» (٩٩٨، ١٧٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١)، والطبراني في «الكبير» (٧٦١٣، ٧٧٣٧، ٧٧٣٨)، وفي «مسند الشاميين» (١٢٦٠)، و«الأوسط» (٩٠٨٣)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٦١٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٣٦٣)، والبيهقي في «الاعتقاد» (٢٢٧)، وفي «الشعب» (٩٠٢١) من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ وإسناده حسن وله شاهدٌ من حديث معاذ بن أنس؛ أخرجه الترمذيُّ، كتاب صفة القيامة، باب (٦٠) (٢٥٢١) وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠)، والحاكم (٢/ ١٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٤١٢)، وصححه بمجموع الطريقين الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٨٠).

ومن الأدلة العملية الواقعية الفعلية لمفهوم الولاء والبراء ما كان من أصحاب النبيِّ ﷺ ورضي الله عنهم جميعًا بصورةٍ لا مثيل لها في العظمة والجلال ، ولن أستطيع أن أتحدث عن كلِّ هذه الحالات ، فلنقف مع بعضها لنرى كيف طبق هؤلاء الذين رباهم رسول الله ﷺ هذا المبدأ الضخم والمفهوم الكبير الذي غاب عن واقع الأمة في هذه الأيام ، إلا من رحم الله ـ عزَّ وجلَّ .

من تلك الصور الرائعة ؛ ما حصل من المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ وذلك عندما نزل رسولُ الله ﷺ بالحديبية ، أتاه عروة بن مسعود الثقفي ـ رضي الله عنه ـ قبل أن يُسلم ، وكان سيدَ ثقيف ، وكان عروة خِلالَ حديثه مع رسول الله ﷺ يتناولُ لحيةَ رسولِ الله وهو يكلِّمه ، جريًا على عادة العرب في ذلك عند الملاطفة والرغبة في التواصل والتراحم .

وكان المغيرةُ بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن أخي عروة بن مسعود واقفًا على رأس رسول الله ﷺ ، ومعه السيف ، وعليه المغفر ، فكلما مدَّ عروة يدَه إلى لحية رسول الله ﷺ قرع المغيرةُ يَدَ عمِّه بكعب السيف ، وهو يقول : « أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ » فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا : المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ.. ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ،

وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَالله لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَالله إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا... الحديث»[1].

وفي رواية عند أحمد[2] من رواية ابن إسحاق عن الزهري وفيه: أن المغيرة بن شعبة قال لعروة:

«أَمْسِكْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ الله ﷺ قَبْلَ وَالله لاَ تَصِلُ إِلَيْكَ، قَالَ: وَيْحَكَ مَا أَفَظَّكَ وَأَغْلَظَكَ، قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ».

وأخرج البزار في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى عَبْدِ الله بن أُبَيٍّ بن سَلُولٍ وَهُوَ فِي ظِلِّ أَطم[3].

فَقَالَ ابْنُ سَلُولٍ: غَبَّرَ عَلَيْنَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ[4].

فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ الله بن عَبْدِ الله بن أُبَيٍّ بن سَلُولٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ: يَا رَسُولَ الله،

---

(١) أخرجه البخاريُّ في حديث طويل: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) في «المسند» (٤/ ٣٢٣)، وهو في «سيرة ابن إسحاق» كما في «السيرة» لابن هشام (٣/ ٣١٦، ٣١٧)، وانظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١/ ٢٦٥)، وابن إسحاق مدلس ولم يصرح في هذه الرواية بالتحديث، والله أعلم.

(٣) الأطم: البناء المرتفع. انظر: «المعجم الوسيط» (ج١ ص ٢٠).

(٤) أبو كبشة: هو زوج حليمة السعدية مرضعة الرسول، وذلك من باب التنقيص.

وَالَّذِي أَكْرَمَكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَئِنْ شِئْتَ لآتِيَنَّكَ بِرَأْسِهِ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

« لَا ، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ »(١).

ولا ننسى موقف عبد الله ـ رضي الله عنه (٢)ـ من أبيه المنافق يوم أن قال قولته الخطيرة : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[المنافقون:٨] !!

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٢٨) ، والبزار في «مسنده» (الكشف ٢٧٠٨)، وابن وهب في «جامعه» (١١٣) ، والطبرانيُّ في «الأوسط» كما في «المجمع» (١/ ٣٠١) ، وقال الهيثميُّ (٩/ ٥٢٨) : «رواه البزار ورجاله ثقات» ، وحسنه الشيخ الأرناؤوط .

(٢) أخرجه الطبراني في «معجمه» كما في «المجمع» (٩/ ٥٢٧) ، والبزار في «مسنده» (البحر الزخار ٢٢٤٢) بسندٍ ليِّن من حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ وضعفه الهيثمي ، وله شاهدٌ معضل ، أخرجه الحميديُّ في «مسنده» (١٢٤٠) من طريق سفيان عن أبي هارون المدني قال : فذكره ، وأبو هارون ثقة من السادسة ، وأخرجه ابن إسحاق ، كما «السيرة» لابن هشام (٤/ ٢٥٥) ، والطبريُّ في «تفسيره» (٣٤٠٣٣، ٣٤٠٣٤) من حديث عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله فقال : فذكره ، وعاصم ثقة من الرابعة ، وأخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ٣٧٣) من حديث الليث بن سعد عن عمر مولى عفرة وغيره فذكره ، وأخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٣٤٠٢٦) ، وعبد الرزاق في «المصنف» (٦٦٢٧) من حديث عكرمة مرسلاً وبرقم (٣٤٠٣٢) عن ابن زيد قال : فذكره . وله شاهدٌ كذلك ، أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٧٩) ، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ٣٦٥) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٧) ، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٧٦٣) من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول قال : قُلْتُ : يا رسول الله ، أقتل أبي ؟ قال : «لا تقتل أباك» قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٥٢٧) : «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد الله بن عبد الله بن أبيّ» .

ولا ينبغي أن ننسى موقف سعد بن أبي وقاص من أمه [١]، وموقف مصعب بن عمير من أخيه [٢]، وموقف أبي عبيدة بن الجراح من أبيه [٣]، وَمَنْ طَالَع سيرة هؤلاء الرجال الذين رباهم النبيُّ ﷺ؛ لوقف مذهولًا مبهوتًا أمام هذه النماذج التي سيظلُّ التاريخ يروي سيرهم بإجلال وإعظام؛ فاستحقُّوا من الله العزة والنصرة والقيادة والسيادة والريادة.

ويوم أن ضاع هذا المفهوم الضخم وهذه القاعدة الكبيرة ـ قاعدة الولاء والبراء ـ ضعف المسلمون، وضعفت هويتهم، واهتزت كرامتهم، وتنددت مكانتهم!

وكم يعتصر القلب كمدًا وحزنًا على غياب هذا المفهوم الكبير في واقع المسلمين وارتباطهم وتعلقهم بحبالٍ هي أوهى من بيوت العنكبوت.

« ولقد جربت البشريةُ في الماضي المعهود والحاضر المشهود روابط عديدة من قومية ووطنية ومنظمات حزبية كافرة، وقد باءت كلُّها بالفشل الذريع؛ فهي لم تستطع أن تجمع المتفرقين، أو توحد المختلفين، أو تنصر المهزومين، ولم تنصف المظلومين من الظالمين » [٤].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ (١٧٤٨).

(٢) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ١٩٦)، والزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٤٠٨)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٣٠٧).

(٣) «السير» للذهبي (ترجمة أبي عبيدة بن الجراح) (٢/ ٢٥٦ط مكتبة الصفا).

(٤) «الموالاة والمعاداة» (ج١ ص٢٤٧).

إن مفتاح القلوب للمحبة والنصرة والرحمة يكمن في الانتماء لهذا الدين وفهمه فهمًا سليمًا صحيحًا ، وتطبيق مفهوم الولاء والبراء تطبيقًا عمليًّا في حياة الأمة ؛ لتتحقق المفاصلة التي لابد منها لتبقى للأمة المسلمة هويتُها ومكانتُها وشخصيتُها .

وإني أُقِرُّ أن معالجة هذا المفهوم الضخم في حياة الأمة من خلال هذه الصفحات أمرٌ قاصر ، ومحاولة جريئة ، ويجبر هذا النقص أني متضرع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ييسر لنا لِنفْرَدهُ في بحثٍ مستقلٍّ بإذن الله تعالى ؛ لأنه ضخم بضخامة عقيدة التوحيد ؛ بل هو أصل من أصول الإسلام التي ينبغي أن تفهم خاصة مع هذا الواقع المر الأليم للمسلمين في هذه الأيام وفي كل مكان ؛ فما من بقعة من بقاع الأرض إلا وفيها صوت من أصوات المسلمين المعذبين والمقهورين تحت وطأة الكفار أو من يوالونهم! وما أحداث البوسنة منا ببعيد !! ولا يغيب عن أحدٍ واقعُ المسلمين الأليم في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان والسودان وغيرها !!.

ففي كل أُفقٍ على الإسلام دائرة ينهدُّ من هَوْلها رضوى وثهلان
ذبحٌ وصلبٌ وتقتيل بأخوتنا كما أعدَّت لتشفي الحقدَ نيران
يستصرخون ذوي الإيمان عاطفة فلم يُغِثْهم بِيَوْمِ الروْع أعوان
فاليوم لا شاعر يبكي ولا صحف تحكي ولا مرسلات عند شان
هل هذه غيرةٌ أم هذه ضَعةٌ للكفر ذِكْرٌ وللإسلام نسيان[1]

---

(١) «أغاني الكفاح» ، بقلم شعراء الدعوة الإسلامية (ص ٦٥) .

استثناءات لا تنقض أصل البراء

وأودُّ أن أختم الحديث في هذه العجالة عن الولاء والبراء ببعض الاستثناءات التي لا تنقض أصل البراء حتى لا يقع أحبابنا في أيِّ تعاملٍ خاطئ مع النصوص التي ذكرناها آنفًا :

أولاً : اللين عند عرض الدعوة[1] :

لا تعني البراءة من الكافرين حجب دعوة الإسلام عنهم وتركهم لما هم فيه من ضلال .

بل يُحتِّم الإسلام على أهله دعوة الناس إلى الخير ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، والحرص على هدايتهم ، والرغبة الأكيدة في تحولهم إلى الإسلام .

ولما كان هذا لا يأتي إلا بالدخول إلى النفوس من مداخلها واستجلاب رضاها وراحتها ؛ فإن الإسلام جعل سبيل الدعوة مع الكفار وغيرهم هو الحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ؛ كما قال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ

---

(١) مستفاد من دراسة في الولاء والبراء ، للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، طبعة دار العلم ـ بنها ، (ص ١٣٣ ـ ١٤٣).

بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥] .

وذلك ؛ لأن النفوس الشاردة ، والقلوب القاسية لا تعودُ إلى الإسلام ، ولا تلين إلا بالملاينة والملاطفة وإظهار العطف والشفقة والحرص .

ولذلك ؛ قال الله تعالى لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون :

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤] .

وهكذا صنع موسى مع فرعون وجادله بالحسنى ؛ ثم وكَّل أمره لله بعد أن أعلن فرعون عداوته له .

وهكذا أيضًا فعل رسول الله ﷺ مع المشركين والكافرين والمعاندين ممن عرض عليهم دعوته ؛ سواء كانوا من العرب المشركين أو اليهود أو النصارى ؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦] .

وقوله تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾

[النحل:١٢٥]

وقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾

[المزمل:١٠]

وهذه الآيات التي تدعو إلى الحكمة واللين والصفح الجميل لا تناقض الآيات التي تدعو إلى الشدة والغلظة ؛ لأنها إنما تكون في القتال للمشركين والمنافقين .

كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التحريم:٩] .

وقوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة:١٢٣] .

وبهذا يظهر لنا جليًا التفريق بين مقام القتال ومقام الدعوة .

فمقامُ الدعوة هو اللين ، والملاطفة ، وتخير الألفاظ وإحسان القول ؛ رغبةً في استمالة القلوب إلى الإسلام ، ومقامُ القتال هو الشدة والغلظة .

ولابد من الفهم الدقيق والوعي العميق لهذا الأمر ؛ حتى لا نقع في أيِّ تعاملٍ خاطئ مع النصوص بوضعها في غير موضعها أو بالاستشهاد بها في غير محلها .

ثانيًا : حِلُّ الزواج بالكتابية وأكل ذبيحة الكتابي :

لا شك أن الكتابيَّ يهوديًا كان أو نصرانيًا ممن حكم الله عليهم بالكفر والخلود في النار إذا سمع بالإسلام ولم يدخل فيه ؛ كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣] .

وهذا نصٌّ صريحٌ واضحٌ في كفرهم لمقالتهم الشنيعة في الله ، ولا شكَّ أيضًا أنهم لا يخرجون من مُسمَّى أهل الكتاب بهذه المقالة ؛ فقد ناداهم الله مرارًا بهذا الاسم مع وجود معتقدهم هذا فيهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [النساء: ١٧١].

فقد ناداهم الله بمسمَّى أهل الكتاب مع مقالتهم هذه ، وبالرغم من ذلك ، فقد أباح الله للمسلم أن يأكل مما ذبحه الكتابي وأن يتزوج المرأة الكتابية ، وهذا مجمعٌ عليه بين المسلمين ، ويشهد لهذا قولُه تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

[المائدة: ٥]

وبهذا تعلم أن الأكل من طعام اليهود والنصارى لا يعارض البراءة

منهم ، وإن كان هذا الطعامُ هديةً ؛ فقد أكل رسولُ الله ﷺ من الشاة التي أهدتها له المرأة اليهودية [(١)]!

وكذلك الزواج من نسائهم . ولا شكَّ أن المودة التي قد تكون في قَلْب الزوج لزوجته هي من المودة الفطرية المستثناة من النهي عن المودة للكفار المنصوص عليها في مثل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:١١] .

ثالثا : الإحسانُ إليهم والبِرُّ بهم :

وهذا أيضًا لا ينقض أَصْلَ البراءة من الكفار والمشركين ، والأَصْلُ في هذا قولُه تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨] .

ويدخل في البرِّ بهم عيادة مرضاهم ، وقبول هداياهم ، والإهداء إليهم ، والدعاء لهم بالهداية .

فلقد دعا الرسولُ ﷺ لطوائفَ كثيرة من الكفار والمشركين ليهديهم الله ؛ كما جاء في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ قال : « اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيرَةَ » [(٢)].

---

(١) كما عند البخاريِّ ، كتاب الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب السم (٢١٩٠) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي ــ رضي الله عنه (٢٤٩١).

وذلك عندما طلب أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ من الرسول ﷺ أن يدعو الله لأمه الكافرة كي تسلم .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قدم الطُّفيلُ بن عمرو الدوسي على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن دوسًا قد كفرت وأبت ، فادع الله عليها ؛ فقيل : هَلَكَتْ دَوْسٌ ؛ فقال ﷺ :

« **اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ** »(1).

ودعا النبي ﷺ لثقيف بعدما جاء الصحابة فقالوا : يا رسول الله ! أحرقتنا نبالُ ثقيف ؛ فادع الله عليهم ؛ فقال : « **اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا** »(2).

أما عن قبول هداياهم بنية تأنيسهم وتأليفهم على الإسلام ؛ فلقد ثبت أن النبيَّ ﷺ قَبِل هدايا المشركين .

ولقد بوَّبَ الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بابًا في «صحيحه» بعنوان :

---

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب المغازي ، باب قصة دوس والطفيل بن عمرو الدوسي (٤٣٩٢)، وفي الجهاد والسير ، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم(٢٩٣٧) ، وفي الدعوات ، باب الدعاء للمشركين (٦٣٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل غفار (٢٥٢٤) .

(2) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣) ، والترمذيُّ ، كتاب المناقب ، باب مناقب في ثقيف وبني حنيفة (٣٩٤٢) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤١٣) و(٧/ ٤١١) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد» (١٥١٥) ، والدقاق في «معجمه» (٨٦) ، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣١٨) وأعلَّه العلامة الألباني في «ضعيف الترمذي» و«دفاع عن الحديث النبوي» (٣٤) و«تخريج فقه السيرة» (٣٩٨) ودفع هذا الإعلال الشيخ الدويش في «تنبيه القارئ» (٢٥١) ولعلَّه الصواب ، وللحديث وجْه آخر ، أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٤٩٩) من حديث غطيف بن أبي سفيان قال : فذكره ، وسنده واهٍ ، والحديث صححه كذلك الشيخ الأرناؤط في «تحقيق المسند».

« باب قَبُول الهدية من المشركين » ثم قال [(١)] :

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال : « هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامَ ـ بِسَارَّة ، فَدَخَلَ قَرْيَةً فيهَا مَلِكٌ أَوْ جَبَّار فَقَالَ : أَعْطُوهَا آجر » وأهديت للنبيِّ ﷺ شاة فيها سُمٌّ .

وقال أبو حُمَيْد : « أهدى مَلِكُ أَيْلَةَ للنبيِّ ﷺ بغلةً بيضاءَ وكَسَاهُ بُردًا ، وكتب إليه ببحرهم » أي: ببلدهم .

ثم روى حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : أهدي للنبيِّ ﷺ جُبةُ سندس ، وكان ينهى عن الحرير ، فعجب الناسُ منها ؛ فقال ﷺ :

« وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ».

أما عن الإهداء لهم ؛ فلقد بوب البخاريُّ في «صحيحه» أيضًا عقب الباب المتقدم بابًا بعنوان «باب الهدية للمشركين » ثم قال : وقول الله تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[الممتحنة:٨].

وروى في هذا الباب حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : رَأَى عُمَرُ حُلَّة على رجلٍ تُبَاعُ ؛ فَقَالَ للنبيِّ ﷺ : ابْتَعْ هَذِهِ الحلَّة تلبَسْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِذَا جَاءَكَ الْوُفُودُ ، فقَالَ ﷺ :

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين رقم (٢٨) (حديث ٢٦١٥، ٢٦١٦ ، ٢٦١٧) ، وهو في «صحيح مسلم» (٢٤٦٩) .

«إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ » فَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْهَا بِحُلَلٍ ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ بِحُلَّةٍ ؛ فَقَالَ عُمَرُ : كَيْفَ أَلْبَسُهَا وَقَدْ قُلْتَ فِيهَا مَا قُلْتَ؟

قَالَ : «إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا ، تَبِيعُهَا أَوْ تَكْسُوهَا» فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ إِلَى أَخٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ [١] .

وروى في الباب حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَتْ : قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ، قُلْتُ : إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ ، أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟

قَالَ: « نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ » [٢] .

وأؤكِّد أن البرَّ والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[المجادلة:٢٢] .

وتعجبني هذه العبارة للحافظ ابن حجر إذ يقول : « والهدية للمشرك إثباتًا ونفيًا ليست على الإطلاق » .

وأما عن عيادة مرضاهم :

فلقد روى البخاريُّ في «الصحيح» من حديث أنس ــ رضي الله عنه ــ

---

(١) انظر : «صحيح البخاري» مع الفتح (٥/ ٢٧٥) ، كتاب الهبة ، باب الهدية للمشركين ، حديث (٢٦١٩) .

(٢) نفس المصدر السابق .

قال: كان غلامٌ يهوديٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ؛ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ»[1].

قال ابن بطال: «إنما تُشرع عيادته إذا رجا أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا»[2].

ويعلِّق الحافظ ابن حجر في الفتح على هذا بقوله: «والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى»[3].

وفي الجملة: فهذه بعضُ الاستثناءات التي لا تنقضُ أصْلَ البراء من الناحية العملية أردتُ إضافتها هنا حتى لا يقع الإخوة الكرام في أيِّ تعاملٍ خاطئٍ مع النصوص الخاصة أو العامة بوضعها في غير موضعها أو بالاستشهاد بها في غير محلِّها؛ لا سيما وقد سُئلنا كثيرًا عن مثل هذه المسائل العملية.

نسأل الله الفهم والعمل، إنه وليُّ ذلك ومولاه.

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك (٥٦٥٧).
(٢) «الفتح» (١٠/ ١٢٥).
(٣) نفس المصدر السابق.



المبحث الثالث

لا إله إلا الله تحكيم للشريعة

المبحث الثالث

لا إله إلا الله .. تحكيم للشريعة

الإسلام عقيدةٌ تنبثق منها شريعةٌ تنظم شؤون الحياة ؛ فالعقيدةُ هي الأصْلُ الذي ترتكزُ عليه دعائم الشريعة .

ولن يقبل الله من الناس الشريعة إلا إذا صلحت عقيدتهم ، وآمنوا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبوحدانيته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، واستيقنوا بعالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وجنة ونار .

وإذا رسخت العقيدةُ في النفس أمكن بناء المجتمع الذي يلتزم في حياته شرع الله في علاقته بربه ، وعلاقته بالإنسان ، وعلاقته بالكون والحياة ؛ ولهذا كانت العقيدةُ أوَّل ما دعا إليه الرسل ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

فالإسلامُ ليس مجرد عقيدةٍ وجدانيةٍ منعزلةٍ عن الحياة البشرية ، فالعقيدةُ أصْلُ الدين ومنها تنبثق الشريعة التي تنظم شؤون الحياة .. مَثَلُها في شجرة الإسلام الوارفة الظلال ، كالجذع من الأغصان والثمار .. فإذا

صحَّت العقيدة ، ورسخت في القلب اشتدَّ ساقُها وامتدَّت أغصانها ، وأورقت فروعها ، وازدهرت ، وأثمرت ، وآتت أكلها في الحياة الإنسانية بالاستقامة على منهج الله ، والوقوف عند حدوده ، والالتزام بشرائعه ، والسلوك الإسلامي القويم .

وإنما يرسل الله رسُلَه بالعقيدة إلى عباده ليعلنوا توحيدهم لله ـ تعالى ـ وبراءتهم من الشركاء والأنداد ، وليذعنوا لمقتضاها في الامتثال لأمر الله ونهيه ، والانقياد لشرعه عملا وسلوكًا ، ولولا هذا لكانت العقيدة دعوى لا يصدقها الواقع .

بل كانت متناقضة مع السلوك وأنظمة المجتمع، وكان ادعاؤها كذبًا وزورًا. إذ ما حقيقة الإيمان بألوهية الله وحْدَه وبعبودية الإنسان له إذا كان أصحابُ هذا الإيمان أحرارًا بعد ذلك في أن يدينوا في أنظمة الحكم لغير الله ، ولا يخضع سلطانهم لشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ؟!

فما من رسولٍ بُعِثَ بعقيدةٍ مجردةٍ عن الأحكام والتشريعات العملية !! وإنما يبعث بالعقيدة ومعها الشريعة حتى يبعث الله رسولاً بعده .

يقول تعالى في عيسى ـ عليه السلام : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران: ٥٠] .

ويقول عن التوراة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ

قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥].

فالتلازمُ ضروريٌّ بين العقيدة التي تستقرُّ في النفس وآثارها التي لابد أن تظهر في الحياة والسلوك، والقضاء والحكم، والإدارة على مستوى الفرد والجماعة.

فالإسلامُ أحكامٌ اعتقادية تتصلُ بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِهِ وشرِهِ، وأحكامٌ خُلُقيةٌ تتعلق بما يجب أن يتحلى به من الفضائل.

وأحكامٌ عملية فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات. وحياة تعبدية تجعلُ المسلمَ موصولَ القلب بالله يبتغي في شؤونه كلِّها مرضاة ربه.

والحياةُ في ضوء الإسلام: نظامٌ خلقيٌّ يقومُ على إشاعة الفضيلة، واستئصال الرذيلة.

ونظامٌ سياسيٌّ أساسُه إقامة العدل بين الناس.

ونظامٌ اجتماعيٌّ نواته الأسرة الصالحة، وعماده التكافلُ بين أبناء المجتمع.

ونظامٌ اقتصاديٌّ لُحمَتُهُ العمل والإنتاج وفق المنهج الإسلامي، ومنهجٌ متكاملٌ للنشاط البشري كلِّه.

ومن ثَمَّ فعقيدةُ التوحيد تقتضي وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية

الغراء والعمل بأحكام الشريعة من مقتضيات التوحيد [١].

وبالرغم من هذا كلِّه فقد وقع المنكرُ البشع الذي لم يكن يخطر البتة لأحدٍ على بال ... وذلك بتنحية شريعة الله ـ جلَّ وعلا ـ وأدهى من ذلك وأمرُّ أن رُميت الشريعةُ بالعجز والضعف والقصور والجمود، وأنها لم تَعُدْ قَادرةً على مواكبةِ ومسايرةِ رُوح العصرِ وما فيه من تقدمٍ وتطورٍ مطرد !!!

وبالفعل لم يقتصر الأمرُ على حدِّ القول فقط؛ بل تعداه إلى إقصاء الشريعة وإبعادها عن كثير من مناحي الحياة ـ وحَلَّ محلَّها القانون الوضعيُّ الفرنسيُّ والأمريكيُّ والإنجليزيُّ والاشتراكيُّ ووو ... إلخ هذه القوانين الجائرة !!

وَمثَلُهم في ذلك كمثل الجُعْل يتأذَّى من رائحة المسك الفوَّاح، ويسعد بل ويحيا برائحة العفن والنتن في المستراح !!!

وهكذا ظنَّ كثير من الأغبياء أن تشريع البشر من ملاحدة وزنادقة وعلمانيين وشيوعيين واشتراكيين ورأسماليين وديمقراطيين وبعثيين ووو ... ممن تتحكم فيهم الأهواء، وتسيطر عليهم الشهوات والشبهات، ظنوا أن تشريع هؤلاء، وأن نظام هؤلاء هو قاربُ النجاة وسط هذه الرياح الهوجاء، والأمواج المتلاطمة، والفتن العاتية، والظلمات الحالكة التي يترنَّح فيها كثيرٌ من الناس كترنُّح مَنْ يتخبطه الشيطانُ من المسِّ. وخابوا جميعًا وخسروا !!

---

(١) استفدت هذه المقدمة من كتاب «وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية» للشيخ الفاضل مناع خليل القطان مدير إدارة الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود «سابقًا»، طباعة إدارة الثقافة والنشر بالجامعة.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥] .

ومن أحسن من الله حكمًا ؟

ومن أحسن من الله تشريعًا ؟!

من الذي يدَّعى أنه أعلم بالخلق من خالقهم ومدبر شؤونهم ؟! ومن ذا الذي يزعم أنه أعرف وأعلم بأحوال الناس وما يحتاجونه في كلِّ زمانٍ ومكان من خالق الناس ؟!! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] ، ألا يعلم الله أن أحوالاً ستتغير ، وأمورًا ستتبدل ، وأشياء مستجدة سوف تحدث ؟! من الذي يستطيع أن يدَّعي أن الله لا يعلم تغير الأحوال ؟!

قال الشيخ محمد بن إبراهيم في رسالته «تحكيم القوانين» [1]: « قال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] ، أي : ومن أعدل من الله في حكمه ، لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن ، وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ؛ فإنه تعالى هو العالم بكلِّ شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء».اهـ .
ثم بين الشيخ محمد بن إبراهيم أنواع كفر الاعتقاد ؛ فقال :

أحدها : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله ..
الثاني : أن لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقًّا ، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسنُ من حكمه وأتمُّ وأشملُ ؛ لما

---

(١) (ص١٢).

يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع ، إما مطلقًا أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال ، وهذا أيضًا لا ريب أنه كفر ؛ لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان ، وصرْفُ حُثَالة الأفكار ، على حكم الحكيم الحميد .

وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان ، وتطور الأحوال ، وتجدد الحوادث ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، نصًّا أو ظاهرًا أو استنباطًا أو غير ذلك ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله .

وليس معنى ما ذكره العلماء من تغيُّرِ الفتوى بتغير الأحوال ما ظنه من قلَّ نصيبهم أو عدم من معرفة مدارك الأحكام وعِلَلها ، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب ما يلائم إرادتهم الشهوانية البهيمية ، وأغراضهم الدنيوية ، وتصوراتهم الخاطئة الوبية ، ولهذا تجدهم يحامون عليها ، ويجعلون النصوص تابعة لها منقادة إليها ، مهما أمكنهم فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه ، وحينئذٍ معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان مراد العلماء منه : « ما كان مُسْتَصْحَبُهُ فيه الأصول الشرعية ، والعلل المرعية ، والمصالح التي جِنسُها مراد الله تعالى ورسوله ﷺ » . ومن المعلوم أن أرباب القوانين الوضعية عن ذلك بمعزل ، وأنهم لا يقولون إلا على ما يلائم مراداتهم كائنة ما كانت ، والواقع أصدق شاهد .

يا لها من فتنة خطيرة ... يا لها من انتكاسة مفجعة .. إن الأمر جدٌّ

خطير ... وما سقطت الأمةُ المسلمةُ من القمة السامقة الشامخة إلى الحضيض من الخزي والذُّلِّ والهوان والعار إلا يوم أن تخلَّت عن كتاب ربها وعن سنة نبيها ، وراحت تلهثُ وراء الشرق الملحد تارة ، والغرب الكافرِ تارة أخرى ، وبين يديها المنهلُ العذْبُ ، والنبعُ الصافي ، والحبل المتين ، والنور المبين ، ومصدر العز والشرف والسيادة والقيادة !!

ووالله لن تعود للأمة هويتها وكرامتها وقيادتها وسيادتها إلا إذا عادت ، وانقادت واستسلمت لله خالقها وبارئها بكلِّيتها ، وفي جميع شؤون حياتها .

كما أمر الله تعالى بذلك ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى : « يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله ﷺ : أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

قال العوفيُّ عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ومجاهدٍ ، وطاووس ، والضحاك ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي وابن زيد في قوله : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ : يعني الإسلام . وقال الضحَّاكُ ـ عن ابن عباس ـ وأبو العالية والربيع بن أنس : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ : يعني الطاعة ... »(١) .

ثم قال : « أمروا كلُّهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٥) ، طبعة دار المعرفة .

الإسلام وهي كثيرة جدًّا ما استطاعوا منها » .

وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى : « لما بين الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى مؤمنٍ وكافرٍ ومنافق ؛ فقال : كونوا على ملة واحدةٍ ، واجتمعوا على الإسلام ، واثبتوا عليه ؛ فالسِّلْم هنا بمعنى الإسلام ؛ قاله مجاهد ، ورواه أبو مالك عن ابن عباس ». ثم قال :

« ورجَّح الطبريُّ حمل اللفظة على معنى الإسلام »[1].

ويوضِّحُ لنا السعديُّ المعنى بوضوح ؛ فيقول[2]:

« هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا في «السلم كافة» أي : في جميع شرائع الدين ، ولا يتركوا منها شيئًا ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله ، وإن خالفه تركه ، بل الواجب أن يكون الهوى تبعًا للدين ، وأن يفعل كلَّ ما يقدم عليه من أفعال الخير ، وما يعجز عنه يلتزمه وينويه ، فيدركه بنيته» . فالواجب أن يلتزم الأمر الربانيَّ والنبويَّ بلا تردد ، فهذه هي العبادةُ الحقةُ لله تعالى .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم مبينًا أن تحكيم شرع الله وحده هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فيقول[3]: «وتحكيم الشرع وحده دون كلِّ ما سواه شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه ، إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله هو المعبود وحده لا شريك له ، وأن يكون رسول

(١) «الجامع لأحكام القرآن الكريم» (٣/ ٢٢، ٢٣) ، و«تفسير الطبري» (٢/ ١١١٩) ط دار السلام .

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة البقرة:٢٠٨) .

(٣) «فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ» (١٢/ ٢٥٦) .

الله ﷺ هو المتَّبع المُحكَّم ما جاء به فقط ، ولا جردت سيوف الجهاد إلا من أجل ذلك ، والقيام به فعلاً وتركًا وتحكيمًا عند النزاع »اهـ .

ويقول العلامة الشنقيطيُّ في «أضواء البيان» (١):

« اعلم أن الله ـ جلَّ وعلا ـ بين في آياتٍ كثيرة صفات من يستحق أن يكون الحكم له ، فعلى كلِّ عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة التي سنوضحها الآن إن شاء الله ، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية ، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع ، سبحان الله وتعالى عن ذلك ؛ فإن كانت تنطبق عليهم ـ ولن تكون ـ فليتبع تشريعهم!!

وإن ظهر يقينًا أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك ، فليقف بهم عند حدهم ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية ، سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته أو حكمه أو ملكه .

فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠] ، ثم قال مبينًا صفات من له الحكم : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى:١٠ـ١٢] .

---

(١) «أضواء البيان» (تفسير سورة الشورى:١٠) .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور ، ويتوكل عليه ، وأنه فاطر السموات والأرض ، أي : خالقهما ومخترعهما على غير مثال سابق ، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجًا؟!! فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم ، ولا تقبلوا تشريعًا من كافر خسيس حقير جاهل ... ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٢٦]؛ فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السماوات والأرض ؟ وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات ، وبصره بكل المبصرات ؟ وأنه ليس لأحد دونه من ولي ؟ سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا ، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨] .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد وأن كل شيء هالك إلا وجهه ؟ وأن الخلائق يرجعون إليه تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أخس خلقه بصفاته .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام:٥٧] ؛ فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق ، وأنه خير الفاصلين ؟

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾[يونس:٥٩].

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي ينزل الرزق للخلائق ، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا بإذنه ؟ لأن من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له التصرف فيه بالتحليل والتحريم ؟ سبحانه ـ جلَّ وعلا ـ أن يكون له شريك في التحليل والتحريم » ا.هـ.

إنها قضية من أخطر قضايا العقيدة .. إما إسلام أو جاهلية !

يقول تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٥٠] .

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية :

« ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كلِّ خيرٍ ، الناهي عن كلِّ شرٍّ وعَدْلٍ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستندٍ من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخذوة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجموعٍ من أحكامٍ قد اقتبسها عن شرائع شتَّى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ؛ فصارت في

بنيه شرعًا متبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافرٌ يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ؛ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير ». اهـ (١).

إنها قضيةٌ من أخطر قضايا العقيدة .. إما كفر أو إيمان !!

يقول تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]

يقول العلامة القرآنيُّ الشنقيطيُّ ـ رحمه الله ـ في «أضواء البيان» : « الظاهر المتبادر من سياق الآيات أن آية : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ نازلة في المسلمين ؛ لأنه تعالى قال قبلها مخاطبًا مسلمي هذه الأمة : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ، فالخطاب للمسلمين كما هو ظاهر متبادر من سياق الآية ، وعليه فالكفر إما كفر دون كفر ، وإما أن يكون فعل ذلك مستحلاً له ، أو قاصدًا به جحد أحكام الله وردها مع العلم بها ، أما من حكم بغير حكم الله، وهو عالم أنه مرتكب ذنبًا فاعل قبيحًا ، وإنما حمله على ذلك الهوى ؛ فهو من سائر عصاة المسلمين ، وسياق القرآن ظاهر أيضًا في أن آية ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ في اليهود ... وأيضًا في أن آية : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ في النصارى .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (ج٢ ص٦٣) .

واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق كلُّ واحدٍ منها ربما أطلق في الشرع مرادًا به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملة تارة أخرى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ معارضة للرسل وإبطالاً لأحكام الله؛ فظلمه وفسقه وكفره كلُّها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكم بما أنزل الله معتقدًا أنه مرتكب حرامًا فاعل قبيحًا؛ فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وقد عرفت أن الأُولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكلِّ هو ما رأيت، والعلم عند الله تعالى». اهـ [(١)].

وقال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية [(٢)]:

«وفصْلُ الخطاب: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا له، وهو يعلم أن الله أنزله، كما فعلت اليهود فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلاً إلى الهوى من غير جحود؛ فهو ظالم وفاسق، وقد رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال [(٣)]: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرَّ به ولم يحكم به؛ فهو فاسق ظالم». اهـ.

وروى الطبريُّ في «تفسيره»، والحاكم في «مستدركه» والمروزيُّ في

---

(١) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (ج٢ ص٩٣، ٩٤)، ط. مكتبة ابن تيمية.

(٢) «زاد المسير» (٢/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٣) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (١٢١٠١) من طريق: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله.
قُلْتُ: وعليُّ بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس.
قال الألبانيُّ: «لكنه جيد في الشواهد» («الصحيحة» ٦/ ١/ ١١٤).

«تعظيم قدر الصلاة» وابن عبد البر في «التمهيد»[(١)] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : «من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه ، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة «﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ كفر دون كفر » .

وقال العلامة القرطبيُّ في «الجامع لأحكام القرآن الكريم» : « ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ و﴿ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ نزلت كلُّها في الكفار .

وقيل : فيه إضمار ، أي : ومن يحكم بما أنزل الله ردًّا للقرآن وجحدًا لقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو كافر ؛ قاله ابن عباس ومجاهد ؛ فالآيةُ عامةٌ على هذا .

قال ابن مسعود والحسن : هي عامةٌ في كلِّ من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أي معتقدًا ذلك مُستحلاً له ، فأمَّا من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم ؛ فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له »[(٢)] .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيرها أقوالًا كثيرة ؛ فقال :

---

(١) أخرجه الطبريُّ (١٢٠٩١) ، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٢) ، والمروزيُّ في «تعظيم قدر الصلاة» (٥٦٦) ، وابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٢٣٧) .
قال الحاكم : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، وقال الذهبيُّ : «صحيح» .

(٢) انظر : «الجامع لأحكام القرآن الكريم» (٥/ ١٩٠) ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

« قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، وزاد الحسن البصري، وهي علينا واجبة.

وقال السديُّ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزل فتركه عمدًا، أو جارٍ وهو يعلم فهو من الكافرين.

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ قال: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به فهو ظالم فاسق».

وقال عبد الرزاق أيضًا [١]: أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم ﴾ الآية، فقال: هي به كفر.

قال ابن طاووس: وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال الثوريُّ عن ابن جريج عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير » [٢].

وقال الإمام البغويُّ في تفسيرها:

« قال ابن عباس وطاووس: ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كافر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، قال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال عكرمة: معناه:

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٩١) ط مكتبة الرشد، ومن طريقه الطبريُّ في «تفسيره» (١٢٠٥٥).
(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير (٢/ ٥٨)، طبعة دار الجيل، بيروت.

ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق»[١].

وذكر الإمام الشوكانيُّ في تفسيرها أقوالًا مماثلة لما ذكرناه آنفًا فقال:

«وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ الآية. يقول: «من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق»[٢].

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ الآية. قال: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، وإنه ليس كفرًا ينقل من الملة، بل دون كفره»[٣]، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح فيها قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق ... »[٤].

وقد جمع الإمام السيوطي هذه الأقوال أيضًا في «الدر المنثور»[٥].

ولذا يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى:

« والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم؛ فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله

---

(١) انظر: «معالم التنزيل في التفسير والتأويل» (٢/ ٢٦٠) وما بعدها، طبعة دار الفكر.

(٢، ٣) تقدم.

(٤) انظر: «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» للشوكاني (٢/ ٤٥)، طبعة عالم الكتب.

(٥) انظر: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، للسيوطي (٣/ ٨٧)، طبعة دار الفكر.

في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانًا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطئ له حكم المخطئين »(١).

ثم يفصِّلُ الإمامُ ابن القيم هذه المسألة الخطيرة تفصيلًا بديعًا قَلَّ أن تجد له نظيرًا في مواضع أخرى، فيقول:

« فالإيمان العمليُّ يضاده الكفر العمليُّ، والإيمان الاعتقاديُّ يضاده الكفر الاعتقاديُّ، وقد أعلن النبيُّ ﷺ بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »(٢).

ففرَّق بين قتاله وسبابه، وجعل أحدهما فسوقًا لا يكفر به، والآخر كفرًا، ومعلومٌ أنه إنما أراد الكفر العمليَّ لا الاعتقاديَّ، وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية كما لا يخرج الزاني والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان.

وهذا التفصيلُ هو قَوْلُ الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله، وبالإسلام والكفر ولوازمهما؛ فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم؛ فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم؛ فانقسموا فريقين: فريقًا أخرجوا من الملة بالكبائر، وقَضَوا على أصحابها بالخلود في النار، وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان(٣)، فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا، وهدى الله أهل السنة

---

(١) «مدارج السالكين» (ج١/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (٦٤).

(٣) يقصد ابن القيم: الخوارج والمرجئة.

للطريقة المُثْلى والقولِ الوسط الذي هو في المذاهب ؛ كالإسلام في الملل ؛ فها هنا كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق ، وشرك دون شرك ، وفسوق دون فسوق ، وظلم دون ظلم ؛ قال سفيان بن عيينة : عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ : « ليس هو بالكفر الذي يذهبون إليه » وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ؟ قال : «هو بهم كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ».

وقال في روايةٍ أخرى عنه : «كفر لا ينقل عن الملة» . وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، وهذا الذي قاله عطاء بيِّنٌ في القرآن لمن فهمه ؛ فإن الله سبحانه سمَّى الحاكم بغير ما أنزله كافرًا ، وسمى جَاحِد ما أنزله على رسوله كافرًا ، وليس الكافران على حدٍّ سواء .

وسمى الكافر ظالـمًا ؛ كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤] .

وسمَّى متعدي حدوده في النكاح والطلاق والرجعة ، والخلع ظالـمًا ؛ فقال : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١] .

وقال نبيه يونس ـ عليه السلام : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] .

وقال صفيه آدم ـ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف:٢٣].

وقال كليمُه موسى ـ عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص:١٦].

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

ويسمَّى الكافر فاسقًا؛ كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [البقرة:٩٩].

وهذا كثير في القرآن.

ويسمَّى المؤمن فاسقًا؛ كما في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦].

نزلت في الحكم بن أبي العاص، وليس الفاسق هنا كالفاسق هناك.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[النور:٤].

وقال عن إبليس: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف:٥٠] .

وقال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة:١٩٧]

وليس الفسوق كالفسوق .

والكفر كفران ، والظلم ظلمان ، والفسق فسقان ، وكذا الجهل جهلان : جَهْلٌ كفر ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

وجَهْلٌ غير كفر ؛ كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] .

وكذلك الشركُ شركان : شركٌ ينقل عن الملة ، وهو الشرك الأكبر، وشركٌ لا ينقل عن الملة ، وهو الشرك الأصغر ، وهو شركُ العمل ؛ كالرياء .

قال تعالى في الشرك الأكبر :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة:٧٢]

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] .

وقال تعالى في شرك الرياء: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

ومن هذا الشرك الأصغر؛ قوله ـ عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»(١).

ومعلومٌ أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار.

ومن هذا قوله ﷺ: «اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»(٢).

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها.

وكذا النفاق نفاقان: نفاقُ اعتقاد، ونفاقُ عمل؛ فنفاق الاعتقاد هو: الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار، ونفاق العمل؛ كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤، ٥٨، ١٢٥)، والطيالسي في «مسنده» (١٨٩٦)، وأبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١)، والترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥) وقال: «هذا حديث حسن»، وصححه شيخنا الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١)، و«الصحيحة» (٢٠٤٢) و«صحيح الجامع» حديث رقم (٦٢٠٤)، طبعة المكتب الإسلامي.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩) من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ وله شواهد حسنه بها شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٩).

وفي «الصحيح» أيضًا :

« أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» (١) .

فهذا نفاقُ عمل ، قد يجتمع مع أَصْل الإيمان .. ثم يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

« وههنا أَصْلٌ آخر : وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان ، وهذا من أعظم أصول أهل السنة ، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع ؛ كالخوارج والمعتزلة والقدرية » ثم قال :

« وهاهنا أَصْلٌ آخر : وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمَّى مؤمنًا وإن كان ما قام به إيمانًا ، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمَّى كافرًا وإن كان ما قام به كفرًا ، كما أنه لا يلزم من قيام جزءٍ من أجزاء العلم به أن يسمَّى عالمًا ، ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمَّى فقيهًا ولا طبيبًا ، ولا يمنع من ذلك أن تسمَّى شعبة الإيمان إيمانًا ، وشعبة النفاق نفاقًا ، وشعبة الكفر كفرًا . وقد يطلق عليه الفعل ؛ كقوله :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب علامات المنافق (٣٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (٥٨).

« فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ »[(١)] و « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ »[(٢)] و« مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ »[(٣)].

فمن صدر منه خلة من خلال الكفر ؛ فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق ، وكذا يقال لمن ارتكب محرمًا : إنه فعل فسوقًا ، وأنه فاسق بذلك المحرم ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه» . اهـ[(٤)].

وبعد هذه النقول الكثيرة الصحيحة عن السلف نقرر هذه المسائل الهامة التالية :

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦، ٣٥٥) ، والترمذيُّ ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢١) ، وقال : « هذا حديث حسنٌ صحيح» ، والنسائيُّ ، كتاب الصلاة ، باب الحكم في تارك الصلاة (١/ ٢٣١) ، وفي «الكبرى» (٣٢٩) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب من جاء فيمن ترك الصلاة (١٠٧٩) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٦٧) ، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٥٤) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٨) ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد لا تعرف له علة بوجه من الوجوه ..» ووافقه الذهبي ، وعبد الله ابن أحمد في «السنة» (٧٦٩) وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٤٣) ، و«صحيح الترغيب» (٥٦٤) .

(٢) تقدم قريبًا .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩) ، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (١/ ٤٢٣) ، وأبو داود ، كتاب الكهانة والتطير ، باب ما جاء في الكاهن (٣٩٠٤) ، وابن ماجه ، كتاب الطهارة وسننها ، باب النهي عن إتيان الحائض (٦٣٩) ، والنسائي في «الكبرى» (٩٠١٦) من حديث أبي هريرة مرفوعاً .
وله شاهدٌ عن ابن مسعود ؛ أخرجه الطيالسي في «مسنده» (٣٨٢) ، والشاشي في «مسنده» (٨٢٥) ، والبزار في «مسنده» (البحر الزخار ١٦٥٥) من حديث ابن مسعود مرفوعاً ، وللحديث شواهد أخرى ؛ وقد صححه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة » (٣٣٨٧) ، و«الإرواء» (٢٠٠٦) ، و«صحيح الجامع» (٥٩٤٢) .

(٤) انظر : هذا البحث القيم مفصلاً في كتاب الصلاة ، للإمام ابن القيم ـ رحمه الله : (ص٢٥ ـ ٣١) الطبعة الثانية ، المكتبة السلفية بمصر .

المسألة الأولى :

أن هذه القضية الخطيرة الكبيرة وأن هذا المعترك الصعب قد زلَّ فيه فريقان على طرفي نقيض ، وهما :

الفريق الأول : الخوارج ومن تابعهم ؛حيث بالغوا وأفرطوا في التكفير ، وغلوا فيه غلوًّا شديدًا ؛ فلم يكفروا الحكَّام فقط من منطلق فهمهم لقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ بل كفروا المسلمين ومَنْ إسلامُهم ثابتٌ بإجماعِ المسلمين لمشايعتهم لهؤلاء الحكام، وتتمثل عندهم هذه المشايعة في عدم الإنكار « الظاهر » باليد واللسان .

وهذا غير صحيح ؛ فإن عدم الإنكار الظاهر باليد واللسان لا يعني مطلقًا مشايعة الذين يبدلون شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ؛ لأنه لا يستطيع كلُّ أحدٍ أن ينكر في الظاهر؛ بل لقد أوجب النبيُّ ﷺ إنكار المنكر بحسب القدرة ؛ كما في حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه :

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا ؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؛ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؛ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » (١).

بل لقد سمَّى رسولُ الله ﷺ إنكار القلب الذي يقتضي عدم الرضا والمتابعة على الكفر والمعصية سماه جهادًا ؛ كما في حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه :

« مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩) .

يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ »[1].

ويوضِّحُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ هذه القضية في شرحه لآية التوبة، وحديث عدي بن حاتم[2]؛ فيقول: « وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحلَّ الله، اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسول، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم؛ فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله كان مشركًا مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ؛ فهؤلاء لهم حُكْم أمثالهم من أهل الذنوب »[3].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٥٠).

(٢) تقدَّم في الحديث عن «الأرباب».

(٣) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٧/ ٧٠).

والخلاصة ـ بعد الإطالة المتعمدة:

أن الفريق الأول قد أفرط في التكفير ؛ فكفر الحاكم والمحكومين جميعًا !!

والفريق الثاني : المناقض لهذا الفريق الأول دفعه إفراط الخوارج ، ومن تابعهم في التكفير إلى ترك تكفير مَنْ كُفْرُهم ثابتٌ بإجماع المسلمين ؛ خوفًا من الوقوع فيما وقع فيه الخوارج وأشياعهم !! وربما احتجوا ببعض الأقوال الصحيحة المنقولة عن سلف الأمة بدون تحقيق المناطات الخاصة والعامة التي لابد منها للربط ربطًا صحيحًا بين دلالات النصوص ، وحركة الواقع !!

ومن ثم نخلُصُ إلى المسألة الثانية من بين المسائل التي أريد توضيحها في هذه القضية الخطيرة ألا وهي :

المسألة الثانية :

وهي أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين : الأصغر والأكبر ، وذلك بحسب حال الحاكم .

فإن اعتقد الحاكم أن الحكم بما أنزل الله ليس واجبًا ، ولا يلزمه أن يحكم به مع علمه وتيقنه أنه حكم الله ؛ فهذا كفر أكبر بلا خلاف .

أما إن اعتقد الحاكم أن الحكم بما أنزل الله تعالى واجبٌ ، وأنه الحق والخير ، ومع ذلك فقد عَدَل عن حكم الله تعالى عصيانًا بهَوىً في نفسه من غير جحود؛ بل وهو يعتقد أنه يرتكب محرمًا قبيحًا ؛ فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة.

وهذا المناط ـ لا غير ـ هو الذي قال فيه أئمة السلف : « كفر دون كفر »

فهذا الحكم لا ينصرف مناطه أبدًا إلى من ردَّ حكم الله أصلًا ، ولم يرضه ابتداء ؛ بل اتهم شرع الله المحْكَم بالنقص أو الجمود ، أو أنه لم يَعُدْ صالحًا لروح العصر !! فهذا لا خلاف في كفره المخرج عن الملة .

ففرْقٌ كبيرٌ بين أن تكون الشريعةُ هي الأَصْل المتحاكم إليه ، وأن تكون الشريعة محكومة بغيرها من القوانين !!!

قال الحافظ ابنُ كثير - رحمه الله تعالى :

« فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء ، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كَفَر ، فكيف بمَنْ تحاكم إلى « الياسق » وقدَّمها عليه ؟! من فعل ذلك ؛ فقد كفر بإجماع المسلمين »[(١)].

والسُّؤالُ : هل تعرفون الياسق أو الياسا؟!!

والجوابُ من الحافظ ابن كثير نفسه :

قال - رحمه الله :

« الياسق أو الياسا هو : عبارة عن كتابٍ مجموعٍ من أحكامٍ قد اقتبسها واضعها « جنكيز خان » من شرائع شتى ؛ من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ؛ فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ »[(٢)].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ١١٩) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٧) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى :

«ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ؛ فمن استحلَّ أن يحكم بين الناس بما يراه عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر ؛ فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل .

وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم ؛ بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله ؛ كسواليف البادية، وكأوامر المطاعين فيهم ، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر ؛ فإن كثيرًا من الناس أسلموا ، ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية لهم التي يأمر بها المطاعون ؛ فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك؛ بل استحلُّوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله ؛ فهم كفار وإلا كانوا جُهَّالًا » (١).

ومعنى كلام شيخ الإسلام :

أن من المسلمين من يلتزم بغير الشريعة في الظاهر ، ويتحاكم إلى العادات الجارية ، ولكنهم لا يفعلون ذلك من منطلق رفض الشريعة وردها ، بل قد يحصل منهم ذلك عن جَهْلٍ أو شُبْهَةٍ أو تأويل ، ومن ثَمَّ ؛ فلا ينبغي أن يكفر هؤلاء بمجرد فعلهم الظاهر ـ وإن كان فعلهم كفرًا ـ حتى يعرفوا ويفهموا أن فعلهم ينافي حقيقة التزامهم بشريعة الله تعالى ؛ فمن أصرَّ منهم بعد ذلك على فعله بعد التعريف والبيان وإقامة الحجةِ

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١٣٠) .

وفهم الحجة يكون كافرًا ؛ بل ويسميه شيخُ الإسلام هنا مستحلًّا .

ويقول العلامةُ القرآنيُّ الشنقيطيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ما أورد آياتٍ قرآنيةً كثيرةً :

« وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله ـ جلَّ وعلا ـ على ألسنة رسله ـ صلى الله عليهم وسلم ـ أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم » ثم يذكر الشيخ تنبيهًا مهمًّا ؛ فيقول :

« اعلم أنه يجبُ التفصيلُ بين النظام الوضعيِّ الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض وبين النظلم الذي لا يقتضي ذلك .

وإيضاحُ ذلك أن النظام قسمان : إداريٌّ وشرعيٌّ .

أما الإداريُّ الذي يرادُ به ضبطُ الأمور وإتقانها على وَجْهٍ غير مخالف للشرع ؛ فهذا لا مانع منه ، ولا مخالف فيه من الصحابة ومن بعدهم .

وقد عمل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النبيِّ ﷺ ؛ ككتبه أسماء الجند في ديوانٍ لأجل الضبط ، ومعرفة من غاب ومن حضر .. فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخالف الشرع فلا بأس به ؛ كتنظيم شؤون الموظفين ، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع ؛ فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به ، ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة .

وأما النظامُ الشرعيُّ المخالفُ لتشريع خالق السموات والأرض ؛ فتحكيمه كُفْرٌ بخالق السموات والأرض ؛ كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف ، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث ! وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم وأن الطلاق ظلم للمرأة ونحو ذلك !! فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كُفْرٌ بخالق السموات والأرض ، وتمرُّدٌ على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلَّها ، وهو أعلم بمصالحها ، سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوًّا كبيرًا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾». اهـ (١).

ويقول شيخُنُا الكريم عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى : « وقد أجمع العلماء على أن من زعم أن حكم غير الله أحسنُ من حكم الله أو أن غير هَدْي رسول الله ﷺ أحسن من هدى الرسول ﷺ فهو كافر. كما أجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحدٍ من الناس الخروج على شريعة محمد ﷺ أو تحكيم غيرها ؛ فهو كافر ضال » (٢).

ويقول ـ رحمه الله تعالى (٣):

«... ولا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وآراءهم خير من حكم الله

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٩٢، ٩٣).

(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١/ ٢٧٤).

(٣) رسالة « وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه» لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ص ٣٩ وما بعدها) ط دار المسلم.

ورسوله، أو تماثلها وتشابهها، أو تركها، وأحلَّ محلَّها الأحكام الوضعية، والأنظمة البشرية، وإن كان معتقدًا أن أحكام الله خير وأكمل وأعدل».

ويقول شيخنا الكريم محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى:

« من لم يحكم بما أنزل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه وأنفع للخلق؛ فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير الناس عليه »[(١)].

ومن بديع ما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الديار السعودية سابقًا:

« إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلةَ ما نَزَلَ به الروحُ الأمين، على قَلْبِ محمدٍ ﷺ، ليكون من المنذرين، بلسان عربيٍّ مبين، في الحكم به بين العالمين، والردِّ إليه عند تنازع المتنازعين »[(٢)].

فلا يمكن بحال أن يتصور عاقلٌ فضلًا عن عالم أن مؤمنًا صادقًا يعتقد أن دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يفرض عليه حكمًا ما، ولكنه مع ذلك يغير حكم الله تعالى، ويعرض عنه، ويستبدل به حكمًا آخر بإرادته واختياره، ثم يحكم له بعد ذلك بإسلام أو إيمان !!!

ومع ذلك فلابد أن نعلم أن مناط كفر المحكومين بغير الشريعة أن

---

(١) «المجموع الثمين» (١/ ٣٦).

(٢) رسالة «تحكيم القوانين» (ص:٥) ط دار المسلم.

يقبلوا ذلك ويرضوه ؛ كما تقدم .

المسألة الثالثة :

وهي أنه ينبغي بعد هذا كلِّه ألا نغفل عن مسألة مهمة ؛ ألا وهي : أن الحكم على « معين » بالكفر لابد له من تحقق شروط ، وانتفاء موانع ، ويجب ألا نتعجل وأن نتروى جيدًا ، وأن نكون على علم ثابتٍ بسحْبِ الأدلة الصحيحة على المناطات الخاصة والعامة ؛ حتى لا نستشهد بالأدلة في غير موضعها فنزلَّ في المعصية الجائرة ، ألا وهي : القول على الله بغير علم .

ومن بديع كلام ابن القيم في كتابه المدهش « إعلام الموقعين » يقول : «ولا يتمكَّنُ المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم إلا بنوعين من الفهم :

أحدهما : فَهْمُ الواقعِ ، والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا .

والنوع الثاني : فَهْمُ الواجبِ في الواقع ، وهو فَهْمُ حكم الله الذي حكم به في كتابه ، أو على لسان رسوله في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر »(١).

فالأمر جدٌّ خطير ـ أحبتي في الله ـ فهذه مسألة كبيرة من مسائل الأصول الكبار التي تنازعت فيها الأمة .

وسأنقلُ لكُمْ هنا كلامًا دقيقًا رائعًا لشيخ الإسلام والمسلمين ، القائم

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٧، ٨٨) .

ببيان الحق ونصرة الدين ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ إذ يقول :

« إني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب « معين » [(١)] إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة ، وفاسقًا أخرى ، وعاصيًا أخرى ، وقد غفر لهذه الأمة خطأها ، وذلك يعمُّ الخطأ في المسائل الخبرية القولية ، والمسائل العملية ، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحدٍ لا بكفر ولا بفسق ولا معصية .

وكنتُ أبين أن ما نقل عن السلف والأئمة من « إطلاق » القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حقٌّ ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين ، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار ، وهي مسألة الوعيد ؛ فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة ؛ كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء:١٠] الآية .

وكذلك سائر ما ورد : مَنْ فعل كذا فله كذا ؛ فإن هذه مطلقة عامة ، وهي بمنزلة قول من قال من السلف : من قال كذا : فهو كذا .

ثم الشخص المعين يلتغي فيه حكم الوعيد : بتوبةٍ ، أو حسناتٍ ماحية ، أو مصائبُ مكفرةٍ ، أو شفاعةٍ مقبولة ، والتكفير هو من الوعيد ؛ فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قال الرسول ﷺ ، لكن قد يكون الرجلُ حديثَ عهد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة ، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى

---

(١) أي : أحد من الناس بعينه .

تقوم عليه الحجة ، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص ، أو سمعها ، ولم تثبت عنده ، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها ، وإن كان مخطئًا .

وكنتُ دائمًا ـ وما زال الكلام لشيخ الإسلام ـ أَذْكُر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال : « **إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اطْحَنُونِي ، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي اليم ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ ، فَقَالَ اللهُ له : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ: خَشْيَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ**» [1].

فهذا رجلٌ شك في قدرة الله ، وفي إعادته إذا ذري ؛ بل اعتقد أنه لا يعاد ، وهذا كفر باتفاق المسلمين ، لكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه ؛ فغفر له بذلك .

والمتأولُ من أهل الاجتهاد ، والحريصُ على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من مثل هذا » .ا هـ [2].

فليس كلُّ من تلبَّس بشيءٍ من مظاهر الكفر يكون كافرًا على الإطلاق ؛ بل لابد من التفريق بين الحكم على الفعل بأنه كفر ، وبين الحكم على الفاعل بأنه كافر ! للاختلاف في متعلق كلٍّ من الحكمين .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠٦) ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة مرفوعًا ، وانظر : «صحيح البخاري» (٣٤٧٨، ٣٤٨١) .

(٢) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٣/ ٢٢٩ -٢٣١) بتصرف يسير.

فالحكم على الفعل الظاهر بأنه كفر متعلق ببيان الحكم الشرعيِّ في هذا الفعل .

أما الفاعل ؛ فلابد من النظر إلى قَصْدِه بفعله الذي هو حقيقة النية التي يدور عليها الثواب والعقاب ، والمدح والذم .

ولا يمكن أن يقال هنا بأن مقتضى اشتراط النية في الحكم على المعين بالكفر، تعليق للحكم بالتكفير على أمْرٍ باطنٍ لا يمكن لأحدٍ أن يعلمه أو يطلع عليه من الناس ؛ وذلك لأن الظاهر والباطن متلازمان عند أهل السنة ، لكن مع توفر شروط وانتفاء موانع .

ولهذا ؛ فلابدَّ من شروطٍ تستوفي قَبْل الحكم على المعين بالكفر لا بمجرد الفعل الظاهر .

وتتلَخَّصُ في تحقق أمرين :

الأول : قيام الحجة على هذا المعين ، بحيث لا يكون معذورًا بجهل أو تأويل .

الثاني : ألا يكون مكرهًا ، بحيث يكون معذورًا بالتقية ، وهذا يحتاج إلى مزيد بيان .

فأقولُ : إنه لا يكفر معين إلا إذا بلغته الحجة الرسالية ، وفهمها لإزالة الشبهات التي قد تعرض له ؛ لأن القول بأن قيام الحجة يتحقق ولو لم تفهم ، قول غير صحيح ؛ بل لا تقوم الحجة إلا على من فَهِمَهَا وعرف المرادَ منها ، وأما كونه يهتدي بها أو لا يهتدي بعد فَهْمِهِ للمراد منها ؛ فهذا

حُكْمٌ آخر خارج عن مناط إقامة الحجة .

يقول شيخ الإسلام - ابن تيمية - رحمه الله تعالى :

«إن الكتاب والسنة قد دلَّ على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة؛ فمن لم تبلغه جملة لم يعذب رأسًا ، ومن بلغته جملة دون بعض التفاصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية »(١).

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي - رحمه الله :

« فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركًا أو كافرًا ؛ فإنه يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين له الحجة - التي يكفر تاركها - بيانًا واضحًا جليًّا ما يلتبس على مثله ، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعًا جليًّا قطعيًّا ، يعرفه كلُّ المسلمين من غير نظر ولا تأمل »(٢).

وفي «تفسير القرطبي» عند قوله تعالى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:٢](٣): « فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرًا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع ، كذلك لا يكون الكافر كافرًا من حيث لا يعلم » .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في ردِّه على البكري :

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٩٣) .

(٢) انظر : «محاسن التأويل» للقاسمي (٥/ ١٣٠٧) .

(٣) «تفسير القرطبي» (لسورة الحجرات :٢) (١٦/ ٢٠٣) ، ط دار الكتب العلمية .

« .. إنا بعد معرفة ما جاء به الرسولُ نعلم بالضرورة أنه ﷺ لم يشرع لأمته أن تدعو أحدًا من الأموات ؛ لا الأنبياء، ولا الصالحين ، ولا غيرهم ؛ لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ؛ كما أنه ﷺ لم يشرع لأمته السجود لميت ، ولا لغير ميت ونحو ذلك ؛ بل نعلم أنه ﷺ نهى عن كلِّ هذه الأمور ، وأن ذلك من الشرك الذي حرَّمه الله تعالى ورسوله ؛ لكن لغلبة الجهل ، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثيرٍ من المتأخرين ، لم يمكن تكفيرهم بذلك ، حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه ... »[(١)].

فشيخُ الإسلام يبين هنا أنه لا يلزم تكفير مَنْ تلبَّس بشيء من مظاهر الشرك ، حتى تقام عليه الحجة الرسالية ؛ لإمكان أن يكون جاهلًا لم تبلغه الحجة ، أو متأولًا له شبهة يعذر بها حتى تزال .

ويقول الشيخُ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله : « وأما ما ذكر الأعداءُ عنِّي أني أكفر بالظن والموالاة ، أو أكفر الجاهل الذي لم تَقُمْ عليه الحجة ؛ فهذا بهتانٌ عظيمٌ يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله »[(٢)].

وقال ـ رحمه الله ـ في رسالته للشريف[(٣)] : «وأما الكذب والبهتان ، مثل قولهم أنَّا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار

---

(١) «الرد على البكري» لابن تيمية (ص٣٧٦) .

(٢) «مجموع مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب» ، القسم الخامس ، الرسائل الشخصية (٥٨) .

(٣) «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام » (ص٢٩) للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

دينه ، وأنَّا نكفر من لم يكفر ، ومن لم يقاتل ، ومثل هذا وأضعاف أضعافه ، وكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله ، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبد القادر ، والصنم الذي قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم ، وعدم من ينبههم ؛ فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ، ولم يكفر ويقاتل ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم » .

وقد أكَّد الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ـ رحمه الله ـ هذا الحكم عن شيخه الإمام : محمد بن عبد الوهاب ؛ فيقول :

« وشيخنا ـ رحمه الله ـ أي : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ قد قرَّر هذا وبينه وفاقًا لعلماء الأمة ، واقتداءً بهم ، ولم يكفر إلا بعد قيام الحجة ، وظهور الدليل ، حتى إنه ـ رحمه الله ـ توقَّف في تكفير الجاهل من عُبَّاد القبور إذا لم يتيسر له من ينبهه »[(١)].

وهكذا يتضح لنا أن الاعتبار في بلوغ الحجة هو : عدم إمكان الجهل ، ولا يكون هذا إلا بالعلم بحال المعين على وجه الخصوص ؛ للتأكد هل بلغته الحجة الشرعية الرسالية يقينًا أم لم تبلغه ؟.

وكذا الاعتبار في بلوغ الحجة يكون بإزالة الشبهات الناتجة عن التأويل الخاطئ .

لأنه قد يتأول مَنْ عنده شبهةٌ تلك الحجةَ لتوافق شبهته ، غير قاصد

---

(١) انظر : «مصباح الظلام في الردِّ على من كذب على الشيخ الإمام» (ص٣٢٤،٣٢٥) .

تكذيب الرسول ﷺ ، ولا ردَّ الشريعة ، ولكنه قد يظن أن ذلك هو مفهوم الحجة التي قد بلغته .

ومثل هذا معذور بتأويله ؛ لأنه في حقيقة الأمر مخطئ إذا علمنا يقينًا أنه لا يكذب الحجة أو يستحلُّ مخالفتها ، وهذا هو منهج سلف الأمة .

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله : « إن التكفير له شروط وموانع تنتفي في حق المعين ، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين ، إلا إذا وجدت الشروط ، وانتفت الموانع .

يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلَّم بهذا الكلام بعينه .. ثم يقول : فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ؛ ففيه نظر ، أو يحمل الأمر على التفصيل ؛ فيقال : من كفره بعينه فَلِقِيَامِ الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه ، ومن لم يكفره بعينه فلانتفاء ذلك في حقه ، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم »[١] .

فلابد في إقامة الحجة من إزالة أي شبهة معتبرة ، أمام المعين تمنعه من اعتقاد ما هو مقتضى تلك الحجة ، وإلا كان معذورًا إذا تأولها .

وحادثةُ قدامة بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ وشربه للخمر ، واستحلاله لها متأولًا ، حادثةٌ مشهورةٌ[٢] ، ولما أراد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) «مجموع الفتاوي» (١٢/ ٤٨٧-٤٨٩) .

(٢) رواها عبد الرزاق في «المصنف» (٩/ ٢٤٠، ٢٤٣) ،وابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٥٦٠) ، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٦) ، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٨٤٢، ٨٤٣) ، وأوردها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٢٢٠) .

أن يقيم عليه الحد قال قدامة : «ما كان لكم أن تجلدوني».

فقال عمر : ولم ؟

قال قدامة : قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية [المائدة:٩٣] .

فقال عمر : «أخطأت التأويل ، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله عليك» ثم أمر عمر بجلده .

فهذا صحابيٌّ ـ رضوان الله عليه ـ قد بلغته الحجة في تحريم الخمر ، وهو من العرب الذين يفهمون اللغة ، ولكنه تأول النصَّ لشبهة عرضت له ، وهي أن التحريم عامٌّ خصصته آية المائدة ، فشرب الخمر مستحلًّا لها على فهمه . ولم يكفره عمر ؛ لاستحلاله لشرب الخمر ؛ لأن استحلاله لها لم يكن تكذيبًا للحكم ، أو ردًّا له ، إنما كان من باب التأويل الخاطئ .

يقول ابن تيمية عن استحلال قدامة للخمر : «لما ذكر ذلك لعمر بن الخطاب اتفق هو وعليُّ بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وإن أصروا على استحلالها قتلوا»(١) .

وينبغي أن نعلم أن الإمكان بالإعذار من عدمه لا ينضبط بحدٍّ مانع يستوي فيه جميع المعينين ، وإنما هو أمرٌ نسبيٌّ .

فقد يُعْذَرُ بعضُ الناس بشبهةٍ دون أن يعذر بها غيره ؛ لاختلاف أحوال الناس ، وظهور آثار الرسالة أو خفائها ، أو ما يحيط بالمعين من أحوال

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٠٣) .

خاصة ونحو ذلك ، وكلَّما كان التأول في أمرٍ ظاهرٍ ضاق نطاق الإعذار ، وكلَّما كان في أمرٍ خفيٍّ اتسع نطاق الإعذار .

أما حالة الإكراه ؛ فمعلوم أن الله تعالى لم يعذر أحدًا في الكفر الظاهر إلا إن كان مكرهًا ؛ قال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [النحل:١٠٦، ١٠٧] .

وواضحٌ أنه لابد لدرء وصْفِ الكفر عن المعين الذي تظاهر بما هو كفر من أن يكون مكرهًا ، وإلا لكان كافرًا .

وَيُجملُ الشيخُ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الأحكام إجمالًا دقيقًا ؛ فيقول : « وعلى هذا فيجب قبل الحكم على المسلم بكفر أو فسق أن ينظر في أمرين :

أحدهما : دلالة الكتاب أو السنة على أن هـذا القـول أو الفعـل موجـبٌ للكفر أو الفسق .

الثاني : انطباق هذا الحكم على القائل المعين أو الفاعل المعين ، بحيث تتم شروط التكفير في حقه أو التفسيق ، وتنتفي موانعه .

ومن أهم الشروط : أن يكون عالـمًا بمخالفته التي أوجبت أن يكون

كافرًا أو فاسقًا ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٥] .

ومن الموانع : أن يقع ما يوجبُ الكفر أو الفسق بغير إرادة منه ؛ ولذلك صور:

منها : أن يكره على ذلك ... ومنها : أن يغلق عليه فكره ، فلا يدري ما يقول ، لشدة فرحٍ أو حزنٍ أو خوفٍ ، ونحو ذلك ؛ ثم قال :

قال شيخُ الإسلام : « وأما التكفير ؛ فالصواب أن من اجتهد من أمة محمدٍ ﷺ ، وقصد الحق فأخطأ لم يكفر ؛ بل يغفر له خطؤه ، ومن تبين له ما جاء به الرسول فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين ؛ فهو كافر ، ومن اتبع هواه ، وقصر في طلب الحق ، وتكلّم بلا علم ؛ فهو عاصٍ مذنبٌ ، ثم قد يكون فاسقًا ، وقد يكون له حسنات ترجح على سيئاته » (١) .

وبهذا عُلِم الفرقُ بين القول والقائل ، وبين الفعل والفاعل ؛ فليس كلُّ قول أو فعل يكون فسقًا أو كفرًا يحكم على قائله أو فاعله بذلك .

والناظر في مسالك الناس في هذا الباب يرى العجب العجاب ،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٨٠) .

ويعرف شدة افتقاره إلى اللجوء إلى ربه في سؤال الهداية والثبات على الحق ، والاستعاذة من الضلال والانحراف » .اهـ [١] .

فيجبُ عند الحكم على معين من التأني ، وعدم العجلة ، وألا نقول بغير علم ، وبغير عدل ، وأن نتذكر دائمًا قول النبيِّ ﷺ :

« إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا » .

وفي رواية : « إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ » [٢] .

نسأل الله الثبات على الحق ، والعصمة من الزلل ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وبعد .. أيها الأحبة :

فعقيدةُ التوحيد تقتضي وجوب تحكيم الشريعة ، والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية في جميع مناحي الحياة من مقتضيات التوحيد .

والسِّمَةُ الأولى المميزة لطبيعة المجتمع المسلم هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كلِّه .. هذه العبوديةُ التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وتتمثل هذه العبودية في الجانب الاعتقاديِّ ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية ،

---

(١) بتصرف من «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» للشيخ ابن عثيمين (٨٧، ٩٠) ، ط مكتبة السنة.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٦١٠٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم : يا كافر (حديث٦٠) (١١١) واللفظ له .

كما تتمثل في الشرائع سواء.

فليس عبدًا لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥١، ٥٢].

وليس عبدًا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحدٍ غير الله أو معه أو من دونه.

قال الله عز وجل: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وليس عبدًا لله وحده من يتلقى الشرائع من أحدٍ سوى الله عن طريق رسول الله ﷺ، قال سبحانه: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]؛ وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

فواجبٌ على كل مسلم ألا يذعن لهذه القوانين الوضعية التي تخالف وتضاد شريعة ربِّ البرية ـ جلَّ وعلا، ويجب عليه أن ينكرها، ويجاهدها على قدر استطاعته.

وأودُّ أن أبشر من تتقطع قلوبهم كمدًا وغيظًا، وهم لا يملكون من الأمر شيئًا، بأن هناك بارقة أملٍ في هذا الليل الدامس، وفي هذه الظلمات

الحالكة . فها نحن نرى الأمة بفضل الله تعود إلى الله تعالى . وقد بدأت بالفعل تنتقل من أزمة الوعي إلى وعي الأزمة .

وها هي كتائب الصحوة الإسلامية المباركة تتوالى وتنمو ، وها هو الشباب المسلم ، والفتيات المسلمات ، وها هي قلوب عامة المسلمين تنكر وترفض كُل عمل من عمليات الهدم والتخريب والتغريب والتدمير والتحطيم !! في الوقت الذي تنتكس فيه رايات الإباحية والإلحاد وهذا وعد الله ، ووعد الله حقٌّ وصدق ؛ قال تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٨ ، ٩] .

وأنا ألقي بالمسؤولية على كلِّ مسلم ومسلمة ، وأحمِّله الأمانة في أن يتحرك من الآن لدين الله وألا يتكاسل ، وألا يقلِّل من شأن حركته وجهده لدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وألا يظن أن الدين مسؤولية الدعاة والعلماء وحْدَهم ؛ بل أنت جنديٌّ لدين الله ، وأنت أيتها المسلمة ، أمينة على دين الله ـ عزَّ وجلَّ ؛ فهيا قد حان وقت العمل .. هيا نتكاتف جميعًا ونتفق جميعًا ، على تغيير هذا المنكر الضخم بغير منكر ، بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، والكلمة الرقيقة ، والخلق العذب ، والسلوك الحميد ، والعمل المتقن المبدع ؛ فهيَّا تحمَّلوا الأمانة ، وارفعوا الراية ـ راية التوحيد ـ وعلِّموا الناس الإسلام بمعناه كلِّه .. ومقتضاه كلِّه .

ولابد لكُمْ ـ أيها الأطهار الأخيار ـ للقيام بالعمل الجديِّ للإسلام في هذه الظروف الراهنة التي تحياها أمتنا ، من فهم هذه الأمور التي سأذكرها فهمًا جيدًا ؛ حتَّى لا يدَّعي أحدٌ أنه لا يعرف دوره ، ولا يعي مهمته ، ولا يدرك أبعاد الوظيفة التي سيكلف بها !

أولًا : لابد لكُمْ من معرفةٍ دقيقةٍ بحقيقة الإسلام ، وحقيقة الجاهلية ، لتكونوا مسلمين ؛ علمًا وفهمًا وتفكيرًا وسلوكًا كما أنتم مسلمون قلبًا وعاطفة ، ولتكونوا على قَدْرٍ كبير من الفهم والكفاءة الإسلامية اللازمة ؛ لتسيير شؤون الحياة في كلِّ مناحيها من منظور الإسلام ، وفهم روح الشريعة وقواعدها ؛ لتحولوا الإسلام إلى واقع حياة ، كما كان حال الرعيل الأول ، ولتثبتوا لأفراخ أعداء الدين ؛ بل وللدنيا كلِّها أن الإسلام دينٌ يضمنُ السعادةَ والتقدم والرقي في كل ناحية من نواحي الحياة ، لكل من أخذ به ، وانقاد له ، وليس هذا ادعاء ؛ بل هو واقع ملموس ، ولن يكون ذلك إلا بالفهم الصحيح ، والعمل الجاد ، وإعداد الكوادر المسلمة المتخصصة في كلِّ مجال من مجالات الحياة .

ثانيًا : عليكم أن تهتموا بنشر الدعوة والتعريف بالإسلام تعريفًا شاملًا بين صفوف العوام ، حتى تبددوا ظلام جهلهم ، وتجعلوهم على بينة من أمر دينهم ، وحتى يتبين لهم الخبيث من الطيب ، ولن يكون ذلك أبدًا إلا بسلوككم أنتم يا من تحملون الدين .

آن لنا أن نفسر للناس بسلوكنا وأخلاقنا وفهمنا وأعمالنا ؛ فإن الرجل

الذي يدعو ويقول ، ولكنه لا يفعل ، يضرُّ بدعوته أكبر ضرر ، وهذا التناقض بين القول والعمل يزرع بذور النفاق في القلوب ، ويزيل ثقة الناس بنا ؛ فالأمر يحتاج إلى إخلاص النية وصدق العمل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[الصف:٢، ٣] .

ثالثًا : لا تحاولوا ــ أحبتي ــ أبدًا أن تصلوا إلى الإسلامِ غايةً وأنتم منحرفون عنه وسيلة!! فالإسلام لا يقوم على أسس غير سليمة ، أو على دعائم ضعيفة ، وقواعد متزلزلة ؛ بل يجب عليكم أن تكونوا على علم دقيق ، وفهم عميق ، وصبر جميل ؛ لأن الأهداف التي نريد تحقيقها إنما هي أهداف ضخمة كبيرة، إننا نريد تصحيح العقيدة والعبادة ، وتحكيم الشريعة .

وبالجملة : إننا نهدف إلى إعادة الناس إلى الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ، لا الإسلام الذي يعرفونه هم !! .

ولا تخطوا خطوة للإسلام إلا بحساب دقيق ، وحكمة بالغة ، وتبصُّر شديد ، وفهم عميق لمنهج السلف ؛ لتكون خطوتنا ابتداء موافقة لهذا المنهج الراشد ، ثم لا تخطوا خطوة جديدة إلا بعد أن تراجعوا نتائج خطوتكم السابقة ، وتدرسوا ثمارها ، وما لها وما عليها ؟

وما أوجه القصور والضعف فيها ؟ وما هي العقبات والعوائق التي واجهتها ؟ وكيف يمكن التغلُّب على هذه العقبات في ضوء الالتزام

بمنهج السلف رضوان الله عليهم ؟ وهذا كلُّه - أحبتي - من أَجْل ألا نكرِّر الخطوة التي قطعناها مرة أخرى من غير فائدة .. أو نكرر الخطأ تارة أخرى ، وهذا من وجهة نظري من أخطر التحديات التي تواجه الحركة الإسلامية المعاصرة ؛ حيث إنها لم تستفد بَعْدُ الاستفادة الكاملة من أخطاء بعض فصائلها هنا وهناك ، وهذا يحتاج بلا شك إلى النظرة الشاملة لا الضيقة !

رابعًا : وأعتقد أن هذا البند من بنود هذا المنهج العملي - المتعمد ذكره في مبحث الحاكمية - من أهم البنود ألا وهو :

البعد عن استخدام السلاح والعنف لتغيير الأوضاع ؛ لأن هذا الطريق أيضًا نوع من الاستعجال الذي لا يأتي بالثمرة المرجوة ، ولا يجدي بشيء ، وهذا ملاحظ جدًّا لكل شباب الصحوة - أسأل الله أن يحفظهم - وهذه المحاولة الهدف منها الوصول إلى الغاية بأقصر طريق ، ولكن هذا غير صحيح ؛ بل إن عاقبة هذا الأمر وضرره أكبر بكثير من كلِّ صورة أخرى ، وأتمنى أن لو استفدنا من التجارب التي تمر بالأمة .

نعم أيها الأحباب ... نحن نريد انقلابًا شاملًا ، ولكن ليس انقلابًا دمويًّا ثوريًّا !! ولكنه انقلاب للقلوب .. انقلاب للعقول ، وردها كلية إلى الإسلام ... إنه الانقلاب الصحيح الذي حدث في الماضي والذي سيحصل في المستقبل بمشيئة الله تعالى ، ولن يكون ذلك الانقلاب إلا بعملٍ علنيٍّ واضحٍ وضوح الشمس في وضح النهار دون خوف أو اختفاء .

نعم .. انشروا دعوتكم علنًا ، وادعوا الناس إلى الإسلام جهرًا ،

وحولوا القلوب واقلبوها من الجاهلية إلى الإسلام، وذلك بسلاح من الخلق العذب، والشمائل الكريمة، والصفات الطيبة، والسلوك الصادق، والحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، وبعد كلِّ ذلك لا تتعجلوا النتائج والمصائر، فمن تعجل شيئًا قبل أوانه عُوقب بحرمانه، والله - جلَّ وعلا - لا يعجل بعجلة أحد، وليس أحدٌ أَغْيَرَ على دينه وأوليائه من الله - جلَّ وعلا - فلنبذر بذرًا صحيحًا موافقًا للكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ولنترك النتائج إلى الله - جلَّ وعلا- الذي يملك الأمر كُلَّهُ !!

لا تتعجلوا هداية الناس .. ولا تتعجلوا هلاك الله للمكذبين وتقولوا: يا رب، دعَوْنا الناس كثيرًا فلم يَسْتَجِبْ إلا القليل .. ولا تقولوا: يا رب، لقد صبرنا كثيرًا فلم لا تأخذ الظالمين ؟! هذا ليس من شأننا أبدًا .. إنما هو لله - جلَّ وعلا - وينبغي تأدبًا مع الله، أن يترك الأمر كلَّه لله يفعل ما يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣].

ولا تقوم الدعوات إلا بمثل هذه القلوب المتجردة التي تتجه إلى الله تعالى، لا تريد دنيا ولا جاهًا، إنما تريد وجهه، وتتمنى رضاه.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف:١٠٨].

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾
[العنكبوت:٦٩]

خامسًا: اعلموا بأن الإسلام جاء ليعلمنا كلَّ شيء، حتى آداب قضاء

الحاجة ؛ فهل من الممكن أن يغفل عن وضع الأسس السليمة والقواعد القويمة لبناء الدولة ؟!

ومن ثَمَّ يجب على كلِّ أبناء الصحوة بصفة عامة ، وعلى كلِّ فصيل حركيٍّ بصفة خاصة ، ألا يتحرك حركة صغيرة ولا كبيرة إلا من خلال فهم دقيق ، ووعي عميق للضوابط والقواعد الشرعية ؛ فإن الأمر دين . ولا تتعجلوا النتائج ؛ فإن من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه [(١)].

يا جيل صحوتنا أُعيذك أَنْ أرى ... في الصفِّ من بعد الإخاء تمزُّقا
لك في كتاب الله فَجْرٌ صادقٌ ... فاتبع هداه ودعك ممن فرقا
لك في رسولك قدوة فهو الذي ... بالصدق والخُلُق الرفيع تخلَّقا
يا جيل صحوتنا ستبقى شامخًا ... ولسوف تبقى بالتزامك أسمقا

أما وصيةُ الختام ؛ فهي تضرُّعٌ ودعاء :

وأخيرًا : أسأل الله أن يستخدمنا لدينه ، وأن يقرَّ أعيننا بنصرة الإسلام وعزّ المسلمين ، وأن يرزقنا حسن الخاتمة ، والنظر إلى وجهه الكريم ، وأن يرزقنا العلم والفهم والعمل ، وأن ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

---

(١) انظر : «خواطر على طريق الدعوة جراح وأفراح» : محمد حسان ، طبعة دار المسلم (ص: ١٨٤) .









« شروط لا إله إلا الله »

ويشتمل على المباحث التالية :

تمهيد : أصل هذه الشروط .

المبحث الأول : شرط العلم .

المبحث الثاني : شرط اليقين .

المبحث الثالث : شرط القبول .

المبحث الرابع : شرط الانقياد .

المبحث الخامس : شرط الصدق .

المبحث السادس : شرط الإخلاص .

المبحث السابع : شرط المحبة .










تمهيد

أصل هذه الشروط

تمهيد

أصل هذه الشروط

لقد بيَّنا في الفصل السَّابقِ أن كلمة التَّوحيدِ لَيْسَتْ مجرد كلمة تجري في حروفها الألسنة كالسِّهام، في الوقت الذي غفل فيه كثير ممن يردِّدُها عن شروطها الثقال التي قيدت بها، وعن مقتضياتها التي يجب أن تقترن بالنطق بها.

فكلمة التوحيد منهجٌ شاملٌ كاملٌ يظلِّلُ كل نواحي الحياة؛ فمن قالها بلسانه، وصدقها بقلبه، وانقادت بها جوارحه، دخل بمجموع حياته في دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يكن من شأنه بعد ذلك أن ينقاد لحكم الله في ناحية من نواحي حياته، ويتجرد من عبوديته الكاملة الشاملة في نواحي أخرى، فيختار لنفسه من المناهج والأوضاع والنظم والقوانين ما ينظم به حياته !! ليس هذا شأن من قال: « **لا إله إلا الله** » وقد عرف معناها، وفهم مقتضاها.

وقد قيل للحسن ـ رحمه الله:

إن أناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: «من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة» [1].

« وقيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟

---

(١) أخرجه الشجري في «الأمالي» (٦) وعزاه ابن بطال في «شرحه لصحيح البخاريِّ» (١/ ٢٢٠) للطبريِّ.

قال : بلى ، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك »[١].

ومن القواعد المقررة في أصول الفقه[٢] : إن المطلق يحمل على المقيد إن كان الحكم والسبب واحدًا.

فإذا جاءت نصوص مطلقة ، وجاءت نصوص أخرى متحدة معها في الحكم والسبب ، فإنه يحمل النص المطلق على المقيد .

والأحاديث الشريفة التي وردت في فضل التوحيد ، وبينت أن دخول الجنة، وتحريم النار ، مرتبطٌ بكلمة الإخلاص والتوحيد « **لا إله إلا الله** » هذه الأحاديث ، أحاديث مطلقة ، وجاءت أحاديث صحيحة أخرى تقيدها .

وعلى سبيل المثال :

قوله ﷺ : « **مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْـجَنَّـةَ**»[٣].

وقوله ﷺ : « **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله لَا يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْـجَنَّـةَ** »[٤].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ـ معلقًا ـ كتاب الجنائز ، باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله (فتح ٣/ ١٣١)، ووصله في « التاريخ الكبير» (١/ ٩٥) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٦٦) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٩٠) ، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٢٩٧٢)، وحسَّنه ابن حجر ـ رحمه الله.

(٢) انظر :« المستصفى» للغزالي (٢٦٢) ، و«الأحكام» للآمدي (٣/ ٤ وما بعدها) ، و«مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر » للشنقيطي (٤١١) ط دار اليقين .

(٣، ٤) الأحاديث من(١ـ ٦) ستأتي كاملة بتخريجها في الشروط التي قيدت بها كلمة التوحيد .

وقوله ﷺ لأبي هريرة في الحديث الطويل: « فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَـذَا الْـحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْـجَنَّةِ »(١).

وقوله ﷺ: « مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ »(٢).

وقوله ﷺ: « أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ »(٣).

وقوله ﷺ: « فَإِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله عَزَّ وَجَلَّ »(٤).

وكلُّ هذه الأحاديث تبين الشروط والقيود الثِّقال التي قُيِّدت بها كلمة التوحيد، وأنها ليست مجرد كلمة تلوكها الألسنة !!

وهذه الشروطُ والقيودُ أخذت بالاستقراء والتتبع للأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة.

ولذا؛ فسوف نرى مع كلِّ شرطٍ من هذه الشروط ما يؤيده من كلام الحق تبارك وتعالى، ومن أحاديث النبيِّ ﷺ الصحيحة ما يثبت ذلك، وكلُّها تؤكد حقيقة التوحيد العملي الذي ينبغي أن يكون عليه الناس، وأنه ليس مجرد النطق فقط لكلمة: « لا إله إلا الله »؛ بل لابد لمن قالها أن يكون مخلصًا صادقًا عالمًا بشروطها ومقتضياتها وأوامرها ونواهيها وحدودها،

(١ - ٤) المصدر السابق.

أو بالجملة : عالمًا بحلالها وحرامها ـ أي ما أحلته وما حرمته ـ مستيقنًا بها قلبُه ، مؤمنا بها إيمانًا جازمًا لا يعتريه الشك أبدًا ؛ لأن الإيمان بالله لا يغني فيه إلا علم اليقين ، واليقين هو الإيمان كلُّه ، وأن ينقاد لها انقيادًا تامًّا قابلاً لها في كلِّ شؤون حياته ، في الوقت الذي يكون فيه في غاية الحب لله والرضا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يميل بكلِّيته ـ بقلبه وجوارحه ـ إلى ما يحبه الله ورسوله ، وإن كان ذلك مخالفًا لهواه ، وأن يُعرض بكليته عن كلِّ ما يبغضه الله ورسوله ، وإن مال إليه هواه .

ولقد جمعت هذه الشروط في هذا النظم الطيب :

وَبِشُروط سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ   وَفي نُصُوص الوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ
فَإِنَّه لَمْ يَنْتَفِع قَائِلُها   بِالنُّطْقِ إلاَّ حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا
العِلْمُ واليَقِيْنُ والقَبُولُ   والانقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ والمَحَبَّةُ   والإِخْلاَصُ وَفَّقَكَ الله لِمَا أَحَبَّهُ

وهذه الشُّروط السَّبعة ذكرها الشيخ حافظ بن أحمد حكمي [1] رحمه الله

(١) الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكَمي أحد علماء المملكة العربية السعودية ، وهو علمٌ من أعلام منطقة الجنوب (تهامة) ولد لأربع وعشرين ليلة خلت من شهر رمضان من سنة (١٣٤٢هـ ، ١٩٤٢م) بقرية السلام التابعة لمدينة (المضايا) في الجنوب الشرقي من مدينة جازان ـ ونشأ في بيت صالح ، ثم طلب العلم على يد شيخه الجليل عبد الله القرعاوي ـ رحمه الله ـ نبغ في ذلك حتى عندما بلغ التاسعة عشرة من عمره طلب منه شيخه أن يؤلف كتابًا في التوحيد ، وحدد شيخه أن يكون الكتاب نظمًا ، ليسهل حفظه على الطلاب ، فكتب منظومته القيمة : «سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد » ولاقت استحسان شيخه والعلماء المعاصرين له ، ثم ألف بعد ذلك في مصطلح الحديث والفقه والسيرة والفرائض =

تعالى ـ في كتابه القيم الطيب : « معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد » .

وسوف أتوقَّفُ عند هذه الشروط وقفةً متأنيةً لنوضِّح التوحيد العمليَّ الذي يجبُ أن يتحول إلى واقعٍ في حياة الأمة في وقتٍ أصبح أهْلُ التوحيد فيه غرباء ، وسْطَ جاهلية جهلاء ، جندت كلَّ ما تملك من القدرات والإمكانات المادية والفكرية ، لمحاربة التوحيد وأهله في مخطط خبيثٍ لئيمٍ لتجهيل المسلمين بحقيقة التوحيد ؛ لمحاولة فَصْلِه فصلًا تامًّا عن حياة الناس وواقعهم .



= وغير ذلك ، ثم لقي ربه في ريعان شبابه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره المبارك في عام ١٣٧٧هـ ـ رحمه الله ـ وتقبل منه وجمعنا وإياه مع سيد الدعاة ﷺ. « انظر : معارج القبول» (١/ ٣٣١ـ٣٣٨) ط نزار .



المبحث الأول
شرط العلم

المبحث الأول

شرط العلم

« العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل بذلك ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزخرف:٨٦] . أي : بلا إله إلا الله ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم .

وقال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمرن:١٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣] .

وفي الحديث الصحيح عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّة » (١) . انتهى (٢) .

قُلْتُ : وهذا كَلامٌ مجملٌ يحتاج إلى شيءٍ من التفصيل والإيضاح للعلم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة(٢٦).

(٢) انظر : «معارج القبول» (٢/ ٤١٨) ، طبعة دار ابن القيم .

بصفة عامة ، والعلم بلا إله إلا الله بصفة خاصة .

يقول الإمامُ ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

« العلم هو ما قام عليه الدليل ، والنافع منه : ما جاء به الرسول ﷺ.. وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغيِّ والرشاد ، والهدى والضلال ، به يُعْرفُ الله ويعبد ، ويُذْكر ويوحَّد ، ويُحْمَد ويُمَجَّد ، وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون ، به تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه توصل الأرحام ، وبه تُعْرف مراضي الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمامٌ والعمل مأموم ، وهو قائدٌ والعمل تابع ، وهو الصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والأنيس في الوحشة ، والكاشف عن الشبهة .. مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو

مرتين؛ وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه». انتهى[١].

نعم.. فإن أفضل ما يطلب في هذه الدنيا هو العلم الشرعيُّ.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بطلب الزيادة من العلم؛ فقال جل شأنه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

لأن العلم مقدَّم على القول والعمل.

وقد ترجم الإمام البخاريُّ - رحمه الله تعالى - بابًا في «صحيحه» بعنوان: «العلم قبل القول والعمل» لأنه شرط لصحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للقول والعمل؛ كما قال ابن المنير كما نقله الحافظ في «الفتح»[٢].

وقد شهد الله لأهل العلم بالخشية منه؛ فقال سبحانه:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

واستشهد الله بهم على أعظم وأجلِّ مشهود عليه وهو التوحيد، فقال سبحانه:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

فبدأ بنفسه، ثم ثنَّى بملائكته، ثم ثلَّث بأهل العلم، وهذه هي العدالةُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٠٠ط الحديث).

في أعلى وأشرف درجاتها .

ورفع الله شأنهم ، وأعلى قدرهم ؛ فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] .

وفي «صحيح مسلم» عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ: أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ ؛ فَقَالَ : مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى ، قَالَ : وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ : مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا ، قَالَ : فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى ! قَالَ : إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ .قَالَ عُمَرُ : أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ :

« إِنَّ الله يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ » (١).

وفي الحديث الصحيح عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » (٢).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه(٨١٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٣١٢، ٧٤٦٠)، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة (١٠٣٧)، وفي كتاب الإمارة ، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم (١٠٣٧/ ١٧٠).

كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[(١)] .

والآياتُ والأحاديثُ في فَضْلِ العِلْم أكثر من أن تُحْصى ، وفي هذا كفاية إن شاء الله ؛ فليس المقصودُ هنا الحديث عن العلم وفضله ، ولكنَّ المقصود هنا في هذا الباب هو العلم بلا إله إلا الله ، والمراد منها نفيًا وإثباتًا ، وما تقتضيه من أوامر ونواهٍ وحدود وأحكام .

وهذا ما بينَّاه في الفصل الأول مفصلاً ، ولا بأس أن نجمل هنا أيضًا ؛ فإن التركيز في هذه القضية شيءٌ لابد منه ، لعلَّها تتضح وترسخ في الأذهان والقلوب ؛ فهي قاعدة الدين وأساسه ؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله :

« فإنَّ هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد ، وحَسْم مادة الشرك والغلو ، كُلَّما تنوع بيانها ، ووضحت عباراتها كان ذلك نورًا على نور»[(٢)] .

نعم .. فالأمر جِدٌّ عظيم .. إيمانٌ أو كفر .. صدقٌ أو نفاق .. جنةٌ أو نار ..

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم(٣٦٤١) ، والترمذي ، كتاب العلم ، باب في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) ، وقال : «لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وليس هو عندي بمتصل » ، وابن ماجه في «المقدمة» ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣) ، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٩٦) ، والدارمي (٣٤٢) ، وابن حبان في «صحيحه» (٨٨) ، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٤٧) ، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠) ، و«صحيح الجامع» (٦٢٩٧) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٣) .

﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] .

وكم ضلَّ من الناس بسبب الجهل بمعناها ومقتضاها من ضَلَّ ؛ نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

فلقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيًا وإثباتًا ؛ فنفت الألوهية عن كلِّ ما سوى الله ، وأثبتت الألوهية له وحْدَه لا شريك له .

والألوهيةُ أَصْلُها هو العبادة .

والعبادة : هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة [١].

ولابد لها من ركنين معًا هما : كمال الحب لله مع كمال الذل لله ـ جلَّ وعلا .

وكذا لابد لها من شرطين لكي تقبل هما : الإخلاص والاتباع .

والدين كلُّه هو العبادة بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه .

يقول ابن القيم :

والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثـاني [٢]

ولا شك أن العبادة التي خُلِقْنا لها هي : العبادة الخالصة التي لم يلبسها شركٌ بعبادة شيءٍ سوى الله كائنًا ما كان أو من كان .

(١) «العبودية» لشيخ الإسلام (٣) وهو في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩) .
(٢) «القصيدة النونية» (٢/ ٢٦٣).

قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] .

فقرن الله الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة ؛ فدلَّت الآيةُ على أن اجتناب الشرك شرطٌ في صحة العبادة ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]

والعبادةُ بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل رغبًا ورهبًا ، ومحبة وإجلالاً وخوفًا ، وهذا كلُّه لا يستحقه إلا الله تعالى ؛ فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فقد أشرك ، وإن أقر بتوحيد الربوبية لله ـ عزَّ وجلَّ .

كما حكم الله على المشركين في الوقت الذي كانوا فيه يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر ... إلخ ؛ لأنه لا تصحُّ العبادة إلا بالبراءة من عبادة كلِّ ما يعبد من دون الله ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨] .

ومَنْ قال : لا إله إلا الله ، يجب أنِ يعلم أيضًا أنها نفي للأنداد ، والنِّدُّ هو : الشبيه والمثيل والمناوئ والنظير ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] .

وسبق أن نقلنا قول الحافظ ابن كثير في هذه الآية ، قال :

«أي : لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه ». انتهى .

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ:

« أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » (١).

وَعَنِ الطُّفَيْلِ بن سَخْبَرَةَ ، أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا، قَالَ: رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي مَرَرْتُ بِرَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ الله، قَالُوا: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِرَهْطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الـمَسِيحُ ابْنُ الله، فَقَالُوا: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخبرْتُ بِهَا نَاسًا، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِهَا، فَقَالَ:«هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ ، فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ قَامَ خَطِيبًا، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ ، وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْـحَيَاءُ مِنْكُمْ أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (٤٧٦١)، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦).

وَحْدَهُ »[١] .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ؟ ! قُلْ : مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ »[٢] .

انظر ـ أخي الكريم ـ إلى مدى حِرْص النبيِّ ﷺ على حماية حِمَى التوحيد عما يشوبه من أيِّ شيء يكون سببًا في زواله أو حتى في نقصانه .

ومَنْ قال : لا إله إلا الله : يجبُ أن يعلم أنها كفر بالطاغوت وإيمان بالله وحْدَه ، والطاغوتُ ؛ كما قال ابن القيم[٣] : هو كلُّ ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ ، فطاغوتُ كلِّ قومٍ : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .

ومَنْ قال : لا إله إلا الله : يجب أن يعلم أنها تنفي الربوبية عن كل ما سوى الله ، وتثبتها له وحْدَه ـ جلَّ وعلا ـ فكما أنه لا خالق إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا مدبر ولا محيي ولا مميت إلا الله ، وجب أن تصرف العبادة كاملة إليه وحده عزَّ وجلَّ .

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٧٢، ٣٩٩) ، والدارمي في «سننه» (٢٦٩٩) مختصرًا ، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٦٥٥) ، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٣٢٥) (٨٢٣١) ، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٦٥٢) ، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨٧٤) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٧٤٣) ، والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٥٢٣) ، وصححه لشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٣٨) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٥) ، وابن ماجه في كتاب الكفارات (٢١١٧) ، وحسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١٣٩) .

(٣) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥) .

ومَنْ قال : **لا إله إلا الله** : يجب أن يعلم أن الحكم لله وحده ، وليس من حقِّ فردٍ أو هيئةٍ أو مجلسٍ أو دولةٍ أن تشرع للبشر من دون الله ـ عزَّ وجلَّ .

فإنه إذا لم يكن الخلقُ إلا له ، ولم يكن له شريكٌ فيه ، وإذا كان هو الذي يرزق الناس ، وإذا كان هو ـ سبحانه وتعالى ـ القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسيير شؤونه ، ولم يكن له في كلِّ ذلك شريك ، وإذا كان هو ـ سبحانه وتعالى ـ وحْدَه الذي يستحق أن يُعبد بلا منازع أو شريك ؛ فهو وحده صَاحبُ الحقِّ في التشريع والحكم ، ولا مبرر مطلقًا لأن يكون أحد شريكًا له في هذا الجانب .

ومَنْ قال : **لا إله إلا الله** : يجب أن يعلم أن من مقتضياتها الكبيرة الولاء لله ورسوله والمؤمنين ، والبراء من الشرك والمشركين .

ومَنْ قال : **لا إله إلا الله** : يجب أن يعلم أن أسماء الجلال وصفات الكمال هي ما أثبته الله تعالى لنفسه ، وأثبتها له أعرف الناس به عبده ورسوله محمد ﷺ ، وآمن بها جميع المؤمنين ؛ فواجب علينا أن نؤمن بها من غير تحريف لألفاظها ومعانيها ، ومن غير تعطيل أو تكييف أو تمثيل جَلَّ رَبُّنَا عن النِّدِّ ، وعن الكُفُؤِ ، وعن النَّظير والشَّبيه والمثيل.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

ألم أقُلْ لكُمْ ـ أحبتي ـ بأن « **لا إله إلا الله** » أصْلُ الدين وأساسه ، ورأس أمره ، وبقيةُ أركان الدين وفرائضُه متفرعة عنها ، متشعبة منها ، مكملات لها ؟ بلى .. إنها دينٌ شاملٌ ، ومنهجُ حياةٍ متكامل.

هذه هي كلمةُ التوحيد ، وذلكم هو معناها ومقتضاها ؛ فاعلَمْ هذا جيدًا تسعد في الدنيا والآخرة . والفضل بيد الله .



المبحث الثاني

شرط اليقين

المبحث الثاني
شرط اليقين

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه:

« اليقين: الإيمان كلُّه » (١).

يقول الحافظ ابن حجر:

« ومرادُ ابن مسعود: أن اليقين: هو أَصْلُ الإيمان؛ فإذا أيقن القلب انبعثت الجوارح كلُّها للقاء الله بالأعمال الصالحة؛ حتى قال سفيان الثوري: لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي؛ لطار اشتياقًا إلى الجنة، وهربًا من النار » (٢).

والإيمانُ ـ كما هو معروف عند أهل السنة والجماعة: هو نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.. يزيد وينقص.. يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله (٣):

«اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد.. وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين؛ قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

(١) أخرجه البخاريُّ «تعليقًا» في كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس» (١/ ٤٥ فتح)، ووصله الطبرانيُّ في «الكبير» (٨٥٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٨)، ووكيع في «الزهد» (٢٠٢)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١/ ٤٨)، وقد روي مرفوعًا، وحكم عليه بالنكارة الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٤٩٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٦٣) كتاب الإيمان.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٤١٣) بتصرف.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] .

فاليقينُ روحُ أعمالِ القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصديقية .

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا .. وانتفى عنه كلُّ ريب وشك ، وسخط وهم وغم ، فامتلأ محبة لله ، وخوفًا ورضًى به ، وشكرًا له ، وتوكلاً عليه ، وإنابة إليه » . اهـ .ملخصًا.

واليقين ؛ كشرط من شروط لا إله إلا الله هو : اليقين المنافي للشك ؛ بأن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا .

فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن ؛ فكيف إذا دخله الشك ؟!

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] .

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا ؛ أي : لم يشكوا ؛ فأما المرتاب ؛ فهو من المنافقين الذين قال الله فيهم :

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥] انتهى (١) .

ولا شكَّ أن هذا اليقين لو وقع في القلب لذاق صاحبهُ حلاوة الإيمان ،

(١) «معارج القبول» (٢/ ٤١٩).

ومتى تذوَّق المؤمن حلاوة هذا الإيمان انعكس على جوارحه وأقواله وأعماله ، فحوَّل هذا الإيمان إلى واقع ؛ فلا يمكن بحالٍ أن يستقرَّ الإيمان في قلبٍ ثم ينقاد لغير الله ، أو يحب غير الله ، أو يسأل ، أو يستعين أو يستغيث بغير الله ، أو يقبل حكمًا غير حكم الله ورسوله ، أو يوالي من عادى الله ورسوله ، أو يعادي من والى الله ورسوله .

نعم .. فليس الإيمانُ كلمةً تقالُ باللسان فقط !! ولكن الإيمان حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء ؛ قال الحسن [(١)]:

« ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قُبِل منه ، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يقبل منه » .

وفي «صحيح مسلم» ، من حديث الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » [(٢)].

قال النوويُّ ـ رحمه الله :

«قال صاحب التحرير ـ رحمه الله : معنى رضيت بالشيء: قنعت به ، واكتفيت به ، ولم أطلب معه غيره ؛ فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع في غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ ،

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٥٦) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٢٢) و(١٣/ ٥٠٤) ، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٥٦٥) ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٣٢٢) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن (٣٤).

ولا شك في أن من كانت هذه صفته ؛ فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه ، وذاق طعمه .

وقال القاضي عياض ـ رحمه الله : معنى الحديث : صحَّ إيمانه ، واطمأنت به نفسه ، وخامر باطنه ؛ لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ، ونفاذ بصيرته ، ومخالطة بشاشته قلبه ؛ لأن من رضي أمرًا سهل عليه ؛ فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان ، سهل عليه طاعات الله تعالى ولذَّت له ، والله أعلم . انتهى»[١] .

وفي «الصحيح» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ قَالَ : فَنَفِدَتْ أَزْوَادُ الْقَوْمِ قَالَ : حَتَّى هَمَّ بِنَحْرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ . قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله ، لَوْ جَمَعْتَ مَا بَقِيَ مِنْ أَزْوَادِ الْقَوْمِ فَدَعَوْتَ الله عَلَيْهَا قَالَ: فَفَعَلَ . قَالَ : فَجَاءَ ذُو الْبُرِّ بِبُرِّهِ ، وَذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ ، قَالَ: وَقَالَ مُجَاهِدٌ : وَذُو النَّوَاةِ بِنَوَاهُ قُلْتُ : وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ بِالنَّوَى؟ قَالَ : كَانُوا يَمُصُّونَهُ وَيَشْرَبُونَ عَلَيْهِ الْمَاءَ ، قَالَ : فَدَعَا عَلَيْهَا حَتَّى مَلأَ الْقَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ ، قَالَ : فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ :

« أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَنِّي رَسُولُ الله لَا يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ »[٢] .

وهنا يشترط النبيُّ ﷺ شرطًا مع قول : لا إله إلا الله ؛ ليكون قائلها من

(١) «صحيح مسلم» بشرح النووي: كتاب الإيمان ، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا (٢/ ٢)، طبعة الريان .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٧).

أهل الجنة ، وهو كما يتضح من الحديث « عدم الشك » وهذا هو اليقين .

وفي الحديث الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة الطويل أن النبيَّ ﷺ بعثه بنعليه وقال : « .. اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ.. » (١).

ويجملُ القولَ الإمامُ النوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ فيقولُ : « الذي يستحقُّ به العبد المدح والولاية من المؤمنين ، هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ؛ وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفةٍ بربه لا يستحق اسْمَ مؤمنٍ ، ولو عرفه وعمل ، وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن ، وكذلك إذا أقرَّ بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولم يعمل بالفرائض ، لا يسمَّى مؤمنًا بالإطلاق ، وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمنًا بالتصديق ؛ فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى ؛ لقوله ـ عزَّ وجل :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال:٢ـ٤].

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته ، وقال ابن بطال في باب من قال : «الإيمان هو العمل» :« فإن قيل : قد قدمتم أن

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا(٣١).

الإيمان هو التصديق ، قيل : التصديق هو أول منازل الإيمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ، ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا ؛ هذا مذهب جماعة أهل السنة : أن الإيمان قول وعمل ».

ثم قال ابن بطال في باب آخر : «قال المهلب : الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان الذي لا ينفع عند الله تعالى غيره » .

ثم يقول الإمام النوويُّ ـ رحمه الله تعالى : « فإذا تقرَّر ما ذكرناه من مذاهب السلف وأئمة الخلف ؛ فهي متظاهرة متطابقة على كون الإيمان يزيد وينقص .. ».

ثم يقولُ :« ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه ، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض ، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة ، وإن اختلفت عليهم الأحوال ، أما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك ؛ فهذا مما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لا يساويه تصديق آحاد الناس »(١) .

فاليقينُ شرطٌ من شروط « لا إله إلا الله » هو أن يقولها قائلها بلسانه ، ويصدقها بقلبه ، ويحققها بأقواله وأعماله ، وهذه هي حقيقة الإيمان ؛ واليقين هو الإيمان كلُّه ؛ كما قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه .

---

(١) «صحيح مسلم» بشرح النووي ـ ملخصًا ـ كتاب الإيمان ، باب الإيمان يزيد وينقص ، والإيمان قول وعمل (١/ ١٤٥) وما بعدها بتصرف.



المبحث الثالث
شرط القبول

المبحث الثالث

شرط القبول

والقَبولُ بفتح القاف هو : المحبة ، والرضا بالشيء ، وميل النفس إليه ، وتقبله ؛ كما قال ابن منظور في «لسان العرب»[(١)] .

فمَنْ علم معنى لا إله إلا الله ، وما تقتضيه من نفي وإثبات ، وولاء وبراء ، واستيقن قلبه بذلك ، وصدقه تصديقًا لا يتزعزع ، ولا يضطرب ، ولا تؤثر فيه الهواجس ، وجب عليه أن يقبل كلمة التوحيد بكل ما تضمنته من الأوامر والنواهي والحدود ، وهو في غاية الحب لله ، والرضا عنه ـ جلَّ وعلا .

وجب عليه أن يدخل بمجموع حياته في رحاب هذه الكلمة العظيمة ؛ فلا يشذ عن أحكامها ، ولا يندُّ عن سلطانها ، ولا يختار لنفسه من المناهج والنظم والقوانين الوضعية ما يشاء .

وجب عليه أن يذعن وينقاد إلى أوامرها ونواهيها ، وأن يقف عند حدودها ؛ لأن قبول هذه الكلمة لا يقف أبدًا عند حدِّ النطق بها، وفقط.

ولو كان الأمر كذلك ـ بهذه البساطة ـ لقبلتها قريش دون أن تزج بنفسها في الحروب التي خاضتها ضدَّ رسول الله ﷺ ، وقدمت فيها الغالي والنفيس من أعز وأغلى ما تملك من خيرة شبابها وأموالها .

---

(١) «لسان العرب» (١١/ ٥٤٠) ، طبعة دار الفكر .

بل لقد كانت قريش على يقينٍ مطلقٍ أن قبول هذه الكلمة يترتب عليه تغيير شامل وكامل في منهج الحياة كلِّه من أوله إلى آخره .

ولذلك ـ فقط ـ تقف كلُّ جاهليات الأرض في كلِّ مكان وزمان من قبول هذه الكلمة موقف الصَّدِّ والإعراض ؛ بل وتجنِّدُ لمحاربتها كل الإمكانات لتفريغها من محتواها ومقتضاها ومضمونها كلِّه ، حتى أصبحت هذه الكلمة عند كثيرٍ من المسلمين مجرد كلمة ترددها الألسنة ، فتراهم يسألون غير الله ، ويستغيثون بغيره ، ويثقون في غيره ، ويذبحون لغيره ، ويلجؤون لغيره ، ويحلفون بغيره سبحانه وتعالى ، وتراهم يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله عزَّ وجلَّ ، وتراهم يتعاملون بالربا ، وتراهم يشربون الخمر ، وتراهم قد ابتعدوا في كثير من شؤون حياتهم عن مضمون لا إله إلا الله ـ إلا من رحم الله عزَّ وجل ـ في الوقت الذي انخدع فيه كثير من الناس بأنه قد حقق ما يجب عليه .

وهذا يذكِّرني بقولة للمعتمد البريطاني في مصر والسودان ـ اللورد كرومر ـ ذكرها في كتابه «مصر الحديثة» كَتَبَ يقولُ :

« لابد من المحافظة على المظاهر الزائفة للإسلام ؛ منعًا من إثارة الشكوك ؛ حتى لا ينتبه المسلمون إلى الكيد المدبر لهم ، ويظلُّوا في اطمئنان خادع إلى أن إسلامهم ما زال بخير ، فلا يهبوا لنجدة العقيدة التي تقتلع من جذورها » .

فالقبولُ لهذه الكلمة العظيمة شرطٌ هام خطير ؛ فمَنْ ردَّها ، ولم يقبلها كان كافرًا والعياذ بالله ؛ سواء كان ذلك الرد بسبب الكبر أو العناد أو الحسد ، وقد قال الله تعالى عن الكفار الذين ردوها استكبارًا :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات:٣٥ ، ٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [ص:٥-٧] .

وَمَنْ قَبِلَهَا فأذعن لأوامرها ونواهيها ، ووقف عند حدودها ؛ فهو المؤمن الذي ينجو بها في الدنيا والآخرة ؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:١٠٣] .

وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ

هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ »[١].

وَمَنْ قَبِلَ بعضَ أحكامها ، وأهمَلَ البعضَ الآخر ؛ فقد فعل ما فعله اليهود الذين قال الله عنهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[البقرة:٨٥]

ويعلِّق الشيخ أبو بكر الجزائري على هذه الآية في «تفسيره» فيقول : «مِنْ هداية الآيات ، تَعَرُّضُ أمة الإسلام لخزي الدنيا وعذاب الآخرة بتطبيقها بعض أحكام الشريعة ، وإهمالها البعض الآخر ، وكفر من يتخير أحكام الشرع ؛ فيعمل ما يوافق مصالحه وهواه ، ويهمل ما لا يوافق ، وكفر من لا يقيم دين الله إعراضًا عنه وعدم مبالاة به » انتهى[٢].



(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب فضل من عَلِمَ وَعَلَّمَ (٧٩) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب : بيان ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢).

(٢) «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» (١/ ٨٠) الطبعة الثالثة ، دار راسم .



المبحث الرابع

شرط الانقياد

المبحث الرابع

شرط الانقياد

والانقياد هو: الخضوع [1] والتسليم والإذعان والاستسلام لكلِّ ما تقتضيه كلمة التوحيد. وهذا الشرطُ الهامُّ هو المحكُّ العمليُّ الحقيقيُّ للإيمان.

ولا يمكن لأحدٍ أن يَدَّعي الانقياد دون الدُّخول في الأعمال، وتحقيق مقتضيات التَّوحيد؛ فالانقياد ليس مجرد كلمةٍ سيرددها اللسان؛ إنه إسلام الوجه لله تعالى؛ قال سبحانه:

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [لقمان:٢٢].

وقال ـ جلَّ وعلا: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء:١٢٥].

ومعنى «يسلم وجهه»: أي ينقاد لله ـ جلَّ وعلا.

ومعنى «وهو محسن»: أي وهو موحدٌ لله ـ جلَّ وعلا.

والعروة الوثقى: هي لا إله إلا الله.

ومن مظاهر الانقياد: صرف العبادة الظاهرة والباطنة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ

(١) كما في «اللسان» (مادة قود ٧/ ٥٣١) ط الحديث.

وحْده ؛ فلا خضوع ولا ركوع ولا سجود إلا له ، ولا ذبح ولا نذر إلا له ، ولا حلف إلا به ، ولا طواف أبدًا إلا حَوْلَ بيته الحرام .

ولا حُبَّ ولا خوف إلا له ، ولا رجاء إلا فيه ، ولا استعانة إلا به ، ولا توكل إلا عليه ، ولا تفويض إلا إليه .

قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] .

ومن **مظاهر الانقياد** : طاعة رسول الله ﷺ في كل ما أمر ، والانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه وزجر ، واتباع سنته ، واقتفاء أثره ، والتسليم لحكمه والرضا به .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] .

قال الطبريُّ ـ رحمه الله [1] في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء:٦٥] الآية :

---

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ٢٤٠٠، ٢٤٠١) ط السلام .

«فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد، واستأنف القسم جَلَّ ذِكْرُهُ، فقال: ﴿وَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بي وبك، وبما أنزل إليك، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: حتى يجعلوك حكمًا بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه، يقال: شجر يشجر شجورًا وشجرًا، وتشاجر القوم إذا اختلفوا في الكلام والأمر مشاجرة وشجارًا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما قضيت، وإنما معناه: ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت، أي: لا تأثم بإنكارها ما قضيت وشكها في طاعتك وأن الذي قضيت بينهم حق لا يجوز لهم خلافه».

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله [1]: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة».

وقال في آية الأحزاب [2]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب:٣٦]: «فهذه الآية عامة في

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٠، ١٤١) ط أولاد الشيخ.

(٢) المصدر السابق (١١/ ١٧٠).

جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا اختيار لأحدٍ هاهنا ، ولا رأي ولا قول» .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله[1] :

«فكل من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وشريعته ، فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم الرسول ﷺ في جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا ، وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه » .

وقال تلميذه ابن القيم ـ رحمه الله[2] :

«أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسمًا مؤكدًا بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم ؛ من الأصول والفروع وأحكام الشرع ، وأحكام المعاد ، وسائر الصفات وغيرها ، ولم يُثْبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لِحُكْمِهِ كل الانشراح ، وتنفسح كل الانفساح ، وتقبله كل القبول ، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا حتى ينضاف إليه مقابلة حكمة الرضا والتسليم ، وعدم المنازعة ، وانتفاء المعارضة والاعتراض» .

وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى** » .

قَالُوا : يَا رَسُولَ الله، وَمَنْ يَأْبَى؟

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٧١).

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٧٠)، ط الفكر .

قَالَ : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى »(١) .

« فالواجب على كلِّ مؤمنٍ أن يحبَّ ما أحبه الله ، محبةً توجبُ له الإتيان بها أوجب عليه منه ؛ فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً .

وأن يكره ما يكرهه الله كراهةً توجب له الكفَّ عمَّا حرم عليه منه؛ فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلاً ...

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقةً من قلبه ، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، ويرضى ما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يُسخط الله ورسوله ، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض »(٢) .

ولا شك أن من مظاهر الانقياد أيضًا : قبول شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورفض ما سواه ؛ فالحلال ما أحلَّه الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله على لسان رسولهﷺ .

وبعد .. فالانقياد هو المحكُّ العمليُّ الحقيقي للإيمان .



---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول اللهﷺ (٧٢٨٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٩٥ـ ٣٩٧) (حديث رقم ٤١) .



المبحث الخامس

شرط الصدق

المبحث الخامس

شرط الصدق

« والصِّدقُ هو : الطريقُ الأقومُ الذي مَنْ لم يَسِرْ عليه ؛ فهو من المنقطعين الهالكين ، وبه تميز أهل النفاق من أهلِ الإيمان ، وسكَّان الجنان من أهل النيران ، وهو سيفُ الله في أرضه الذي ما وُضِع على شيء إلا قطعه ، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه ، مَنْ صال به لم تُرَدّ صولته ، ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمتهُ ؛ فهو روح الأعمال ، ومحكُّ الأحوال ، والحاملُ على اقتحام الأهوال ، والبابُ الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال ، وهو أساس بناء الدين ، وعموم فسطاط اليقين ، ودرجته تاليةٌ لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين ، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار .. إلى مساكن الصديقين ..

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين ...فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] .

وقال سبحانه :﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

والإيمان أساسه الصدق ، والنفاق أساسه الكذب ؛ فلا يجتمع كذب

وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر .

وينقسم الصدق إلى ثلاثة أقسام :

الصدق في الأقوال : وهو استواء اللسان على الأقوال ؛ كاستواء السنبلة على ساقها .

الصدق في الأعمال : وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ؛ كاستواء الرأس على الجسد .

الصدق في الأحوال : وهو استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص .. فلذلك كانت الصديقيةُ هي كمال الإخلاص والانقياد ، والمتابعة للأمر والنهي ظاهرًا وباطنًا » (١).

نعم .. الصِّدْقُ هو طريق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ، وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان من حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا » (٢).

وليس القصد هنا أن نتحدث عن فضيلة الصدق ؛ ولكن المقصود هنا

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٢٦٨) وما بعدها .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب قوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٦٠٩٤)، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧).

في هذا الباب هو الصدق في التوحيد ، وهو أن يقولها قائلها ـ أي كلمة التوحيد ـ صدقًا من قلبه ، يواطئ قلبه لسانه ؛ فمن قالها بلسانه وكذبها بقلبه ؛ فهو من المنافقين ، والعياذ بالله .

فلقد رددتها ألسنةُ المنافقين في حضرة رسول الله ﷺ وبين يديه ولكن أنكرتها وكذبتها قلوبهم ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾

[البقرة:٨- ١٠]

وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أي : إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط ؛ لذا فلقد كذبهم الله في شهادتهم وفي خبرهم هذا بقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ، وبقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فشرطُ الصدق شرطٌ رئيسٌ من شروط كلمة التوحيد جعله النبيُّ ﷺ شرطًا حاسمًا لدخول الجنة والنجاة من النار .

كما جاء في الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال :

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ ؛

إِلَّا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ »[١] .

وفي نص رواية البخاريِّ : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » ، قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» ، قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ـ ثَلاثًا ـ قَالَ :

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ ؛ إِلَّا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ » .

قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا ؟

قَالَ : « إِذًا يَتَّكِلُوا » وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا .

فاشترط النبيُّ ﷺ في نجاة من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقًا من قلبه ؛ فالتلفظ باللسان فقط بدون تصديق القلب لا ينفع العبد في الآخرة . وإن نفعه في الدنيا فعصم دمَه وماله .

وفي قصة الأعرابي الفقيه ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن أبي بكر التي جاءت في الأحاديث الصحيحة ، اشترط النبيُّ ﷺ في فَلاحِه ودخوله الجنة أن يكون صادقًا .

وهذه قصته ؛ كما في رواية الإمام مسلم في «صحيحه»[٢] من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ شَيْءٍ ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٨ ، ١٢٩)، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا(٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢)، وهو في «صحيح البخاري» (٦٣) .

أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ؟

قَالَ : « صَدَقَ » .

قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟

قَالَ : « اللهُ ».

قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟

قَالَ : « اللهُ » .

قَالَ : فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟

قَالَ : « اللهُ » .

قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللهُ أَرْسَلَكَ؟

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا ؟

قَالَ : « صَدَقَ » .

قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا ؟

قَالَ : « صَدَقَ » .

قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهِ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا ؟

قَالَ : « صَدَقَ » .

قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهِ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ؟

قَالَ : « صَدَقَ » .

قَالَ : ثُمَّ وَلَّى قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ » .

نعم .. إن صدق فيها بلسانه وقلبه وعمله ؛ فلا شك أنه من أهل الجنة ؛ فهذا هو الإيمان ، وهذه صفة المؤمن ، أما المنافق ـ والعياذ بالله ـ فهو الذي يخالف قوله عملَه ، وسرُّهُ علانيتَه ، وظاهره باطنَه .

يقول كلمة التوحيد بلسانه ، وينكرها قلبه ، ويخالفها بعمله فيصبح على حال ويمسي على غيره ، ويتكفأ تكفأ السفينة التي تلاطمها الأمواج والرياح .

فالموحِّدُ صادق مع ربه ـ جَلَّ وعلا ـ في توحيده؛ فهو لا يعبد إلا الله ولا يخشى إلا الله، ولا يسأل غير الله، ولا يستعين إلا بالله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه، ولا يفوض إلا له، ولا يذبح إلا له، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا ينقاد إلا لأوامر الله ورسوله، ويرفض كلَّ شيء دون شرع الله ورسوله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا في الله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فهو صادقٌ مع ربه ـ جَلَّ وعلا ـ في كلِّ أحواله وأحيانه وأقواله وأعماله لا يتناقض ولا يضطرب.

ولا ينطق بالتوحيد وهو متجرد منه.

لا ينطق بالتوحيد وهو كاره له.

لا ينطق بالتوحيد وهو في واد والتوحيد في وادٍ آخر.

لا ينطق بالتوحيد صادقًا، ثم يعيش راضيًا مطمئنًا غير مُكْره ولا مضطرٍ بنظامٍ للحياة يناقض ما يؤمن به وما يعتقده !!

لا ينطق بالتوحيد ويقنع أن يكون وفقط مسلمًا في سجل الإحصاء دون أن يعيش بالتوحيد للتوحيد.

لا ينطق بالتوحيد ويقبل أن يتعامل بالرِّبَا!!

لا ينطق بالتوحيد ثم يترك امرأته وبناته متبرجات !!

نعم .. فليس من التوحيد في شيء أن يتبع الرجل أوامر الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ في

بعض الجوانب ، وأن يتعدى حدود الله في الجوانب الأخرى .

لأن من مقتضيات التوحيد أن يسلم المرء نفسه لله ـ عَزَّ وجلَّ ـ وأن يدخل بمجموع حياته في هذا الدين مستسلمًا لأمر الله ، راضيًا بحكم رسول الله ﷺ ، وذلكم الموحِّدُ الصادق في توحيده .

جعلنا الله وإياكم من الصادقين





المبحث السادس

شرط الإخلاص

المبحث السادس

شرط الإخلاص

والإخلاصُ هو : تصفيةُ العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك [1]، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢، ٣] .

وقال لنبيه أيضًا : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:١٤، ١٥] .

وقال له ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

[الأنعام:١٦٢، ١٦٣]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦] .

---

(١) انظر: «المدارج» (٢/ ٩٢) ، و«الإحياء» (٤/ ٣٨٢) ، و«التعريفات» للجرجاني (ص٢١) .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الملك:٢] .

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ في هذه الآية[١] :

«أحسن عملاً هو أخلصه وأصوبه . وقالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وما أصوبه ؟

فقال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب : إذا كان على السنة ».

« وقد دلَّ على هذا الذي قاله الفضيل ؛ قولُ الله ـ عزَّ وجلَّ :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف:١١٠] »[٢].

فالإخلاصُ شرطٌ من شروط قبول الأعمال ، وليس على النفس شيءٌ أشق من الإخلاص ؛ فكم من الأعمال والأقوال والأحوال قد هبت عليها ريحُ الشرك بأنواعه فدمَّرتها وأهلكتها .

فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه تبارك وتعالى ؛ ففي الحديث الصحيح الذي رواه مُسْلِمٌ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥) ، عن الفضيل به ، وقال هذه المقالة كذلك إبراهيم بن الأشعث ؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (١٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (الحديث الأول / ٧٢ ط الرسالة) ، و«مدارج السالكين» (٢/ ٨٩).

قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ »[1] .

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله[2] : «واعلم أنَّ العمل لغير الله أقسامٌ : فتارةً يكونُ رياءً محضًا ، بحيثُ لا يراد به سوى مراءات المخلوقين لغرض دُنيويٍّ كحال المنافقين في صلاتهم ؛ قال الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٤٢] .

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها ؛ فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشكُّ مسلمٌ أنه حابط ، وأن صاحبه يستحقُّ المقت من الله والعقوبة .

وتارةً يكونُ العمل لله ، ويشاركه الرياء ؛ فإن شاركه من أصله ؛ فالنصوص الصحيحةُ تدلُّ على بطلانه وحبوطه أيضًا (ذكر ابن رجب من هذه النصوص الحديث التالي) :

ما رواه أحمد عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي ، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب ، الحديث الأول (ص٧٩) ط الرسالة .

فَإِنَّ جَسَدَهُ وَعَمَلَهُ وَقَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ »(١) .

ثم يقول : وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأ عليه نية الرياء ، فإن كان خاطرًا ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا ؟ أم يجازى على أصل نيته ؟ في ذلك خلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير ، ورجَّحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره ، وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبيِّ ﷺ أنه سُئِل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير يحمده الناس عليه ؟

فقال : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْـمُؤْمِنِ »(٢) . انتهى ملخصًا .

فلا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة أيِّ قولٍ أو عملٍ وقبوله .

وإخلاصُ التوحيد : هو تحقيق التوحيد وتجريده وإخلاص العبادة لله تعالى وحْدَه وتحقيقه وتصفيته وتخليصه من كلِّ شوائب الشرك والبدع ؛ فلا يكون الحب إلا لله ، والخوف من الله ، والذل لله ، والرجاء في الله ،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥و ١٢٦) ، والطيالسي في «مسنده» (١١٢٠) ، والطبرانيُّ في«الكبير» (٧١٣٩) ، والبزار في «مسنده» (٣٤٨٢)، والبيهقي في«الشعب» (٦٨٤٤) ، والشجرى في«الأمالى» (٤٣٤)، وابن عدى في «الكامل» (٤/ ٣٩)، والحاكم في «المستدرك»(٤/ ٣٢٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/ ١٧٨)، وغيرهم من طريق : شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن شداد بن أوس مرفوعًا .

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢١) : «فيه شهر بن حوشب وثقة أحمد وغيره ، وضعفه غير واحدٍ»، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٩) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢) (١٦٦).

والتوكل على الله ، والاستعانة بالله ، والاستغاثة بالله ، والنذر لله ، والذبح لله ، والطلب من الله ، والعمل لله ؛ فهو لله وبالله ، ومع الله ـ جلَّ وعلا .

وتحقيق التوحيد عزيزٌ في الأمة ؛ فإنه لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخُلَّص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه ؛ كما قال تعالى في يوسف ـ عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤]. بفتح اللام ، وفي قراءة: «المخلِصين» بكسرها [(١)] ، وهم في صدر هذه الأمة كثيرون ، وفي آخرها هم الغرباء ، وقد قلُّوا ، وهم الأعظمون قدرًا عند الله .

وقال تعالى عن خليله ـ عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٨، ٧٩] .

أي : أخلصتُ ديني ، وأفردتُ عبادتي للذي فطر السموات والأرض

---

(١) قال ابن مجاهد ـ رحمه الله [(*)] : «واختلفوا في فتح اللام وكسرها من قوله : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «المخْلِصين» و«مخلِصًا» [مريم :٥١] بكسر اللام ، وتابعهم نافع في قوله:«إنه كان مخلِصًا» في مريم بكسر اللام ، وقرأ سائر القرآء «المخلَصين» بفتح اللام ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «المخلَصين» و «مخلَصًا» في سورة مريم بفتح اللام» ا.هـ.

قال القرطبي ـ رحمه الله [(**)]: «وتأويلها بكسر اللام : الذين أخلصوا طاعة الله ... وتأويلها بفتح اللام : الذين أخلصهم الله لرسالته ، وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلصًا في طاعة الله تعالى ، مستخلصًا لرسالة الله تعالى» .

============

(*) «السبعة في القراءات» (ص٣٤٨) .

(**) «تفسير القرطبي» (لسورة يوسف:٢٤) (٩/ ١١٢)، بتصرف .

أي : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي : في حال كوني حنيفًا ، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ونظائر هذه الآية في القرآن كثير (١) .

فكمالُ الإخلاص في التوحيد لا يكون مطلقًا إلا بتمام البراءة من جميع صور الشرك وأهله ، وإخلاصِ العبادة لله وحْدَه ، وإخلاصِ الطاعة لرسول الله ﷺ ، فمن اجتنب الشرك كلَّه كبيره وصغيره وخفيه ، وأخلص عبادته لله ؛ فهو الموحد حقًّا .

ولما سئل النبيُّ ﷺ ؛ كما جاء في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَالَ :قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟

قَالَ رَسولُ الله ﷺ :

« لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ » (٢) .

يقول الإمام ابن حجر في «الفتح» في شرحه لهذا الحديث المبارك :

« فإنه ﷺ يشفع في الخلق لإراحتهم من هول الموقف ، ويشفع في بعض الكفار بتخفيف العذاب ؛ كما صح في حق أبي طالب ، ويشفع في بعض

---

(١) «قرة عيون الموحدين» للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص٣٥) ، ط الثالثة ، نشر مكتبة ابن الجوزي .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث (٩٩، ٦٥٧٠) .

المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها ، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها ، وفي بعضهم بدخول الجنة بغير حساب ، وفي بعضهم برفع الدرجات فيها ؛ فظهر الاشتراك في السعادة بالشفاعة ، وأن أسعدهم بها المؤمن المخلص» . والله أعلم . انتهى [١].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى حديث أبي هريرة :

«تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعته : تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين : أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبيُّ ﷺ ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد... » [٢].

« فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة ؛ فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة ؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا ؛ فإذا مات على تلك الحال نال ذلك ...

وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة ولم يُخالط الإيمانُ بشاشة قلبه ، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء ؛ كما في الحديث : « سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ » [٣] وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم ، وهم من

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤) .

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤١) بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد(٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣، ٤٧٥٤) ، وبرقم (٣٢١٢مختصرًا)، والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب الوقوف=

أقرب الناس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف:٢٣].

فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرًّا على ذنب أصلاً ؛ فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ؛ فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله ، وهذا هو الذي يحرم على النار ، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك .

فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص ، وهذه التوبة وهذه المحبة ، وهذا اليقين ، لا يتركون له ذنبًا إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار ...

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئةٍ راجحةٍ فيضعف إيمانه ؛ فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ؛ فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر ، فيضيف إلى تلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح السيئات فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين ، فيضعف قول : « لا إله إلا الله » فيمتنع الإخلاص بالقلب فيصير المتكلم كالهاذي أو النائم ، أو من يحسن صوته بآيةٍ من القرآن من غير ذوق وحلاوة .

= للجنائز (٤/ ٧٨ مختصرًا) ، وابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في الجلوس على المقابر (١٥٤٨، ١٥٤٩ مختصرًا)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧-٤٠) وقال :« صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي من طريق المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء - رضي الله عنه - وسنده حسن ، وصححه ابن القيم في « إعلام الموقعين » (١/ ٢١٤) ، و« تهذيب السنن » (٤/ ٣٣٧) ، ونقل ابن القيم فيه تصحيحَهُ عن الحافظ أبي نعيم وغيره ، وصححه الألباني ، كما في « أحكام الجنائز » (ص١٥٩) ط المكتب الإسلامي .

فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ؛ بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك .. فإن كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح ، وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غير الله ، واطمأن إلى الباطل ، واستحلى الرفث ومخالطة أهل الباطل ، وكره مخالطة أهل الحق .

فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه وبفيه ما لا يصدقهُ عمله»[(١)].

انتهى ملخصًا .

وفي حديث عتبان بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺقال : « فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»[(٢)].

فالإخلاصُ يضادُّه الإشراك ؛ فمن ليس مخلصًا فهو مشرك ، والشرك درجات ؛ منه ما هو أكبر ، ومنه ما هو أصغر ، ومنه ما هو خفي .

« والإنسان قلَّما ينفكُّ فعلٌ من أفعاله وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور ؛ فلذلك قيل : مَنْ سَلِمَ له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا ؛ وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب ؛ لأن الخالص هو الذي لا باعث له إلا طلب التقرب من الله تعالى »[(٣)].

---

(١)انظر : «فتح المجيد» (ص٤٧) وما بعدها .

(٢)هذا طرف من حديث طويل ؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الصلاة ، باب المساجد في البيوت(٤٢٥)، ومسلم في كتاب المساجد ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر(٢٦٣) (٢٣) .

(٣)«مختصر منهاج القاصدين» ، لابن قدامة المقدسي ، تحقيق : علي حسن عبد الحميد ، الطبعة الأولى (ص:٤٦٢) .

نعم .. إن إخلاص التوحيد أمر عظيم .. فهو تجريد التوحيد وتحقيقه وتنقيته وتصفيته من كل شوائب الشرك والبدع وصرف العبادة لله وحده وكمال الاتباع لرسوله ﷺ وتحكيمه في كل شيء مع الرضا الكامل بحكم الله ورسوله.





المبحث السابع
شرط المحبة

المبحث السابع
شرط المحبة

والمحبةُ ركْنُ التوحيد ، وبكمالها يكمل التوحيد ، وبنقصها ينقص التوحيد ، « وإذا غُرِسَتْ شجرةُ المحبة في القلب وسُقِيتْ بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها ؛ فأصلها ثابتٌ في قرار القلب ، وفَرْعُها متصل بسدرة المنتهى »[1].

نعم .. فالمحبُّ لله ـ جَلَّ وعلا ـ متصلٌ قلبه بذكر الله ، قائم بأداء حقوقه ؛ فإن تكلَّم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرَّك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ؛ فهو لله ، وبالله ، ومع الله .

« والمحبة روح الأعمال التي متى خَلَتْ منها ؛ فهي كالجسد الذي لا روح فيه .. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها ؛ بل هي حقيقة الإخلاص ؛ بل هي نفس الإسلام ؛ فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله ؛ فمن لا محبة له لا إسلام له البتة ؛ بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فإن « الإله » هو الذي يألهه العباد حبًّا وذلًّا وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا وطاعة له ؛ بمعنى « مألوه » وهو الذي تألهه القلوب ـ أي : تحبه ـ وتذلُّ له ، وأَصْلُ « التألُّه » التعبد . و« التعبُّد » آخر مراتب الحب يقال : عبَّده الحبُّ وتيَّمه : إذا ملكه وذلَّله لمحبوبه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٩٠) وما بعدها .

« فالمحبةُ » حقيقة العبودية ، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضا، والحمد والشكر ، والخوف والرجاء ؟ !

وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين ؟!

فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه .

وكذلك « الزهد » في الحقيقة : هو زهد المحبين ؛ فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته .

وكذلك « الحياء » في الحقيقة : إنما هو حياء المحبين ؛ فإنه يتولَّد من بين الحب والتعظيم .

وأما ما لا يكون عن محبة ؛ فذلك خوف محض ، وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها ، وهو أعلى أنواع الفقر ؛ فإنه لا فقر أتمَّ من فقر القلب إلى من يحبه .

وكذلك « الغنى » هو غِنى القلب بحصول محبوبه .

وكذلك « الشوق » إلى الله تعالى ولقائه ؛ فإنه لبُّ المحبة وسرُّها » . انتهى ملخصًا[1] .

فالمحبة لكلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ولما تقتضيه ودلت عليه ، والمحبة لأهل التوحيد وموالاتهم وبغض ما ناقض ذلك كلَّه ـ أصل دين الإسلام .

يقول الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا

---

(١) «مدارج السالكين» « منزلة المحبة » (٣/ ٦-٤٣) .

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] .

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

«أخبر ـ تعالى ـ أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى ؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا ؛ فهذا ندٌّ في المحبة لا في الخلق والربوبية ؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة ؛ فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم ؛ ثم قال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾وفي تقدير الآية قولان :

أحدهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله .

والثاني : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾من محبة المشركين بالأنداد لله ؛ فإن محبة المؤمنين خالصة ؛ ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

أحدهما :يحبونهم كما يحبون الله ؛ فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا .

الثاني :أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجِّحُ القول الأول ويقول :

«إنما ذمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له .

وهذه التسويةُ المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب :

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الشعراء:٩٧،٩٨]

ومعلومٌ أنهم لم يسوُّوهم بربِّ العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، وهذا أيضًا هو العَدْل المذكور في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

أي : يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم ، وهذا أصحُّ القولين » انتهى [(١)].

أقسام المحبة :

ولقد قسم العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ المحبة إلى أربعة أنواع فقال: «ها هنا أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها ، وإنما ضلَّ مَنْ ضَلَّ بعدم التمييز بينها :

أحدها : محبة الله ، ولا تكفي وحْدَها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ، فإن المشركين وعُبَّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

(١) «مدارج السالكين» ـ الجزء الثالث « منزلة المحبة » .

الثاني: محبة ما يحب الله ، وهذه هي التي تدخلُه في الإسلام وتخرجه من الكفر، أحب الناس إلى الله أَقْوَمُهُم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب الله ، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكلُّ من أحبَّ شيئًا مع الله لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ـ فقد اتخذه ندًّا من دون الله ، وهذه محبة المشركين» . انتهى [(١)] .

وربما يتضح هذا التقسيم من خلال حديثنا عن الجزئية الهامة الآتية : وهي أن كثيرًا من الناس قد ادعى المحبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولدينه ولكتابه ولرسوله ﷺ ؛ فكان من الواجب أن نحدِّد شروط المحبة وأركانها وعلاماتها ؛ ليعلم كلُّ مسلمٍ مكانه من هذا الزعم . وما هو رصيده من هذه المحبة .

وأول علامة من علامات حب العبد لربه ـ جلَّ وعلا ـ هي :

أن يقدم العبد كلَّ ما يحبه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإن خالف هواه ، وأن يبغض كل ما يبغضه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإن مال إليه هواه .

وهذه العلامةُ على كمال عبودية العبد لله ـ عزَّ وجلَّ ـ والعبودية هي كمال الحب مع كمال الذل لله ـ جلَّ وعلا ـ فمن أحبَّ محبوبًا ، وخضع له ؛

---

(١) «الداء والدواء» : (أنواع المحبة ص:٣٢٣)، الطبعة الثالثة ، نشر مكتبة دار التراث .

فقد تعبَّد قلبه له !!

فمن كانت محبته لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحْدَه وإن أحبَّ شيئًا آخر أحبه لله ، وفي الله ، ومن أَجْل الله ، أو لكونه وسيلة إلى محبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صرفه ذلك عن محبة ما سواه ؛ لأن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة ، وذلك كما هو معلوم بخلاف المحبة لله ؛ فإنها من موجبات ولوازم هذه العبودية ؛ فالإنسان عبدُ محبوبه كائنًا من كان ؛ كما قيل :

أنت القتيل بكلِّ من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي [(١)]

فمن لم يكن الله ـ جلَّ وعلا ـ إلهه ، كان إلهه هواه ؛ كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣] .

«فكلُّ من عبد مع الله غيره فهو في الحقيقة عبدٌ لهواه ، بل كلُّ ما عُصي الله به من الذنوب ؛ فسببه تقديمُ العبد هواه على أوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونواهيه» [(٢)].

ولقد توعد الله بالعقاب كلَّ من قدَّم محبة أهله ، وماله ، وعشيرته ، وتجارته ، ومساكنه على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومحبة ما أوجبه الله وأمر به .

---

(١) «فائية ابن الفارض» («الكشكول» للبهاء العاملي ٤١٧) ، و«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» لأبي الفضل المرادي (١/ ٣٨٥) .

(٢) «معارج القبول» (٢ص: ٤٢٤) وما بعدها .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] .

فلابد من إيثار محبة الله ، وما يحبه الله ويريده ، على كلِّ ما يحبه العبد ، وهذه المحبةُ هي أصْلُ السعادة في الدنيا والآخرة .

وفي «الصحيحين» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » (١) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله :

« معنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات ، وتحمُّل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك الرسول ﷺ » .

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى (٢) :

« فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبعُ كمالَ محبة العبد لله ، وذلك

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣، ٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٦) .

بثلاثة أمور : تكميلُ هذه المحبة ، وتفريغُها ، ودفعُ ضدِّها .

فتكميلُها : أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما .

وتفريغُها : أن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله .

ودفعُ ضدِّها : أن يكره ضدَّ الإيمان أَعْظَم من كراهته الإلقاءَ في النار » ـ انتهى ملخصًا .

وفي « سنن أبي داود » و« معجم الطبراني » [١] من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ».

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

« وروحُ كلمةِ التوحيد وسرُّها : إفراد الربِّ جَلَّ ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جدُّه ، ولا إله غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ؛ فلا يحب سواه ، وكلُّ ما يحب غيره ؛ فإنما يحبه تبعًا لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يحتسب إلا به ، ولا يستعان في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا

---

(١) تقدم في مبحث «الولاء والبراء» .

يذبح إلا له وباسمه ، ويجتمع ذلك كلُّه في حرفٍ واحدٍ وهو : ألا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ؛ فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة هذه الشهادة ، ومحالٌ أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها .. »[1] .

والعلامةُ الثانية من علامات محبة العبد لربه ـ جلَّ وعلا ـ هي :

محبةُ النبيِّ ﷺ ، واتباع سنته ، واقتفاء أثره ، والاهتداء بهديه ، وطاعته في كلِّ ما أمر ، والانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه وزجر .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[2] :« هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كلٍّ من ادَّعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ؛ فإنه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي ، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ...

قال الحسن البصريُّ وغيره من السلف[3] : « زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ؛ فقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ » اهـ.

---

(١) «الداء والدواء» لابن القيم (ص٣٣٢) وما بعدها .

(٢) «تفسير ابن كثير» (لسورة آل عمران:٣١) .

(٣) فقد روى الطبريُّ في « تفسيره » (٦٨٤٦ ، ٦٨٤٧ ، ٦٨٤٩)، وغيره من طرقٍ عن الحسن البصري ـ بألفاظ ومنها ـ قال : « إن أقوامًا كانوا على عهد رسول الله ﷺ يزعمون أنهم يحبون الله ، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقًا من عمل ؛ فقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ الآية .

فدليلها وثمرتها هو : اتباع الرسول ﷺ.

« ومحبة الرسول ﷺواجبة ، تابعة لمحبة الله ، لازمة لها ؛ فإنها محبة لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن ، وتنقص بنقصها ، وكلُّ مَنْ كان محبًّا لله ؛ فإنما يحبُّ في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح .

وهذه المحبةُ ليس فيها شيءٌ من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ، ورجائه في حصول مرغوب منه، أو دفع مرهوب منه ، وما كان فيها ذلك ؛ فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره ، والرغبة إليه من دون الله ، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده »[(١)].

فمحبته ﷺتابعة ولازمة لمحبة الله تعالى ، وهي شرط لكمال الإيمان ؛ كما في الحديث المتفق عليه من حديث أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[(٢)].

وفي « صحيح البخاري » أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : يَا رَسُولَ الله ، لَأَنتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

(١) انظر : «فتح المجيد» (ص٣٣٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب حب الرسول من الإيمان(١٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺأكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين(٤٤/ ٧٠).

« لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الْآنَ ، وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «الْآنَ يَا عُمَرُ»[1] .

فمن ادَّعى محبة النبيِّ ﷺ بدون متابعة وتقديم قَوْله على قول غيره؛ فقد كذب ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٤٧] .

فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ[2] .

وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ــ رضي الله عنه ــ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى » .

قَالُوا : يَا رَسولَ اللهِ ، وَمَنْ يَأْبَى ؟

قَالَ: « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى »[3] .

وفيه أيضًا عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ :

« جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ؛ فَقَالُوا : إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا ؛ فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبيﷺ (٦٦٣٢).

(٢) «فتح المجيد» (٤٣٠ ط ابن رجب) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٠).

وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ؛ فَقَالُوا : مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا ، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ؛ فَقَالُوا : أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : فَالدَّارُ : الْجَنَّةُ ، وَالدَّاعِي : مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَقَدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَقَدْ عَصَى الله ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ » (١).

يقول صاحبُ «المعارج» حافظ حكمي ـ رحمه الله تعالى :

« ومن هُنَا يُعْلَمُ أنه لا تتمُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمدًا رسول الله ؛ فإذا علم أنه لا تتم محبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه ؛ فلا طريق إلى معرفة ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وما يكرهه ويأباه إلا باتباع ما أمر به رسولُ الله ﷺ، واجتناب ما نهى عنه ؛ فصارت محبته مستلزمةً لمحبةِ رسول الله ﷺ وتصديقه ومتابعته ؛ ولهذا قرن محبته بمحبة رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن » (٢).

أما العلامةُ الثالثة من علامات محبة العبد لله ـ جَلَّ وعلا ـ هي :

موالاة من والى الله ورسوله والمؤمنين ، ومعاداة من عادى الله ورسوله والمؤمنين ؛ فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كلِّ معبود سواه ؛ كما قال سبحانه وتعالى :

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١).

(٢) انظر : «معارج القبول» (٢ص: ٤٢٧).

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة :٤] .

وقال سبحانه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة:٢٣، ٢٤] .

فلا يمكنُ بحالٍ أن تجمع محبة الله ورسوله ومحبةَ الكفرِ وأهلهِ في قَلْبٍ واحدٍ ، ولا حتَّى في حالة الإكراهِ للنطق بكلمة الكفر ؛ فلا يُعْذَر الإنسان في حالة رضا القلب !!

فمن والى الله ورسوله والمؤمنين ، ولم يتبرأ من الشرك والمشركين ، لم يصحَّ إيمانه ، ولم يستقم إسلامه ؛ كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى :

« ولا يصحُّ للمؤمن دينٌ إلا بموالاة أهل التوحيد ، ومعاداةِ أهل

الضلال ، وبغضهم والبراءة منهم ؛ كما تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار ، وكما تبرأ نبينا محمدٌ ﷺ وصحبه من كفار قريش ومن حذا حذوهم ، وهذه هي الموالاة للمؤمنين ، والمعاداة للمشركين ،التي هي أَصْلُ عرى الإيمان وأوثقها » [١].

ويقول الإمام ابن القيم عن ذلك في «نونيته» [٢]:

أتحبُّ أعداء الحبيب وتدَّعي   حبًّا له ما ذاك في الإمكان
وكذا تعادي جاهدًا أحبابه   أين المحبةُ ؟ يا أخا الشيطان
شرطُ المحبةِ أن توافق مَنْ   تُحبُّ على محبته بلا نُقصان
فإن ادَّعيت له محبةً مع   خلافك ما يحبُّ فأنت ذو بهتان

ولنتدبر هذه الكلمات النيرات في هاتين الآيتين الكريمتين من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١] .

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى [٣]:

« في هذه الآيات بيانٌ من الله سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله ، وبالنبيِّ

---

(١) «الدرر السنية» (٢/ ٩٥) .
(٢) «نونية» ابن القيم ـ رحمه الله تعالى (ص: ١٧١) .
(٣) «الاقتضاء» (١/ ٤٩٠) بتصرف .

ﷺ ، وما أنزل إليه ، يقتضي عدم ولاية الكفار ؛ فثبوت موالاتهم يوجب عدم الإيمان ؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم ».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال :

« مَنْ أحبَّ في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ؛ فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان ، وإن كثرت صلاته وصومه ؛ حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي ـ وفي رواية : لا يجزئ عن أهله شيئًا » (١) .

وفي الحديث : « أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْـحُبُّ فِي الله وِالْبُغْضُ فِي الله عَزَّ وَجَلَّ » (٢) .

وفي الحديث أيضًا : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله ؛ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » (٣) .

ومن خلال هذا العَرْض السَّريع يتضحُ أن المحبة لكلمة التوحيد ولما تقتضيه ، وبغض ما يناقضها ، هي : أَصْلُ دين الإسلام ، وهي ركنُ التوحيد ، وبكمالها يكمل التوحيد ، وبنقصها ينقص التوحيد .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ؛ كما في «جامع العلوم» لابن رجب (٣٤ ط المعرفة) ، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٩٦) ، ومحمد بن أبي عمر العدني في «الإيمان» (٥٦) من طريق : ليث عن مجاهد عن ابن عباس ، وسنده ضعيف .

(٢) تقدَّم .

(٣) تقدم قريبًا .








« الشقُّ الثاني لكلمة التوحيد »

« شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ »

ويشتمل على المباحث التالية :

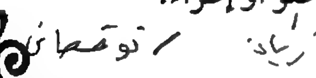
المبحث الأول : الإيمانُ برسول الله ﷺ .

المبحث الثاني : تصديقهُ في كلِّ ما أخبر .

المبحث الثالث : طاعتهُ في كلِّ ما أمر .

المبحث الرابع : الانتهاءُ من كلِّ ما نهى عنه وزجر .

المبحث الخامس : محبةُ النبيِّ ﷺ دون غلو أو إطراء.








تمهيد

لما كانت كلمةُ التوحيد عَلَمًا على الشهادتين معًا ؛ أي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؛ إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى .

كان لزامًا عليَّ بعد ما تحدثتُ عن الشهادة الأولى في الفَصْلَيْن السابقين أن أتحدث عن الشهادة الثانية ؛ لأبين أنها هي الأخرى ليست مجرد كلمة تقالُ باللسان فحسب !!

ولن تزول قدما عبدٍ من العباد بين يدي الله تعالى حتى يسأل عن هاتين المسألتين:

ماذا كنتم تعبدون ؟

وبماذا أجبتم المرسلين ؟

وجوابُ الأولى : بتحقيق الشهادة الأولى « **لا إله إلا الله** » معرفةً وإقرارًا وعملًا .

وجوابُ الثانية : بتحقيق الشهادة الثانية « **محمد رسول الله** » معرفةً وإقرارًا وعملًا .

وهذا هو أول ركن من أركان الإسلام ، وهو الركن الأساس الأعظم ، والصراط المستقيم الأقوم ، مَنْ سلكه أَوْصَله إلى جنات النعيم ، ومن انحرف عنه هوى إلى قعر الجحيم ، ومَنْ لم يثبت عليه في الدنيا لم يثبت على جسر جهنم يوم القيامة ، وهذا الركن العظيم لا يدخل العبد في الإسلام

إلا به . ويخرج من الإسلام بجحوده وإنكاره والاستكبار عليه .

فبشقِّه الأول ؛ يعرف المعبود ـ عزَّ وجلَّ .

وبشقِّه الثاني ؛ يعرف كيف يعبد ـ عزَّ وجلَّ .

ودينُ الإسلام ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)] ـ مبنيٌّ على أصلين :

أن يعبد الله وحده لا شريك له .

وأن يعبد بما شرعه على لسان رسوله ﷺ .

وهذان الأصلان : هما حقيقةُ قولنا : « **أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله** » .

وهذا الأَصْلُ الثاني ـ وهو شهادة أن محمدًا رسولُ الله ـ أَصْلٌ عظيمٌ ، وشهادةٌ جليلةٌ كريمةٌ ؛ فهي ليست مجردَ كلمةٍ نردِّدُها ونتغنَّى بها ، وننسجُ حولها القصائد والمدائح والأشعار ، ونعقد لها الندوات والمحاضرات ، ونقيم لها الحفلات في المناسبات والأعياد ، ثم لا تتحول مقتضيات هذه الشهادة العظيمة في حياتنا إلى منهج حياة وإلى واقعٍ وسلوك !! .

ووالله ما ذلَّت الأمة وضعفت إلى هذا الحدِّ إلا يوم أن غاب هذا المفهوم وهذا الأصل عن واقعها وحياتها ، وصار حبيس الأوراق والصحف ؛ بل وتبجح البعض وتجرأ ، وتطاول على سنة رسول الله ﷺ وقالوا : لا نأخذ بها ؛ ففيها الموضوع والضعيف وهذا ضرب دقيق وخبيثٌ من الزندقة ؛

---

(١) تقدَّم عزوه .

لأنه إذا سقط الحديث، وضاعت السنة؛ ضاع القرآن، وضاع الدين كلُّه !!

وصنفٌ آخر من الناس ابتلى بالحماقة، وضيق الأفق، وقلة الإيمان؛ فقالوا: هذا الحديثُ لا يعقل، ولا يقبله العقل، وغير المعقول لا نقبله، ونسوا أن الفساد في عقولهم، وهذه الدندنة قديمةٌ حديثةٌ .. فقديمًا: «بينما عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ يحدِّث عن سنة نبينا ﷺ؛ إذ قال له رجل: يا أبا نجيد، حدِّثنا بالقرآن؛ فقال له عمران: أنت وأصحابك تقرؤون القرآن، أكنت محدِّثي عن الصلاة وما فيها وما حدودها؟ أكنت محدِّثي عن الزكاة في الذهب والإبل والبقر وأصناف المال؟ ولكن قد شهدتُ وغبتَ أنت، ثم قال: فرض علينا رسولُ الله ﷺ كذا وكذا.

فقال: أحييتني أحياك الله؛ قال الحسن: فما مات ذلك الرجلُ حتى صار من فقهاء المسلمين»[1].

نعم .. إن ضياع السنة ضياع للدين.

وهذه حقيقةٌ لها وزنها .. إن الرسول ﷺ ليس مجرد واعظٍ يُلْقي كلمته ويمضي؛ بل ما أرسله الله ـ جَلَّ وعلا ـ إلا ليحقق منهج الله في الأرض، وإلا ليحول دين الله إلى واقع في حياة الناس، ولن يتم ذلك أو يكون إلا

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب ما تجب فيه الزكاة (١٥٦١)، والطبراني في «الكبير» (١٨، ١٦٥و ٢١٩)، والروياني في «مسنده» (١١٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٩٢)، وابن حبان في «الثقات» (٧/ ٢٤٧و ٥٤٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١١/ ١٦٤، ١٦٥)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٣٤و ٢٣٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (« ظلال الجنة» ٨١٥)، وأبو الفضل المقرئ في «أحاديث في ذم الكلام وأهله» (٢٤١).

بطاعةٍ كاملةٍ لرسول الله ﷺ ؛ بل ولا يتم الإيمان إلا بذلك ؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥] .

نعم .. إنه شرطُ الإسلام ، وحدُّ الإيمان ، والعودة إليه ـ أي : إلى حكم رسول الله ﷺ وطاعة رسول الله ـ ليست نافلة ولا تطوعًا ، ولكنه الإيمان أو عدم الإيمان !!

وفي وسط هذا الشتات وهذا الضياع التي تترنَّحُ فيه الأمة تصرخ وتتعالى بعضُ الصيحات المخلصة الصادقة بالعودة الصادقة إلى هدى رسول الله ﷺ ، وإلى الوقوف أمام مقتضيات هذه الشهادة العظيمة الجليلة : « أشهد أن محمدًا رسول الله » ؛ فما أحوج الأمة إلى أن تعرف وتعي هذه المقتضيات وتلك التكاليف ؛ لتكون محبتها لرسول الله ﷺ محبةً صادقةً ترضي الله ورسوله ؛ فعارٌ على الأمة التي تَمَثَّلَ دستورها في القرآن ، وتتمثل قيادتها في شخص أعظم رسولٍ عرفته الدنيا أن يكون هذا حالها !!

ولن تتغير حتى تعلم أن هذه الشهادة الكريمة تقتضي ما يلي :

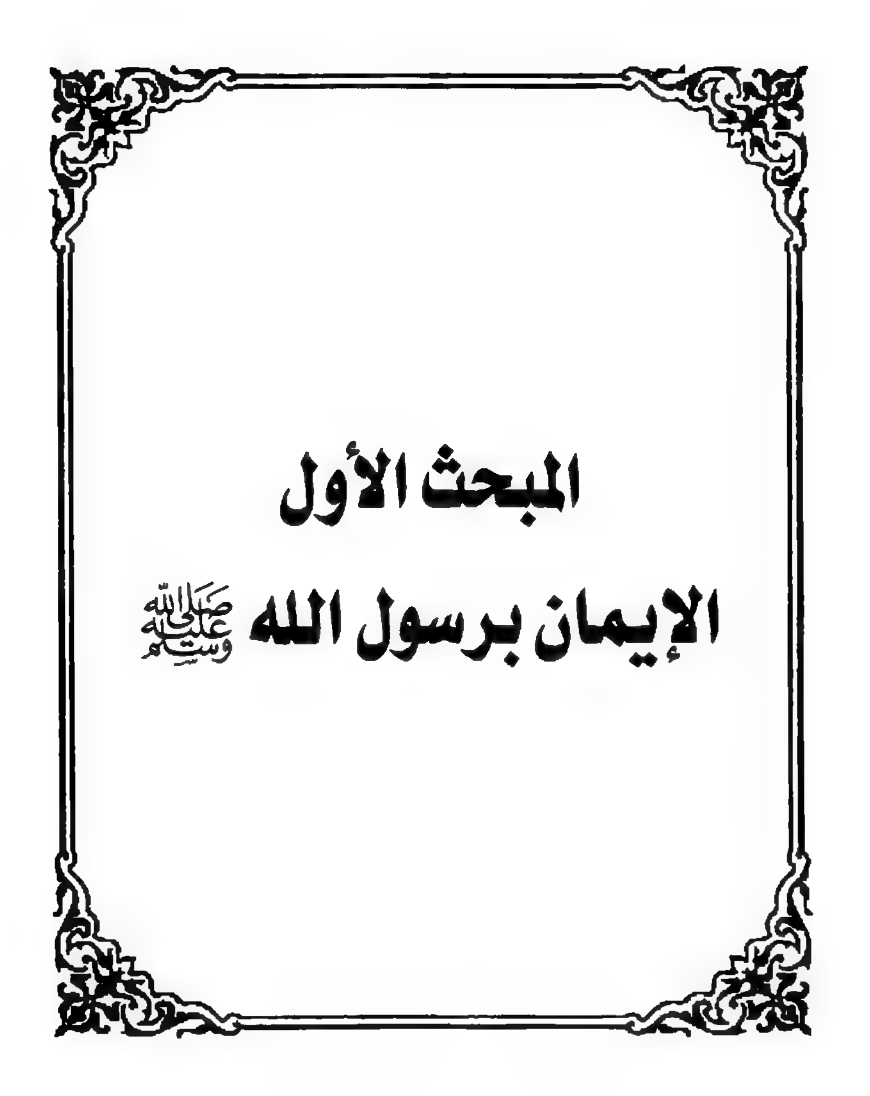
أولًا : الإيمان برسول الله ﷺ .

ثانيًا : تصديق النبيِّ في كل ما أخبر .

ثالثًا : طاعته في كلِّ ما أمر .

رابعًا : الانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه وزجر .

خامسًا : محبته ﷺ دون غلوٍّ أو إطراء .



المبحث الأول

الإيمان برسول الله ﷺ

المبحث الأول

الإيمان برسول الله ﷺ

إنه شرطُ الإيمان ، وحدُّ الإسلام ، ولا يُقْبل إسلام العبد إلا به ؛ بل وما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأخذ الله عليه العهد والميثاق لئن بعث الله محمدًا ﷺ وهو حيٌّ ليؤمِننَّ به ولينصرَنَّه ؛ كما قال عليٌّ بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس [1] في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [آل عمران:٨١ ، ٨٢] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآيات : « يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كلِّ نبيٍّ بعثه من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى عيسى ـ عليه السلام ـ لَمَهْمَا أتى الله أحدَهُم من كتابٍ وحكمة ، وبلغ أيَّ مبلغ ، ثم جاءه رسولٌ من بعده ، ليؤمنَنَّ به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ...

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد : « حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ ، عَنْ جَابِرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى

---

(١) كما في «تفسير الطبري» (٧٣٣٣، ٧٣٣٧) .

النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنْ التَّوْرَاةِ أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ ؟ قَالَ : فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ عَبْدُ الله : فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ عُمَرُ : رَضِينَا بِالله رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا ، قَالَ : فَسُرِّيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ »(١) .

« فالرسولُ محمدٌ خاتم الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دائمًا إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي لو وُجِد في أيِّ عصرٍ لكان هو الواجبَ الطاعةِ المقدَّم على الأنبياء كلِّهم ؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الربِّ ـ جَلَّ جلاله ـ لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي إليه ؛ فيكون هو المخصوص به ـ صلوات الله وسلامه عليه »(٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/ ٤٧٠) و (٤/ ٢٦٥) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦/ ١١٣) و (١٠/ ٣١٣) ، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٨٨) ، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٣٣٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٥٧١) ، وابن الأثير في « أسد الغابة » (٢/ ٨٦) من طريق : الجعفي عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت مرفوعًا .

قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٢٠) : «رواه أحمد والطبراني ، ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن فيه جابرًا الجعفي ، وهو ضعيف» .

قُلْتُ : وللحديث شواهد يتقوى بها ؛ لذا قواه وحسنه الألباني في «الإرواء» (٦/ ٣٧) ، و«صحيح الجامع» (٥٣٠٨) وراجع «علل الدارقطني» (٢/ ١٠٠) ، و«مجمع الزوائد» (١/ ٢١٢).

(٢) انظر : «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٧) .

والأدلةُ النقليةُ والعقليةُ على وجوب الإيمان برسول الله ﷺ كثيرةٌ ، ولله الحمد والمنة.

أولاً : الأدلةُ القرآنية ، ومنها :

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[النساء:٧٩، ٨٠]، وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[المائدة:٩٢] .

وقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح:٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف:١٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب:٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾[التغابن:٨] .

وقال سبحانه : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨] .

وتوعد الله سبحانه من لم يؤمن به وبرسوله فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾[الفتح:١٣] .

والآياتُ الكريمة في القرآن أكثر من أن تحصى .

ثانيًا : الأدلة النبوية ، ومنها :

قَوْلُه ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

ويعلِّق الإمام النوويُّ على هذا الحديث الكريم قائلاً :

« وفي هذا الحديث نسخ المِلَلِ كُلِّها بِرسالةِ نبينا محمد ﷺ ، وفي مفهومه دلالةٌ على أن من لم يبلغه دعوة الإسلام ؛ فهو معذور ، وهذا جارٍ على ما تقدَّم في الأصول أنه لا حُكْم قبل ورودِ الشرع على الصحيح ، والله أعلم .

وَقَوْلُه ﷺ : « لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ » .

أي : ممن هو موجودٌ في زمني وبعدي إلى يوم القيامة ؛ فكلُّهم يجبُ عليه الدخول في طاعته ، وإنما ذكر اليهود والنصارى تنبيهًا على من سواهما ؛ وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ؛ فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا ؛ فغيرهم ممن لا كتاب له أولى ، والله أعلم» .اهـ(٢).

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ قال :

« إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة النبيِّ ﷺ (١٥٣) .

(٢) («صحيح مسلم» بشرح النووي)(١/ ١٨٨) .

مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ؛ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ » (١).

والحديث يبين بالمثال فضل النبيِّ ﷺ على سائر النبيين ، وأن الله ختم به المرسلين ، وأكمل به شرائع الدين (٢).

وقوله ﷺ : « إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يُمْحَو الله بِيَ الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قدمي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ ، الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ » (٣).

ويؤكِّد هذا أيضًا ؛ ما أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم (٤) من حديث ثَوْبَانَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « ... وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي » .

وفي «الصحيحين» (٥) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي ...» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦).

(٢) انظر : «فتح الباري» (٦/ ٥٥٩) ، ط دار المعرفة .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٥٣٢) و(٤٨٩٦)، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب في أسمائه ﷺ (٢٣٥٤) (١٢٥) واللفظ له .

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨) ، وأبو داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٥٢) وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢) ، والحاكم (٤/ ٤٩٦) من طريق : أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان مرفوعًا . وأصْلُه في «صحيح مسلم» (٢٨٨٩) من طريق أبي قلابة به وراجع «الصحيحة» (١٦٨٣) .

(٥) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٥) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٢).

ومن الأحاديث الجامعة التي تبين فضل النبيِّ ﷺ وأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد كرَّمه وفضَّله على جميع الأنبياء ، وأرسله إلى الناس عامة وإلى الخلق كافة ، وافترض على الناس الإيمان به ﷺ وتصديقه وطاعته في كلِّ ما جاء به عن ربه ـ جَلَّ وعلا :

من هذه الأحاديث ؛ ما رواه مسلمٌ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال :

«فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » (١) .

وهكذا ؛ فالأحاديث في هذا الباب كثيرة .

فلقد أكمل الله به ﷺ الدين ، وأتم الله به النعمة .. فإذا كان الله تعالى قد أرسله بدينٍ بلغ ذروة الكمال الذي لا كمال بعده ، بدين يخاطب البشرية جمعاء بجميع أجناسها ولغاتها وألوانها ، بدين ضمن الله به للبشرية السعادة والفوز في الدنيا والآخرة ، بدين ختم الله به جميع الأديان ونسخ به جميع الرسالات ؛ ولذا فقد أوجب على الجميع الإيمان بصاحب هذه الرسالة الخاتمة ، وأن تفيء البشرية كلُّها إليه وإلى دينه وأمرها بذلك ؛ فقال جَلَّ ذكره :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[آل عمران:١٣٢]

---

(١) رواه مسلم ، كتاب المساجد ، ومواضع الصلاة(٥٢٣) .

بل ؛ ولقد بيَّن الحقُّ سبحانه أن دين محمدٍ هو الدين الذي لا يقبل الله للبشرية دينًا غيره تدين به ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف:١٥٨] .

قال الإمام الطبري - رحمه الله (١):

« يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ : قل يا محمد للناس كلِّهم : ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ لا إلى بعضكم دون بعض ، كما كان من قبلي من الرسل ، مرسلًا إلى بعض الناس دون بعض ، فمن كان منهم أرسل كذلك ؛ فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض ولكنها إلى جميعكم ».

ثالثًا : شهادة التوراة والإنجيل :

ومن الأدلة التي توجبُ الإيمان برسول الله ﷺ : شهادة التوراة والإنجيل ببعثته ونبوته وختمه للرسل والرسالات ؛ كما قال الله سبحانه في آية الأعراف وغيرها :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[الأعراف:١٥٧] .

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٣٦٦٥) ط السلام .

وكما في قوله تعالى في سورة الصف : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦] .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ من حديث عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قلت :

« أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي التَّوْرَاةِ ؟ قَالَ : أَجَلْ ، وَالله إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ ، وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ؛ بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا »[1] .

رابعًا : الأدلة العقلية :

والأدلة العقلية على صدق رسالة محمد ﷺ كثيرة ، ولعلَّ أعظمها وأجلَّها ما أيده الله ـ تعالى ـ به من المعجزات والبراهين القاطعة بصدق

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب كراهية الصخب في الأسواق (٢١٢٥) ، وأيضًا أخرجه (برقم ٤٨٣) من حديث عبد الله بن عمرو به ، وأخرجه الدارميُّ في «مسنده» (رقم:٦) ، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٦٧) ، من حديث عبد الله بن سلام ، وراجع «الفتح» (٤/ ٤٠٣).

نبوته ، ولا شكَّ أن أعظم هذه المعجزات المعجزة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة ألا وهي القرآن الكريم .

نعم .. إن القرآن الكريم هو معجزته الكبرى ، وآية النبوة الخالدة على مرِّ الأيام ، وكلِّ العصور ؛ ليظلَّ به الدليل قائمًا على صدق نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الحجة البالغة ، والدلالة الدامغة ، والعصمة الواقية ، والنعمة الباقية ، وتولَّى الله تعالى حفظه من كلِّ تحريف وتبديل ؛ فلم تتغير فيه كلمةٌ ولم يتبدل منه حرف ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] وما تولَّى الله تعالى حفظه لا يضيعه أحد !!

بل ولقد تحدَّى الله البشرية على مدار تاريخها ـ وما زال التحدِّي قائمًا إلى يوم القيامة ـ على أن يأتوا بقرآن مثله ؛ فقال سبحانه :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] .

فعجزوا ؛ فخفف الله التحدِّي لما استعصى عليهم ذلك ؛ فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود:١٣] .

ولكنهم عجزوا أيضًا ؛ فخفف الله التحدِّي إلى منتهاه ـ وهو قمة الإعجاز ـ فقال سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ الآية [البقرة:٢٣، ٢٤].

ومن العجيب أن المشركين في مكة الذين صدوا عن سبيل الله، وعاندوا رسوله ﷺ، ولم يتركوا سبيلًا إلا وسلكوه لصدِّ رسوله عن الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كانوا يخشون القرآن، ويخافون سماعه لما له من هيبة وجلال وروعة، وكان قولهم لبعضهم البعض:

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:٢٦].

أي: شوِّشوا على القرآن، ولا تدعوه يصل إلى الآذان ولا تنصِتوا له، لأنه يقلب القلوب، ويسبي العقول، وكل من استمع إليه صبا إليه، ولو وصل القرآن إلى الآذان لصدع جلالُ القرآن عناد الكبر في القلوب!!

ويفسِّر لنا الإمام السعدي هذه الآية تفسيرًا رائعًا؛ حيث يقول[1]:

«يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن، وتواصيهم بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾[فصلت:٢٦]، أي: أعرضوا عنه بأسماعكم وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه وإلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، عارضوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]، أي: تكلَّموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا مع قدرتكم أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ وهذه شهادة من الأعداء،

(١)«تيسير الكريم الرحمن» (لسورة فصلت:٢٦).

وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء ، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا من حال الإعراض عنه والتواصي بذلك .

ومفهوم كلامهم ، أنهم إن لم يلغوا فيه ؛ بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم أنهم لا يغلبون ، فإن الحق غالب غير مغلوب ، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه » .اهـ .

وفي السنة الخامسة من البعثة (١) خرج النبيُّ ﷺ إلى الحرم ، وهناك جمع كبيرٌ من قريش كان فيه ساداتها وكبراؤها ، فقام فيهم رسول الله ﷺ وأخذ يتلو سورة النجم .

فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلامٌ إلهيٌّ رائع خلَّاب ـ لا يحيط بروعته وجلالته البيان ـ تفانوا عما هم فيه ، وبقي كلٌّ واحدٍ مصغيًا إليه ، لا يخطر بباله شيء سواه ؛ حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ، ثم قرأ : ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم:٦٢] ، ثم سجد ؛ فلم يتمالك أحدٌ من المشركين نفسه ، حتى خرَّ ساجدًا .

روى البخاريُّ في «صحيحه»(٢) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما :

« أَنَّ النبيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَالْمُشْرِكُونَ ، وَالْجِنُّ ، وَالإِنْسُ ».

---

(١) كما قال أهل السير ؛ كما في «الفتح» (٧/ ٢٢٧) باب الهجرة إلى الحبشة (٨/ ٤٨١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب سجود القرآن ، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١) .

وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ؛ فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين[(١)] .

وبالإضافة إلى هذه المعجزة الخالدة ما أيَّده الله تعالى به من المعجزات الأخرى التي تشهد بصدق نبوته ، وتلوي الأعناق ليًّا إلى الإيمان به وتصديقه ، وذلك لمن لم يمُتْ إنصافه في قلبه ؛ فيعمى بذلك عقله ، وهذه المعجزات كثيرة ، ولست بصدد الحديث عنها ، ولكنني سأشير إلى بعضها إشارات سريعة ، ومن أراد أن يتعرف عليها بالتفصيل ؛ فليراجعها في أماكنها من «الصحيح»:

فمنها : انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتكثير الطعام ، والإسراء والمعراج ، وغيرها كثير .

فإذا لم يكن هناك مانعٌ على صدق رسالة محمدٍ ﷺ نقلاً ولا عقلا ، وجب على الجميع إذا بلغته رسالته ودعوته أن يؤمن به ، وأن يطيعه ، وأن ينقاد إلى أوامره ، وأن ينتهي عن كلِّ ما نهى عنه ، وأن يقف عند كلِّ ما حدَّه ﷺ .

وهذا هو شرطُ الإيمان ، وحدُّ الإسلام :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

(١) «الرحيق المختوم» للمباركفوري (ص١١٠)، باب الهجرة الأولى إلى الحبشة ، ط دار الوفاء.



المبحثُ الثاني
تصديقُ النبيِّ ﷺ
في كلِّ ما أخبر

المبحث الثاني

تصديقُ النبيِّ ﷺ في كلِّ ما أخبر

إن من مقتضيات هذه الشهادة الكريمة :

« أن محمدًا رسول الله ﷺ » أن نصدق النبيَّ ﷺ في كلِّ ما أخبر به عن الله من أخبار ماضية ، أو حاضرة ، أو مستقبلة غيبية ؛ لأنه ﷺ مبلِّغ عن ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ ولم يقُلْ شيئًا من عند نفسه فيما يتعلق بدين الله ؛ فليس عليه إلا البلاغ ؛ فما أَمر إلا بما أَمر الله به ، وما نهى إلا عما نهى الله عنه ؛ ولذلك كانت طاعتُهُ طاعةً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومعصيتهُ معصيةً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان تكذيبُ النبيِّ ﷺ تكذيبًا لإخبار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أنه رسول الله ؛ قال الله ـ عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء:٧٩،٨٠] .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى:٤٨] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٣] .

ومن الآيات الجليلة التي توضِّحُ تلك المعاني ، وتقررها ، وتُرَسِّخها في القلوب ؛ قوله تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٢ - ٤] .

يقسم تعالى بالنجم عند هويه ـ أي : سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل ، وإقبال النهار ؛ لأن في ذلك من الآيات العظيمة ما أوجب أن أَقْسَمَ به .

وللخالق أن يقسم بما شاء من خلْقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق .

والمقسم عليه هو الشهادة للرسول ﷺ بأنه بارٌّ راشد ، تابع للحق ، ليس بضالٍّ ، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي : هو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره ؛ فنزَّه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال ؛ كالنصارى وطرائق اليهود ، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه ؛ بل هو صلوات الله وسلامه عليه ، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾أي: ما يقول قولاً عن هوىً وغرضٍ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾أي: إنما يقول ما أمر به ، يبلغ إلى الناس كاملاً موفَّرا من غير زيادة ولا نقصان .

فالله سبحانه نزه رسوله عن الضلال في علمه ، والغي في قصده ، ويلزم من ذلك أن يكون مهتديًا في علمه ، هاديًا ، حسن القصد ، ناصحًا للخلق ،

وبعكس ما عليه أهْلُ الضلال من فساد العلم ، وسوء القصد[1] ؛ فنبينا ﷺ هو الصادق الأمين؛ بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للأمة حتى أتاه اليقين .

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ ؛ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ ، وَقَالُوا : أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ ، وَرَسُولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ ؛ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ ؛ فَقَالَ :

« اكْتُبْ ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ »[2] .

وفي رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا » .

قال بعضُ أَصْحَابِهِ : فَإِنَّكَ تُدَاعِبُنَا يَا رَسُولَ الله ؟

قال : « إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا »[3] .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (لسورة النجم) ،و «تفسير السعدى»عند هذه الآية .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣١٣) ، وأبو داود ، كتاب العلم ، باب في كتابة العلم (٣٦٤٦) ، والدارميُّ (٤٨٤) ، والحاكم (١/ ١٠٥، ١٠٦) ، وصححه والرامهرمزيُّ في «المحدث الفاصل» (٣٦٦) ، والمزيُّ في «تهذيب الكمال» (٣١/ ٣٨) ، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ٣٦) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٩٢) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ٢٦٠) ، وصححه العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٥٣٢) ، و «صحيح الجامع» (١١٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٠و ٣٦٠) ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٦٥) ، والترمذيُّ ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في المزاح (١٩٩٠)، وفي «الشمائل» (٢٣٢) وقال: «هذا حديثٌ=

ويكفي أن نقرأ هذه الآيات التي يخشع لها القلب، ويضطرب لها الفؤاد، يقول تعالى في حقِّ رسوله وحبيبه وخليله محمد ﷺ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾[الحاقة: ٤٤ـ ٤٧].

يعلِّق الحافظ ابن كثير على هذه الآيات قائلاً:

« يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئًا من عنده؛ فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ قيل: معناه: لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش. وقيل: لأخذنا منه بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾.

قال ابن عباس [(١)]: «وهو نياط القلب»، وهو العِرق الذي القلب معلَّقٌ فيه.

وقوله: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ أي: فما يقدر أحد منكم

= حسن صحيح»، وأبو الفضل المقرئ في «أحاديث في ذم الكلام» (٤/ ١٦٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٨٧١٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ٣٥)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٩٤)، و«الصحيحة» (١٧٢٦)، وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ١٣٤): «وهو صحيح».

(١) أخرجه وكيع بن الجراح في «الزهد» (٥٩)، والطبريُّ في «تفسيره» (٣٤٦٩٠ـ ٣٤٦٩٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)، وعلَّقه البخاريُّ في «صحيحه» بصيغة الجزم في كتاب التفسير، تفسير الحاقة. وهو عند ابن أبي حاتم موصولاً ـ كما في «تغليق التعليق» (٣/ ٦٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٦٦٤): «وإسناده قويٌّ».

على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك ، والمعنى في هذا : بل هو صادق بارٌّ راشدٌ ؛ لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مقرر له ما يبلغه عنه ، ومؤيدٌ له بالمعجزات الباهرات ، والدلالات القاطعات »(١).

نعم .. فما من شيء أخبر به محمدٌ ﷺ إلا وتحقق كما أخبر به رسول الله ﷺ ، وتاريخ البشرية شاهدٌ على ذلك ؛ بل لقد شهد بصدقه ﷺ العدوُّ قبل الحبيب ، والكافر قبل المسلم ، بل كانوا يلقبونه قبل البعثة بالصادق الأمين ، ويا لها من شهادة !!

وقد روى الترمذيُّ في «السنن» ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ، والحاكم في «المستدرك» ، والدارقطني في «العلل» وغيرهم (٢) من حديث عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أبا جهل قال للنبيِّ ﷺ : إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ ، وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ ؛ فَأَنْزَلَ الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣].

---

(١) انظر : «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤١٨) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ في «السنن» كتاب القرآن ، باب ومن سورة الأنعام (٣٠٦٤) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (لسورة الأنعام :٣٣) ، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٥) ، والدارقطني في «علله» (٤/ ١٤٣) ، والقاضي عياض في «الشفاء» (١/ ١٤٩) من حديث عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا ، وأخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (١٣٢٣١، ١٣٢٣٢) ، والترمذيُّ (عقب رقم :٣٠٦٤) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» من حديث ناجية بن كعب مرسلاً (فأسقط عليًّا من الإسناد) .

قُلْتُ : وقد رجح المرسل غير واحد من الحفاظ ، كالبخاريِّ والترمذي والدارقطني وغيرهم ، فراجع «علل الدارقطني» (٤/ ١٤٣) ، و«سنن الترمذي» ، و«علل الترمذي الكبير» (٤٣٠) ، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترمذي» .

ولقد وضعت النبوة أمام امتحانات كثيرة فاصلة فتبين في كلِّ مرة صدقُ النبيِّ ﷺ في كلِّ ما أخبر به عن ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ ومن بين هذه الامتحانات التي هي من دلائل النبوة الباهرات الواضحات ؛ ما يلي :

* عندما انتصر الفرس ـ وهم عُبَّاد أوثان ـ على الروم ، وهم أهل كتاب في فلسطين ، فرح المشركون في مكة ، وتوعَّدوا المسلمين بمصير كمصير الروم ؛ فساء ذلك المؤمنين ؛ فأنزل الله قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

[الروم:١ـ ٦]

وتلا النبيُّ ﷺ هذه الآيات ؛ فاستبشر بها المسلمون ، وتهكَّم بها الكافرون ، وسخروا منها ؛ فليس هناك أبدًا من الدلائل ما يدل على أن الروم المهزومين ستتحول هزيمتهم إلى نصر ، خاصة وأن النص القرآنيَّ قد حَدَّدَ المدة : ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ .

والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع ؛ بل ولقد جاء الخبر بصيغةٍ لا تقبل التأويل : ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ وما مرَّت سبع سنوات حتى تحقق وعد الله ، وفرح المؤمنون ،

وظهر صدق رسول الله ﷺ .

* إخباره ﷺ عن أمور غيبية كثيرة لم تحدث في عصره ، ووقعت كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل وما اشتهرت إلا في عصرنا هذا ، فمن الذي أخبر بها محمدًا ﷺ يوم لا أجهزة بحث علميٌّ ، ولا طائرات ، ولا أقمار صناعية ؟!!

ومن أمثلة ذلك [١] :

١ـ ما كان أحدٌ يظنُّ أن أصْلَ السماء ونجومها وكواكبها هو الدخان ، حتى تقدمت أجهزةُ البحثِ العلميِّ ، وشاهد الباحثون بقايا الدخان لا تزال تتكون منه النجوم إلى يومنا هذا ، والله يقول :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١] .

٢ـ وكشف الباحثون ـ أخيرًا ـ أن القمر كان مشتعلاً ، ثم انطفأ ، ومحيى ضوؤه ، وأن النور الذي يخرج منه في الليل ليس إلا انعكاسًا من سراج آخر هو الشمس ، والله يقول : ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء:١٢] .

قال المفسرون : « آية الليل : القمر ، وآية النهار : الشمس »[٢] .

---

(١) كتاب الإيمان ، كتاب تعليم الواجبات الدينية ، لمجموعة من العلماء (ص ٨٦) ، مؤسسة الرسالة .

(٢) انظر : «تفسير الطبري» (تفسير الإسراء:١٢) ، ففيه جملة من الآثار في ذلك .

٣ـ وما كان أحدٌ يتصور أن الجبال تخرق كالأوتاد ، حتى اكتشف الدارسون أن تحت الطبقة الأرضية الصلبة التي نعيش عليها طبقة لينة لزجة تحتها ، وأن تحت كلِّ جبلٍ جذرًا يغوص في هذه الطبقة اللينة ، فيمسك الأرض الصلبة التي نعيش عليها من أن تضطرب من تحتنا بسبب لين ما تحتها ، والله يقول :

﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ:٧] .

ويقول : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء:٣١] .

٤ـ واكتشف الباحثون : أن في النباتات جميعًا زوجية ـ ذكر وأنثى ـ وما كان أحدٌ يعلم ذلك من قبل ، والله يقول :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس:٣٦] .

٥ـ واكتشف الأطباء : أن الأعصاب التي تتألم بحريق النار ، وشدة البرد ، توجد في الجلد فقط ؛ كما تتركز باقي أعصاب الإحساس في الجلد .. وقد بين القرآن أن الألم بالحرق يكون في الجلد في قوله تعالى المنزل على محمدٍ ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:٥٦] .

٦ـ ما كانت البشرية تعرف أن في البحر موجًا داخليًا ، غير الموج السطحي ، وما كان أحدٌ يعلم أن الموج بسطحه المائل يشتت الضوء الذي يسقط عليه من أعلى ، فيكون بذلك ظلمة كما يفعل السحاب في منع بعض الأشعة من النفاذ إلى أسفل ، لكن كل هذه الأسرار قد ذكرها الله في آية واحدة ؛ قال تعالى :

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] .

هذه الأسرار ، وغيرها في أعماق السماء ، وأعماق الماء ، وباطن الأرض ، وبطون الأنعام ، وجوف النبات ، وفي تركيب الإنسان ، ما عرفها الإنسان إلا في هذا الزمان ، بعد أن صَنَع أدقَّ الآلات التي تمكَّن بها من معرفة هذه الأسرار .

فمن كشف لمحمد ﷺ هذه الأسرار قبل ألف وأربعمائة عام ؟! ![١].

نعم .. من الذي علَّم محمدًا ﷺ هذا فأخبر به ؟ ومن أخبره بذلك فنقله للناس ؟ إنه الله العليم الخبير ؛ لأن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ .

* ومن بَيْنِ هذه الأمور الغيبية التي لم تَحْدُث في عَصْرِ النبيِّ ﷺ وَحَدَّثَ بها أيضًا ؛ ما يلي :

---

(١) المصدر قبل السابق .

١ـ روى البخاريُّ في «الصحيح» عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ ، فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ ، فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ ؛ فَقَالَ :

« يَا عَدِيُّ ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ ؟ » .

قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا .

قَالَ : « فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ (١) تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا الله » .

قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي : فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ (٢) الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟

« وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى » .

قُلْتُ : كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟

قَالَ : « كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ ؛ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ ، وَلَيَلْقَيَنَّ الله أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ : أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَقُولُ : أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» .

---

(١) أي : المرأة في الهودج .

(٢) الداعر : هو الخبيث المفسد ، وهم الذين ملؤوا الأرض شرًا وفسادًا .

قَالَ عَدِيٌّ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ :

« اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؛ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » .

قَالَ عَدِيٌّ : فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا الله ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ »[(١)] .

٢-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

«سَتَكُونُ فِتَنٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ »[(٢)] .

٣-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

«إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ الله »[(٣)] .

٤-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ ، مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبُوة في الإسلام (٣٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبُوة في الإسلام (٣٦٠١، ٧٠٨١، ٧٠٨٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبُوة في الإسلام (٣٦١٨).

الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » [١].

كلُّ هذه الأخبار ، وغيرها كثيرٌ من معجزات النبيِّ ﷺ الخالدة ؛ فما أخبر النبيُّ ﷺ بشيءٍ عن ربِّه ـ جَلَّ وعلا ـ إلا ووقع بمثل ما أخبر رسوله ؛ فهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .

ومع هذا ظهر صنفٌ خبيثٌ قديمٌ يدَّعي « العقلنة !»، ويقدم العقل على النقل الصادق عن رسول الله ﷺ ؛ فما قَبِلَتْهُ عقولُهم صدقوه ، وما أنكرته عقولُهم رَدُّوه ، ونصبوا العقل حَكَمًا ؛ فإذا جاء نقلٌ صحيحٌ وخبر صادقٌ عن المصدوق ﷺ ولم تفهمه عقولهم المريضة ردُّوا النقل واتهموه ، وباركوا العقل وقدسوه !!

وهذا هو أَصْلُ الفسادِ في العالم ؛ كما يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله :

« إن هذه المعارضة بين العقل والنقل هي أَصْلُ كُلِّ فسادٍ في العالم ، وهي ضدُّ دعوةِ الرُّسل من كلِّ وجه ؛ فإنهم دعوا إلى تقديم الوحي على الآراء والمعقول ، وصار خصومهم إلى ضدِّ ذلك ، فأتباعُ الرسلِ قدَّموا الوحي على الرأي والمعقول ، وأتباع إبليس أو نائب من نوابه قدَّموا العقل على النقل !!» [٢].

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨).

(٢) « مختصر الصواعق المرسلة » (١/ ٢٩٣) ، للموصلي .

وقال الإمام الشهرستانيُّ في كتابه « الملل والنحل » :

« اعلم أن أوَّلَ شبهةٍ وقعت في الخلق شبهة إبليس ، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص ، واختياره الهوى في معارضة الأمر ، واستكباره بالمادة التي خلق منها ، وهي النار ، على مادة آدم ، وهي الطين ، وتشعَّبت عن هذه الشبهة شبهات !! »[(١)] .

ومما يحزن القلب أن هؤلاء العقلانيين يحاطون بهالة من الدعاية الخبيثة التي تضفي عليهم أضخم الألقاب ، وأكبر الأوصاف ، كالمحررين والمجددين ، والمطورين والمتنورين ، والمفكرين ... إلخ ، وذلك كله من أجل لَيِّ أعناق الناس إليهم ليًّا .

ونحن لا ننكر بهذا قيمة العقل أو نهدر مكانته !! كلا ؛ بل إن الإسلام يبارك العقل ، وينميه ، ويزكيه « بل العقل شرطٌ في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال ، وبه يكمل العلم والعمل »[(٢)] .

ولكِنْ شريطةَ أن يعرف العقلُ قَدْره وحدَّه ؛ فلا يتجاوزه أو يتعداه ، وأن يسلم مع الكون كلِّه لله رب العالمين .

ورضي الله عن الإمام مالك بن أنس إذ يقول :

« أو كلَّما جاءنا رجُلٌ أجدل ـ أي أكثر جدلاً ـ من رجل ، تركنا ما

---

(١) « الملل والنحل » للشهرستاني (١/ ٩، ١٠) .

(٢) «مجموع الفتاوى » لشيخ الإسلام (٣/ ٣٣٨، ٣٣٩) .

جاءنا به جبريل إلى محمدٍ ﷺ لجدل هؤلاء ؟! »[(١)].

فيجبُ علينا أن نقدِّم خبر الحبيب المصطفى ـ شريطة أن يكون صحيحًا طبقًا لقواعد علماء الحديث ـ على عقولنا وآرائنا وفهمنا وتحليلاتنا ، وأن نذعن لقوله وحكمه ، وأن نتبعه في كلِّ ما جاء به ، أدركنا ذلك بعقولنا أم لم ندرك .

فالفرْقُ بين أهل السلف وأهل الابتداع والأهواء : أن أهل السلف :

جعلوا الأصل في الدين الاتباع والتسليم والرضى ، والمعقول تبع للمنقول.

أما أهل الأهواء والابتداع ؛ فقد أَسَّسوا دينهم على المعقول ، وجعلوا المنقول تبعًا له .

ورحم الله مَنْ قال : إن الإسلام قنطرة لا تعبر إلا بالتسليم .

وما أجمل أن أختم هذا المبحث الهام بهذه الكلمات الجميلة :

عِلْمُ العليم وعقل العاقل اختلفا مَنْ ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزْتُ غايته والعقْلُ قال : أنا الرحمن بي عُرفا
فأفصح العلم إفصاحًا وقال له : بأينا الله في قرآنه اتصفا
فأيقن العقلُ أن العلمَ سيِّدُه فقبَّل العقل رأس العلم وانصرفا

---

(١) انظر : « الإبانة » ، لابن بطة ـ رحمه الله (ص٥٨٢)، و«الفتاوى» لشيخ الإسلام (٢٠/ ٣٧٥) ، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (٣/ ٩٠٣).

ورحم الله الإمام ابن القيم إذ يقول [(١)]:

لا يستقلُّ العقْلُ دون هدايةٍ ... بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلا

كالطَّرْفِ دون النور ليس بمدرك ... حتى يراه بكرة وأصيلا

فإذا النُّبوة لم ينلك ضياؤها ... فالعقْلُ لا يهديك قطُّ سبيلا

نورُ النبوة مثل نور الشمس ... للعين البصيرة فاتَّخِذْه دليلا

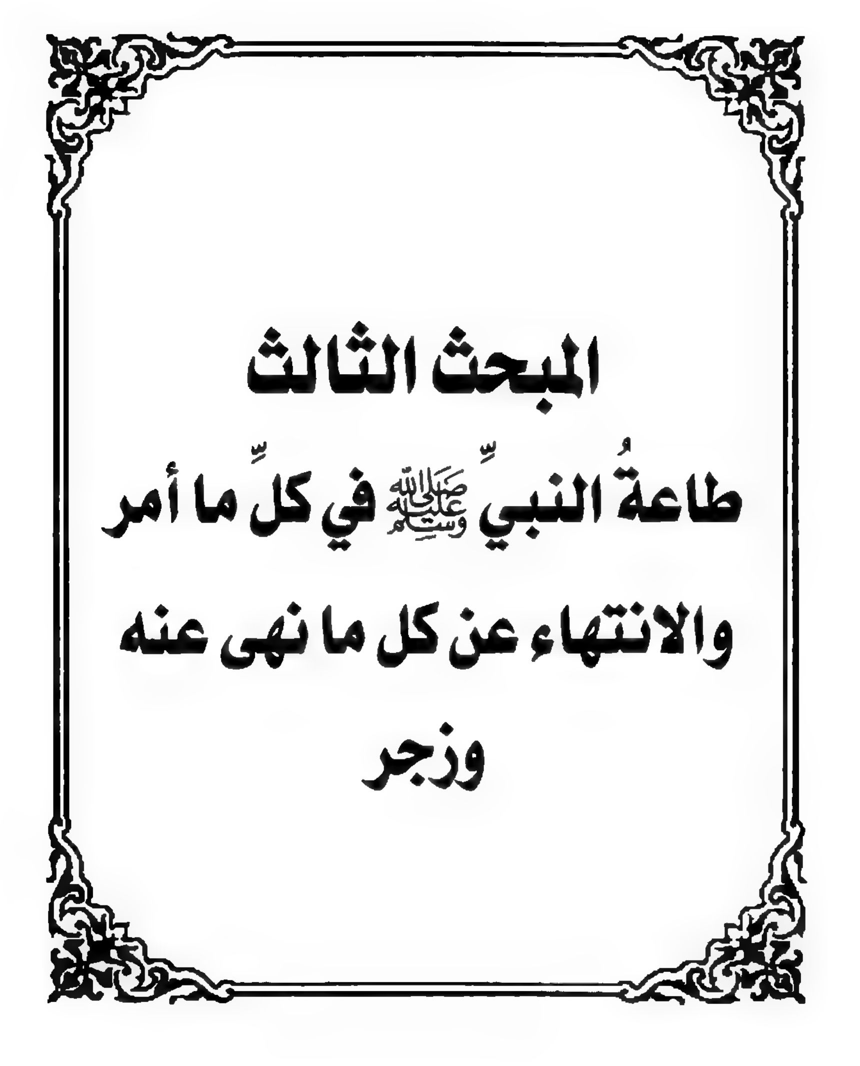
طُرُق الهدى محدودة إلا على ... مَنْ أمَّ هذا الوحي والتنزيلا

فإذا عدلت عن الطريق تعمُّدًا ... فاعلَمْ بأنك ما أردت وصولا

يا طالبًا دَرْك الهُدَي بالعقل ... دون النقل لن تَلْقى لذاك دليلا



(١) «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩٧٨، ٩٨١) للعلامة الإمام ابن القيم ـ طيب الله ثراه .



المبحث الثالث

طاعةُ النبيِّ ﷺ في كلِّ ما أمر والانتهاء عن كل ما نهى عنه وزجر

المبحث الثالث والرابع
طاعةُ النبيِّ ﷺ في كلِّ ما أمر
والانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه وزجر

هذان الأصلان العظيمان ؛ هما المحكُّ الحقيقيُّ للإيمان برسول الله ﷺ ، ولقد تعمَّدتُ ذكرهما مقترنين ؛ حتى تتضح الرؤية ، وتكْمُلَ الفائدة ؛ متأدبًا بقول الله ـ جَلَّ وعلا ـ الذي اشتمل على هذين الأصلين معًا ، وهو قوله تعالى :

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧] .

فطاعةُ النبيِّ ﷺ طاعةٌ لله ـ جَلَّ وعلا ـ ومعصيتُه ﷺ معصية لله ـ جَلَّ وعلا ـ ومحبتُه هي الطريقُ الموصِّلُ لمحبة الله ـ جَلَّ وعلا ـ بل ولا يقبلُ الله تعالى من أحدٍ صرفًا ولا عدلًا إلا باتباعه ﷺ؛ فببعثته تبين الرشد من الغي ، والشرك من التوحيد ، والصدق من الكذب ، والإخلاص من النفاق ، واليقين من الشك ، وطريق الجنة من طريق النار ؛ بل ولم يبق من خير آجل ولا عاجل إلا ودَلَّ الأمة عليه ، ولم يبق شرٌّ عاجلٌ ولا آجلٌ إلا حذَّر الأمة منه ونهاهم عنه ، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

والمؤمنون الصادقون في إيمانهم برسول الله ﷺ، الصادقون في محبتهم لرسول الله ﷺ يطيعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، ويقفون عند حدوده التي

حدها ، وشعارهم في هذا كلِّه : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ؛ سمْعٌ بلا تردد ، وطاعةٌ بلا انحراف ولا جدال !! أما المنافقون ـ والعياذ بالله ـ الذين يدَّعون الإيمان ، ويتظاهرون بالإسلام ، ويقولون بألسنتهم ـ فقط ـ: نحن نحبُّ الرسول ﷺ أكثر من حُبِّنا لأنفسنا ، ويتغنون بذلك ، ويرقُصُون ويردِّدون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، يقولونها بألسنتهم ويكذبونها وينكرونها بسلوكهم وأعمالهم !!

نعم .. يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فالمؤمنون الصادقون المحبون المطيعون تصدق أعمالهم أقوالهُم ، ولا يخالف علمُهُم عَمَلَهم ، ولا تخالف سريرتُهم علانِيتهم ؛ لأن الإيمان الصحيح متَى سَكَن في القلب واستقر ؛ انعكست ـ حتمًا ـ آثاره على صاحبه ؛ فدار مع الإسلام حيث دار ، واستمع إلى الأمر فأطاعه ، وإلى النهي فاجتنبه ، وإلى الحدِّ فأقامه وما تعدَّاه !!

ويبين الله ـ جَلَّ وعلا ـ حال هذين الفريقين المتباعدين من المؤمنين الصادقين في محبتهم لله ورسوله ، وحال المنافقين الكاذبين في محبتهم لله ورسوله ؛ فيقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٤٧-٥٢].

«فالواجبُ: كمالُ التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقِّي خبره بالقبول والتصديق دون أن يعارضه بخيالٍ باطلٍ يسمِّيه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شكًّا، أو يقدِّم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان؛ كما وحَّدَ المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل؛ فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول؛ فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره»[١].

ولقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطاعة الرسول ﷺ، وتوعَّد على معصيته بالعقوبة الشديدة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٢٨)، ط مؤسسة الرسالة.

وفي هذه الآيات «أمر الله بطاعته ، وطاعة رسوله ، وذلك بامتثال أمرهما ؛ الواجب والمستحب ، واجتناب نهيهما ، وأمر بطاعة أولى الأمر ، وهم : الولاة على الناس ، من الأمراء ، والحكام ، والمفتين ؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم ؛ إلا بطاعتهم والانقياد لهم ، طاعة لله ، ورغبة فيما عنده ، ولكن بشرط ، أن لا يأمروا بمعصية الله ، فإن أمروا بذلك ؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولعلَّ هذا هو السرُّ في حذف الفعل ، عند الأمر بطاعتهم ، وذكره مع طاعة الرسول ؛ فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه ؛ فقد أطاع الله ، وأما أولو الأمر ؛ فَشَرْط الأمر بطاعتهم ، ألا يكون معصية ، ثم أمر بردِّ كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول ، أي : إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية ، إما بصريحها ، أو عمومها ؛ أو إيماء ، أو تنبيه ، أو مفهوم ، أو عموم معني يقاس عليه ما أشبهه ؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين ، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما ، فالردُّ إليهما شرط في الإيمان ؛ فلهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [النور:٢] ، فدلَّ ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع ؛ فليس بمؤمن حقيقة ؛ بل مؤمن بالطاغوت»(١) !!

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢] .

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للعلامة السعدي (ص١٤٨ ط الرسالة) .

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[النور:٥٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[النور:٥٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب:٧١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[النساء:١٣، ١٤]، وقال جلَّ جلاله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[النساء:٦٤]، وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ [الأحزاب:٦٦] فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني [(١)]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢]. والآياتُ في ذلك كثيرة جدًّا، ولله الحمد والمنة.

فطاعةُ الرسول ﷺ طاعة لله، ومعصيته ﷺ معصية لله ـ جَلَّ وعلا.

وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٨) ط ابن رجب.

« كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى » .

قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَنْ يَأْبَى ؟

قَالَ : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » [١] .

ومثله الحديث الذي رواه البخاريُّ في أول كتاب الأحكام . من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ :

« مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي »[٢] .

ويعلِّق الحافظ ابن حجر - رحمه الله - قائلاً : « فكأن التقدير : أطيعوا الله فيما نصَّ عليكم في القرآن ، وأطيعوا الرسول فيما بَيَّن لكم من القرآن ، وما ينصه عليكم من السنة .

أو المعنى : أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته ، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن .. »[٣] .

ومن أجمل الأحاديث التي وردت في هذا الباب ؛ ما أخرجه البخاريُّ من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ :

---

(١) رواه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٠) ، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٤٩) ، دار المعرفة وقد تقدم .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأحكام ، باب قوله تعالى :﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (٧١٣٧) (فتح ١٣/ ١١) ، دار المعرفة .

(٣) انظر : «فتح الباري» (١٣/ ١١١) .

«جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنْ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلْ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ الْمَأْدُبَةِ. فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ: الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي: مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ» (١).

وهكذا؛ فإن غالب الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة قرنت بين طاعة الله سبحانه وتعالى، وطاعة نبيه ﷺ، وبين معصية الله سبحانه ومعصية نبيه ﷺ؛ فطاعة النبيِّ ﷺ طاعة لله، ومعصيته معصية لله سبحانه.

قال الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله تعالى: «وما سنَّ رسولُ الله ﷺ فيما لله فيه حكم ـ فبحكم الله سنه ـ وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣].

وقد سنَّ رسول الله ﷺ مع كتاب الله، وسن فيما ليس فيه بعينه نصٌّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١)، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٤٩)، دار المعرفة.

كتاب ، وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه ، وجعل في اتباعه طاعته ، وفي العنود [(١)] عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقًا ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجًا » [(٢)].

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ من حديث أَبِي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

« إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ ، فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» [(٣)].

قال الطيبي ـ فيما نقله عنه الحافظُ ابن حجر ـ في «الفتح» : « شَبَّه ﷺ نفسه بالرجل ، وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح ، وشبَّه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذَّب الرجل في إنذاره ومن صدقه » [(٤)].

وبالجملة : فإن من رضي بمحمدٍ ﷺ نبيًا ورسولًا ، واستقر ذلك في

---

(١) العنود : الميل أو الانحراف ، أو العتو والطغيان .

(٢) «الرسالة» للإمام الشافعي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى ، مطبعة الحلبي ــ مصر ، (ص ٨٨ ، ٨٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٣) ، انظر : «فتح الباري» (١١/ ٣١٦) ، دار المعرفة .

(٤) انظر : «فتح الباري» (١١/ ٣١٧) دار المعرفة .

قلبه، وجب عليه أن ينقاد ويذعن ويستسلم لأمر رسول الله ﷺ، وأن يميل بقلبه بكليته إلى محبته، وألا يعارض أو يعترض على شيء مما جاء به ـ عليه الصلاة والسلام؛ لأنه في الحقيقة مبلِّغ عن ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ لذلك يقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»(١).

يقولُ النوويُّ ـ رحمه الله:

«ومعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعةَ محمدٍ ﷺ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته؛ فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه»(٢).

أما الإعراضُ والصدودُ عن شرع رسول الله ﷺ، وتنحيته عن واقع الحياة، واستبداله بقوانين البشر ممن تتحكم فيهم الأهواء، وتسيطر عليهم الشبهات والشهوات، فذلك فعل المنافقين ـ والعياذ بالله ـ وإن زعموا وكذبوا أنهم يريدون بذلك إحسانًا وتوفيقًا. خابوا وخسروا!!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر (٣٤)، انظر: «شرح النووي» (٢/ ٢)، ط الريان.

(٢) انظر: «شرح النووي» (٢/ ٢)، ط الريان.

ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء:٦٠- ٦٣] .

يوضِّحُ الإمامُ ابن القيم ـ رحمه الله ـ بعض مظاهر هذا الصدِّ والإعراض عن الله ـ جَلَّ وعلا ـ وعن رسوله ﷺ ؛ فيقول :

« والاعتراضُ ثلاثة أنواع ساريَةٌ في الناس ، والمعصوم من عصمه الله تعالى منها :

النوعُ الأول : الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة التي يسميها أربابها قواطع عقلية ، وهي في الحقيقة خيالات جهلية ، ومحالات ذهنية ، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته ـ عزَّ وجلَّ ـ وحكموا بها عليه ، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسول الله ﷺ ، وأثبتوا ما نفاه ، ووالوا بها أعداءه ، وعادوا بها أولياءه ، وحرَّفوا بها الكلم عن مواضعه ، ونسوا بها نصيبًا كثيرًا مما ذكروا به ، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرًا ، كلُّ حزب بما لديهم فرحون !!

والعاصم من هذا الاعتراض : التسليم المحاط بالوحي ؛ فإذا سلم القلبُ رأى صحة ما جاء به وأنه الحق بصريح العقل والفطرة ، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة ، وهذا أكمل الإيمان .

النوعُ الثاني : الاعتراض على شرعه وأمره ، وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

أحدُهما : المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم ، المتضمنة تحليل حرمة الله

ـ سبحانه وتعالى ـ وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

النوعُ الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة تشريع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ﷺ.

النوعُ الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل، قدمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس، قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع، قدمنا الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة.

فجعلت كلُّ طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه؛ فهؤلاء يقولون: لكم النقل ولنا العقل، والآخرون يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق، والآخرون يقولون: لكم الشرع ولنا السياسة.

فيا لها من بلية ، عمت فأعمت ، ورزيةٍ رمت فأصمت ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كلُّ قلب مفتون ، وأهوية عصفت فصمت منها الآذان ، وعميت منها العيون ، عطلت لها ـ والله ـ معالم الأحكام ، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام ، واستند كلُّ قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل ، والدين وفقًا على كلِّ إفساد وتبديل » (١).

نعم .. « إذا رضي المسلم بمحمدٍ ﷺ رسولًا لم يلتفت إلى غير هديه ، ولم يعول في سلوكه على غير سنته وحكمه ، وتحاكم إليه ، وقبل حكمه ، وانقاد له وتابعه واتبعه ، ورضي بكلِّ ما جاء به من عند ربه ، فسكن قلبه لذلك ، واطمأنت نفسه ، وانشرح صدره ، ورأى نعمة الله عليه وعلى الخلق ـ بهذا النبيِّ ﷺ وبدينه ـ أعظم من أي نعمة ، ففرح بفضل ربه عليه ، ورحمته به أن جعله من أتباع خير المرسلين ، وحزبه المفلحين ؛ قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾[يونس:٥٧، ٥٨] .

والرضا كلمة تجمع القبول والانقياد ؛ فلا يكون الرضا إلا حيث يكون التسليم المطلق ، والانقياد ظاهرًا وباطنًا لما جاء به الرسول ﷺ من ربه ، وكل التفات أو عدول عن الوحي إلى غيره أو اعتراض عليه ؛ فهو مناقضٌ

---

(١) باختصار يسير جدًا من « مدارج السالكين » (٢/ ٧٠- ٧٣) ، ط دار الحديث .

للرضا ، ودليلٌ على النفاق ، ومؤدٍ إلى الكفر والمروق من الدين »[(١)].

وأخيرًا : لابد أن نعلم أن كلَّ ما جاء به الشرع الحنيف على لسان رسول الله ﷺ من أمرٍ ونهي ، وتحريم وكراهة ؛ فهو في مقدور كلِّ المكلفين ، وضِمْن طاقاتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يكلِّف عباده إلا بما يستطاع ، وقال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

فالله وحْدَه هو الخالق ، وهو وحْدَه الذي يعلم طبائع خلقه ، وحدود قدرتهم ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤]

وتتجلَّى هذه الرحمةُ النديةُ في قول النبيِّ ﷺ في هذا الحديث المتفق عليه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ »[(٢)].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة:٢٢٩] .

---

(١) «محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع» : عبد الرؤوف محمد عثمان (ص١٣٦) ، مكتبة الضياء ، الطبعة الأولى .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٦٧٧٧)، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه (١٣٣٧) ، وكتاب الحج ، باب فرض الحج مرة في العمر ، باب (٧٣/ ١٣٣٧) .



المبحثُ الرابع

محبته ﷺ دون غلو أو إطراء

المبحث الرابع
محبته ﷺ دون غلو أو إطراء

إن محبة الحبيب ﷺ أصْلٌ عظيمٌ من أصول الإيمان ، وإذا استقرت شجرة المحبة هذه في قرار القلب آتت أكلَها كلَّ حين ، وأثمرت كلَّ أنواع الاتباع والاقتفاء للمحبوب ﷺ .

ولا شك أن محبة النبيِّ ﷺ تابعة لمحبة الله ـ عزَّ وجلَّ ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله:

«وليس للخلق محبةٌ أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم ، وليس في الوجود ما يستحق أن يُحَبَّ لذاته من كلِّ وجه إلا الله تعالى ، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه ؛ فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ؛ ويتبع لأجل الله كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] » . اهـ [(١)].

«فمحبة الرسول ﷺ واجبةٌ تابعةٌ لمحبة الله ، لازمة لها ؛ فإنها محبةٌ لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكلُّ من كان محبًّا لله فإنما يحب في الله ولأجله ، كما يحب الإيمان والعمل الصالح ، وهذه المحبة ليس فيها شيءٌ من شوائب الشرك ؛ كالاعتماد عليه ، ورجائه في حصول مرغوب فيه ، أو دفع مرهوب منه ، وما كان فيها ذلك ؛ فمحبته

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤٩) .

مع الله لما فيها من التعلق على غيره ، والرغبة إليه من دون الله ؛ فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحْدَه »(١).

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »(٢).

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى : « أخبر النبيُّ ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له ؛ فمن أحب شيئًا واشتهاه إذا حصل له مراده ، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى »(٣).

إذن ؛ فالارتباط بين المحبتين ارتباطٌ شرعيٌّ وثيقٌ لا ينفك ؛ فمن ادعى أنه يحب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولم يحب رسول الله ﷺ فاعتقاده هذا باطل ، ومن أحب رسول الله ﷺ ولم يحب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فاعتقاده فاسدٌ باطلٌ .

---

(١) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (٣٣٧) ، مكتبة السنة المحمدية ، بتحقيق : حامد الفقي .
(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣، ٦٧).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٥) .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

قال القاضي عياض [(١)] رحمه الله: «فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ؛ إذ قرَّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾، ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله».

ومن أوضح الأدلة على وجوب حب النبيِّ ﷺ ما أخرجه البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ**» [(٢)].

وفي رواية «الصحيحين» من حديث أَنَسٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» [(٣)].

«وخص الوالد والولد بالذكر؛ لكونهما أعز خلق الله على الإنسان؛ بل ربما كان أحب إليه من نفسه، وفي هذا تأكيد على أنه يجب أن يكون

---

(١) «الشفا» (٢/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان (١٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان (١٥)، ومسلم؛ كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين (٤٤، ٧٠).

الرسول ﷺ أحب إلى نفس المؤمن من كلِّ حبيبٍ وعزيزٍ عليه من سائر البشر جميعًا »[١].

« ومعنى هذا أن محبة الرسول ﷺ من لوازم الإيمان وواجباته ؛ فلا يتحقق الإيمان بدونها ، ولا يستحق المؤمن اسم الإيمان بدونها ، وأن نفي الإيمان في الحديث إنما هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب إذا لم توجد المحبة الراجحة على ما سواها من سائر المحاب ؛ فإذا وجدت هذه المحبة على هذه الصفة ؛ فهي دليلٌ على كمال الإيمان بالنسبة لمن اتصف بها في هذا الجانب ، وأما إذا لم توجد هذه المحبة على هذه الصفة الراجحة كان من اتصف بها معرضًا للوعيد ؛ لأنه أخلَّ بواجب من واجبات الإيمان بدونها »[٢].

فكمال الإيمان أن يكون الرسول ﷺ أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ؛ بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه ؛ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ : أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : يَا رَسُولَ الله ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي ؛فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الْآنَ وَالله لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الْآنَ يَا عُمَرُ »[٣].

فالمحبة ـ إذن ـ حقيقةٌ ذاتُ تكاليف ، وأمانةٌ ثقيلةٌ ذات أعباء ؛ فإن المحبَّ لمن أحب مطيع ؛ فالمحبُّ الصادق في محبته لله ورسوله هو الذي

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١/ ٥٩) .

(٢) «محبة الرسول بين الاتباع والابتداع» (ص٥١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢).

يحب ما يحبه الله ورسوله ، وإن خالف ذلك هواه ، وهو الذي يبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإن مال إليه هواه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وقد ذكر العلماء علامات أخرى لمعرفة محبة النبيِّ ﷺ ، ومن أهمها ما يلي[١] :

أولاً : فَقْدُ رؤيته يكون أشد عليه من فقد أي شيء آخر في الدنيا ، بمعنى أنه لو خير بين رؤية النبيِّ ﷺ إن كان ذلك ممكنًا وبين أن يفقد في سبيل ذلك أي شيء هام من أغراض الدنيا لاختار أن يرى حبيبه ﷺ .

ثانيًا : يتمنى حضور حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كي يبذل نفسَه ومالَه دونه .

ثالثًا : يمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه .

رابعًا : ينصر سنته ، ويذب عن شريعته . ومن أسْمَى مواقف الحب لرسول الله ﷺ ، أن رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ ؛ فقال :

يَا رَسُولَ الله ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَفْسِي ، وِإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي ، وِإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرَكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِي فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيينَ ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِي ﷺ شَيْئًا ؛ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ :

---

(١) انظر : «فتح الباري» (١/ ٥٨) .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٦٩، ٧٠] (١).

والحديث عن ذلك طويل ؛ فعلينا أن نراجع أنفسنا : أين نحن من محبة رسول الله ﷺ ؟

ومن مقتضيات هذه المحبة وحدودها :

* عدم الغلو في رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام : « والغلوُّ هو : مجاوزةُ الحدِّ بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك » (٢).

والحقُّ أن الغلو في رسول الله ﷺ قد بلغ عند البعض حدًّا خطيرًا جدًّا ، فخلعوا على رسول الله ﷺ ، ومنحوه أخصَّ خصائص الألوهية والربوبية ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

فزعموا أن النبيَّ ﷺ شريكٌ مع الله في الخلق والتدبير والتصريف وكشف الضر وجلب النفع وعلم كلِّ شيء !!

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٤٧٧) ، و«الصغير» (٥٢) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٨) ، وابن مردويه ؛ كما في ابن كثير (تفسير النساء :٦٩و ٧٠) ، والواحدي في « أسباب النزول » (٣٣٨) من حديث عائشة مرفوعًا .

قال ابن كثير: قال الضياء :« لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا » ، ونقل السيوطيُّ في «الدر» تحسين الضياء المقدسي ؛ وقال في « لباب النقول» (النساء:٦٩) :« سنده لا بأس به » وصححه العلامة الوادعي في« الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» وصححه كذلك الألباني في « الصحيحة » (٢٩٣٣) .

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ، لابن تيمية (١/ ٢٨٨، ٢٨٩) ط الرياض ١٤٠٤ هـ .

حتى قال البوصيري [(١)] في «بردته» ، وهو يخاطب النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حدوث الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذ الكريم تجلَّى باسم منتقم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي   فضلاً وإلا فقل : يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

وهكذا يصنع الغلو بأصحابه ؛ فلقد وصِف النبيُّ ﷺ بما لا يمكن أن يتصف به أحدٌ إلا الله من أوصاف الربوبية والألوهية ؛ فجعل الرسول وحْدَه ملاذه وملجأه إذا نزلت به المصائب والشدائد ، ثم ذكر أن الدنيا والآخرة « ضرتها » من جود النبيِّ ﷺ ؛ بل يصف علم النبيِّ ﷺ بالإحاطة والشمول ، حتى جعل عِلْم اللوح والقلم من بعض علومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تعالى الله علوًّا كبيرًا !!

والله ـ جلَّ وعلا يقول : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

ويقول سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] .

---

(١) «ديوان البوصيري» تحقيق : محمد سيد كيلاني (ص:٢٠٠) ، ط الحلبي ـ مصر («محبة الرسول» (ص: ٢٥٠ ، ٢٥١).

ويقول النبيُّ ﷺ عن نفسه ؛ كما أخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه :

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[الأعراف:١٨٨] .

ويقول أحمد بن إدريس في إحدى صلواته :

« اللهم صلِّ على أم كتاب كمالات الذات ؛ عين الوجود المطلق الجامع لسائر التقييدات ، صورة ناسوت الخلق ، معاني لاهوت الحق ، الغيب الذات ، والشهادة الأسماء والصفات ، الناظر بالكلِّ في الكلِّ من الكلِّ للكليات والجزئيات .. » (١) .

ويقول الدبَّاغ (٢) :

« اعلم أن أنوار المكونات كلَّها من عرش وفرش وسموات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلَّها وجدت بعضًا من نور محمد ، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب ، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت ، ولو جمعت المخلوقات كلُّها، ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت » (٣) .

---

(١) أحمد بن إدريس ، هو صاحب الطريقة الأحمدية الإدريسية المنتشرة في المغرب والسودان وغيرهما ، وله مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل (٦٢) .

(٢) الدبَّاغ : هو عبد العزيز بن مسعود المعروف بالدبَّاغ ؛ صوفي من أهل فاس بالمغرب .

(٣) «هذه هي الصوفية» : عبد الرحمن الوكيل (ص٧٨) ، ط الرابعة ، دار الكتب العلمية .

ومثل هذه الشطحات كثيرٌ كثيرٌ في «فصوص الحكم» لابن عربي ، وفي «الفتوحات المكية» ، وفي «دلائل الخيرات» وغيرها ، وفيها ما يكاد ينخلع له القلب ، ويهتز له الكيان ؛ إجلالاً لذات الله ــ جَلَّ وعلا ــ وتنزيهًا لرسول الله ﷺ مما نسبوه إليه ؛ كما يقول صاحب «النفحات القدسية» عليه من الله ما يستحقه ؛ يقول : « فشأن محمد في جميع تصرفاته هو شأن الله تعالى ؛ فليس لمحمد من محمد شيء ؛ ولذلك كان نورًا ذاتيًّا من عين ذات الله »[(١)].

من أَجْلِ ذلك : حذَّر النبيُّ ﷺ ونهى عن الغلو فيه وإطرائه بكلمات حاسمة واضحة ؛ كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا ، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ،عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، وَالله مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ »[(٢)].

وكقوله بأبي هو وأمي ﷺ : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا : عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ »[(٣)].

---

(١) «النفحات القدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية» ، محمد بهاء الدين البيطار ، طبع دار الجيل ، بيروت (ص:٩) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣و ٢٤١و ٢٤٩) ، والنسائي في « الكبرى » (١٠٠٧٨) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٣٠٩) ، وابن منده في « التوحيد » (٢٧٨) من حديث أنس ، وصححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٠٩٧) و (١٥٧٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ (٣٤٤٥)من حديث عمر بن الخطاب .

وكقوله ﷺ في الحديث عن عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - قال : انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا : أَنْتَ سَيِّدُنَا .

فَقَالَ : « السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ».

قُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا .

فَقَالَ : « قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ » (١) .

وأنكر النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - على الرجل الذي قال له :

مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ قَالَ :

« أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ، بَلْ قُلْ : مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ » (٢) .

ذلكم هو مقام العبودية الذي تسربل به المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فاستحق من الله - جَلَّ وعلا - أن يثني عليه في أعلى وأرفع مقاماته بهذه الصفة ... بصفة العبودية .

فمدحه الله ، وأثنى عليه بها في مقام إنزال الكتاب عليه ، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله؛فقال سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف:١] .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (٤٨٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٥) وقال الحافظ في «الفتح» : «رجاله ثقات » ، وقد صححه غير واحد (٥/ ١٧٩«الفتح») ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٩٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٧٨٣) ، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) ، وابن ماجه في كتاب الكفارات (٢١١٧) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٥) ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾

[البقرة:٢٣]

ومدحه بالعبودية في مقام الدعوة ؛ فقال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن:١٩] .

ومدحه بالعبودية في مقام الإسراء ؛ فقال سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء:١] .

وكُلَّما ازداد العبد عبوديته لله ـ جَلَّ وعلا ـ زاد قربًا من الله ، ورفعه الله ـ عز وجل ـ فإن العبودية لله رفعة.

إن العبودية لله شرف.

إن العبودية لله عزٌّ وعزة .

ولم يحقق مخلوق من كمال العبودية لله ـ جَلَّ وعلا ـ ما حققه عبده ورسوله محمدٌ ﷺ ، وجعل النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك من مقتضيات محبته وتعظيمه .

« فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا : عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ » .. بأبي هو وأمي !!

فيجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة أن يعلم أن تعظيم النبيِّ ﷺ وتوقيره واحترامه وإجلاله هو أن يعرف حقوق الله تعالى وحقوق رسول الله ﷺ ... هو أن يعرف قدرَ الله تعالى وقدرَ رسولِ الله ﷺ ؛ ليفرق بين التعظيم الذي يدور على الاتباع ، وبين الغلو الذي يدور على الابتداع ! وهذه من أهم

المسائل في هذا الباب .

يقول العلامة القرآنيُّ الشنقيطيُّ ـ رحمه الله ـ في «أضواء البيان» :

« اعلم أنه يجب على كلِّ إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي من خصائص ربوبيته التي لا يجوز صرفها لغيره ، وبين حقوق خلقه كحق النبيِّ ﷺ ليضع كلَّ شيء في موضعه ، على ضوء ما جاء به النبيُّ ﷺ في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة .

وإذا عرفت ذلك ؛ فاعلم :

أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل:٦٢] .

وكون إجابة المضطرين ، وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية ؛ كما أوضحه تعالى في آيات سورة النمل ؛ فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ، ونعتقد ما تضمنته ونعمل به ؛ لنكون بذلك مطيعين لله ولرسوله ﷺ معظمين لله ورسوله ؛ لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله ﷺ هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص العبادة لله ـ جَلَّ وعلا ـ وحْدَه .

فإخلاص العبادة له ـ جَلَّ وعلا ـ وحده هو الذي كان يفعله ﷺ ويأمر به ، وقد قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:١١].

لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله، وسخط النبيِّ ﷺ، وسخط كلِّ متبع له بالحق، ومعلومٌ أنه ﷺ لم يأمر بذلك هو ولا أحدٌ من أصحابه؛ بل الذي كان يأمر به هو ما يأمره الله بالأمر به.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل، وأن نعظم ربَّنا بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه والاقتداء به في تعظيم الله، والإخلاص له، والاقتداء به في كلِّ ما جاء به، وألا نخالفه ﷺ ولا نعصيه، وألا نفعل شيئًا يشعر بعدم التعظيم والاحترام؛ كرفع الأصوات قرب قبره ﷺ!

والتقديم بين يديه، ويدخل في ذلك دخولاً أوليًّا تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرم الله ورسوله، ولا حلال إلا ما أحله الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله.

فعلى المسلمين أن يعظِّموا نبيه ﷺ تعظيم الموافق لما جاء به ﷺ، ويتركوا ما يسميه البعضُ حبًّا وتعظيمًا وهو في الحقيقة ابتعادٌ عن الحق وانتهاك لحرمات الله ورسوله ﷺ:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

[النساء:١٢٣، ١٢٤]

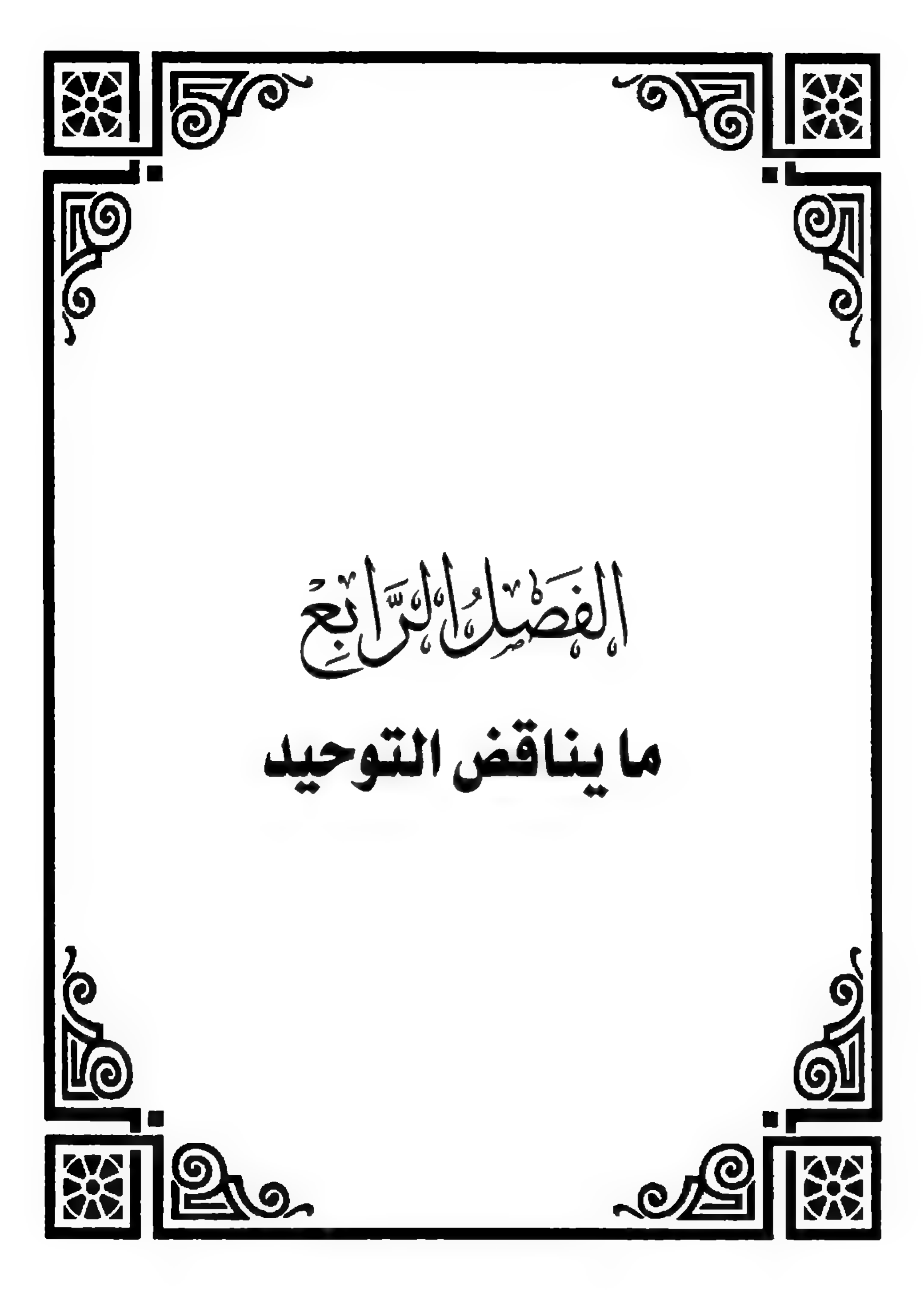
واعلم أن عدم احترام النبيِّ ﷺ المشعر بالغض منه أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله ، وقد قال تعالى في الذين استهزؤوا بالنبيِّ ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلَّت راحلته :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥،٦٦] » . اهـ(١) .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا وحبيبنا محمدٍ ؛ واجزه عنا خير ما جَزَيْتَ نبيًّا عن قومه ، ورسولاً عن أمته ، وارزقنا محبته ، والتزام سنته ، وأورِدْنا حوضه ، واحشرنا تحت لوائه ، واجمعنا به في جنات النعيم ؛ أنت وليُّ ذلك ومولاه ، وأنت على كلِّ شيء قدير .



(١) انظر : «أضواء البيان» باختصار (ص٦١٤-٦٢٥) مكتبة ابن تيمية .



الفصل الرابع

ما يناقض التوحيد

الفصل الرابع
ما يناقض التوحيد

بعد أن تحدثنا في الفصول السابقة عن التوحيد وتحقيقه، وعن معنى : « لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله » وبيَّنَّا أن هذه الشهادة العظيمة، وهذا الركن الأول دينٌ شاملٌ، يظلِّل جميع نواحي الحياة، وأن هذه الشهادة الكريمة ؛ ليست مجرَّد كلمةٍ تلوكُها الألسنة، ولكنها شهادةٌ كبيرةٌ ذاتُ تكاليف عظيمة، وأمانةٌ ذات أعباء جسيمة .

بعد ذلك يجب أن نتعرف على ما يناقض هذا التوحيد الكامل الذي بيناه « فبضدها تتميز الأشياء ».

ومعلومٌ أن الذي يناقض التوحيد هو الشرك ـ أعاذنا الله وإياكم منه ـ؛ فكما أن التوحيد هو أعدل العدل ؛ فإن الشرك هو أظلم الظلم، وأقبح الجهل، وأكبر الكبائر ؛ ولذلك لم تَدْعُ الرُّسلُ جميعًا إلى شيء قبل التوحيد، ولم تنه عن شيء قبل التنديد، ولم يتوعد الله على ذنب أكبر مما جاء على الشرك من الوعيد الشديد .

فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث جعل له من خلقه ندًّا، وذلك غاية الجهل به ؛ كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه !!

فالشرك أعظم ذنبٌ عُصي الله به على وَجْهِ الأرض ؛ ولهذا أخبرنا الله ـ

عزَّ وجلَّ ـ أنه لا يغفره وأن صاحبه مخلدٌ في النار أبدًا !!

كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾

[النساء:١١٦]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة:٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج:٣١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨] .

وخاطب الله ـ جَلَّ وعلا ـ صفوة خلقه وهم الرسل ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام: ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

[الأنعام:٨٨]

بل وخاطب حبيبه وخليله وخاتم أنبيائه ﷺ بقوله :

﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

[الزمر:٦٥، ٦٦]

والآياتُ في بيان عظم الشرك وخطورته أكثر من أن نحيط بها في هذا

المختصر .

وكذلك ما ورد في هذا الباب من الأحاديث الشريفة أكثر من أن نجمعها في هذا الموضع أيضًا ، ولنذكر منها قليلًا ؛ أعاذنا الله وإياكم من الشرك .

فَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ :

« مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » .

وقُلْتُ أنا : « وَمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ » (١) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، مَا الْمُوجِبَتَانِ ؟ فَقَالَ:

« مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » (٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١٢٣٨) ورواه في كتاب التفسير « تفسير سورة البقرة » باب : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ ، وفي الأيمان والنذور ، باب إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو هلل فهو على نيته ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة (٩٢) ، والقائل هو : عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة(٩٣).

« مَنْ لَقِيَ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْـجَنَّةَ ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ »[١].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

« أَتَانِي جِبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْـجَنَّةَ» .

قَالَ : قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ : « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ »[٢].

وفي روايةٍ أخرى في «صحيح مسلم» قال : « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ » ثلاثا ، ثم قال في الرابعة : «عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرّ» قال: فخرج أبو ذر وهو يقول : وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرّ[٣].

وفي الحديث القدسي الجليل ، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

« قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة (٩٣/ ١٥٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ، وفي التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة (١٢٣٧)، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْـجَنَّةَ » (٩٤).

(٣) انظر الحاشية السابقة .

(٤) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب في فضل التوبة والاستغفار (٣٥٤٠)، وقال : «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » وفيه كثير بن فائد لم يوثقه غير ابن حبان ؛=

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على الناس فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ ؟

قَالَ : « إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] »(١) .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جاءه رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله ابْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« أَيْ عَمِّ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله » .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » فَنَزَلَتْ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] (٢) .

= قال عنه الحافظ : «مقبول» وله شواهد حسَّنه بها العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٢٧) ، و«صحيح الجامع» (٤٣٣٨) .

(١) أخرجه البخاريُّ ، في الإيمان ، باب ظلم دون ظلم (٣٢) ، وفي الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ، ومسلم ، في الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في الجنائز ، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله (١٣٦٠)، وفي تفسير سورة «براءة» باب قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ =

وفي «الصحيحين» (١) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ؛ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: « **أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** » .

وفي «الصحيحين» (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ** » قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِالله..**» .

والأحاديثُ في خطورة الشرك كثيرة جدًّا ؛ كما أن الأحاديث في فضل التوحيد أيضًا كثيرة جدًّا ، ولله الحمد والمنة ، وسوف أُخَصِّص فصلًا كاملاً بإذن الله تعالى لبيان فضل تحقيق التوحيد .



= لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤٦٧٥) ، ومسلم ، في كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة (٢٤).

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء:١٠] (٢٧٦٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

رحلة الشرك

ويحسُنُ بنا في هذا المقام أن نتعرف بإيجازٍ على رحلة الشرك الآثمة، وكيف دنَّس الأرض، ولوَّث الفطرة !! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والمشهورُ أن بداية ظهور الشرك كانت في قوم نوح ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وقد كان بنو آدم على ملة أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ على شريعةٍ من الحق والهدى، نحو عشرة قرون من الزمان؛ كما قال ابن عباس وغيره.

وهذا هو ما ذكره شيخُ المفسرين ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ قال :

« حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا همام، عن قتادة، عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلُّهم على شريعة من الحق فاختلفوا؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (١).

نعم .. كان الناس على شريعة من الحق والهدى؛ حتى زيَّن الشيطان ـ عليه لعنة الله ـ لقوم نوحٍ عبادة الأصنام التي نصبوها بأيديهم لرجال صالحين من قوم نوح؛ من أَجْل ألا تُنْسى سيرتهم، ويظلُّوا يذكرونهم

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «جامع البيان» (٢/ ٣٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٩٦) وقال : «صحيح على شرط البخاريِّ ومسلم ولم يخرجاه»، وأقره الإمام الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٠).

دائمًا ؛ فلما انقضت الأعمار ، وهلك هؤلاء ، وتنوسي العلم عُبِدَت هذه الأصنام من دون الله ـ جَلَّ وعلا ، كما بين ذلك ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال في ودٍّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر : « هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ ».اهـ [١].

فلما أراد الله أن يرحمهم وأن يخرجهم من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد ، أرسل إليهم نبيه نوحًا ـ عليه السلام ـ فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى ترك عبادة الأصنام ، ولكنهم عاندوا واستكبروا عن الحق ، وأصرُّوا على كفرهم وعنادهم :

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾[نوح:٢٣، ٢٤] .

حتى يئس منهم نبيُّ الله نوح ، ودعا عليهم بقوله : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح:٢٦، ٢٧] .

فاستجاب الله لنبيه نوح ، وأهلك قومه بالطوفان ، ثم جاء من بعد قوم

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير في تفسير سورة «نوح»، باب : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ﴾ (٤٩٢٠) وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٥٦) وقد انتقدت هذه الرواية ؛ لأجل سماع ابن جريج من عطاء .

نوح قومُ عاد ؛ فعبدوا آلهة أخرى مع الله ـ جَلَّ وعلا ـ منها : هدًّا وصدى وصمودا ؛ فأرسل الله إليهم هودًا ـ عليه السلام ـ فدعاهم إلى التوحيد ، ولكنهم عاندوا واستكبروا ؛ فأهلكهم الله بالريح ، ثم جاء من بعدهم قومُ ثمود ؛ فأرسل الله إليهم صالحًا ـ عليه السلام ـ فكذبوه ؛ فأهلكهم الله بالصيحة ، ثم جاء من بعدهم قومُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فعبدوا الأصنام والشمس والقمر والنجوم ؛ فأرسل الله إليهم خليله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونصره وأعزَّه على قومه، ثم أكرمه بعد ذلك ، فلم يبعث الله بعده نبيًّا إلا من ذريته ؛ كما قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [العنكبوت:٢٧] .

فكلُّ الأنبياء والرسل من ذرية إسحاق ـ عليه السلام ـ وأما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فلم يبعث من ذريته إلا نبينا محمدًا ﷺ الذي فضَّله ربُّه على جميع الأنبياء والمرسلين .

ثم انتقل الشرك إلى بني إسرائيل ؛ فعبد أولهم العجل الذي حرَّقه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعبد آخرهم عزيرًا ، وجعلوه ولدًا لله ـ تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيرًا .

ثم عبد النصارى المسيح وقالوا : إنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ ثم انتقل الشرك إلى العرب ، ونقلت الأصنام إلى أرضهم على يد عمرو بن لحي الخزاعي ـ قبحه الله تعالى ـ كما أخبر بذلك نبينا ﷺ ؛ كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« رَأَيْتُ عَمْرو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ »(١).

وفي رواية: « وَغَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ »(٢).

وفي رواية : « إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ ؛ فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ ، وَبَحَّرَ الْبَحِيرَةَ ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ ، وَوَصَلَ الوَصِيلَةَ ، وَحَمَى الْحَامِي »(٣).

ثم كثر الشرك ، وكثرت الأوثان في كلِّ بقعة من الحجاز ، واتخذوا حول الكعبة وحدها نحو ثلاثمائة وستين صنمًا ، ودخلت الأصنام إلى كلِّ دار ؛ كما ذكر ابن إسحاق : « واتخذ أهلُ كلِّ دار في دارهم صنمًا يعبدونه ؛ فإذا أراد رجُلٌ منهم سفرًا تمسح به ؛ فيكون آخر عهده وأول عهده بهذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب قصة خزاعة (٣٥٢١) ، وفي كتاب التفسير سورة «المائدة» باب : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (٤٦٢٣) ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٦).

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في «الأوائل» (١٩) ، ومن طريقه الحافظ في «التغليق» (٤/ ٢٠٧) من طريق : عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعًا ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨٧٧٤) ، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (٤٤) من طريق : عبد الله بن صالح به ، قلت : وعبد الله بن صالح كاتب الليث «صدوق كثير الغلط ، ثبت في كتابه ، وكانت فيه غفلة » كما قال الحافظ في «التقريب» .

وقد خولف من جمع من الرواة بدون هذه الزيادة «وغير دين إبراهيم» كما في «المسند» (٢/ ٣٦٦) ، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٢٠٧) وغيرهما ، وتوبع الليث على عدم ذكرها ؛ بل وتوبع كذلك يزيد بن الهاد ، كما عند البخاري (٤٦٢٣) ، ومسلم (ص٢١٩٢) ، وقد أورد الشيخ الألباني شاهدًا لهذه الزيادة عند الطبراني في «الكبير» (١٠٨٠٨) وغيره ، وحسن سندها في الشواهد ؛ كما في «الصحيحة» (١٦٧٧) .

(٣) أخرجه ابن إسحاق ؛ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٧١) بسندٍ حسن من حديث أبي هريرة مرفوعًا ، وللحديث شواهد أخرى؛ راجعها في «الصحيحة» (١٦٧٧).

الصنم ، واتخذوا بيوتًا يعظمونها كتعظيم الكعبة ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، ويطاف بها كما يطاف بالكعبة ؛ بل وينحر عندها كما ينحر عند الكعبة !!» (١).

حتى قال أبو رجاء العطارديُّ :

«كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الْآخَرَ ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ » (٢).

وقال : « كنا نعمد إلى الرمل ، فنجمعه ونحلب عليه ، فنعبده ، وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض ، فنعبده زمانًا ثم نلقيه» (٣).

فَمَنَّ الله تعالى عليهم ، وأراد أن ينتشلهم من هذا الضلال وهذه الأوحال ؛ فبعث فيهم سيد النبيين ، وإمام الأولين والآخرين نبيَّنا محمدًا ﷺ.

قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران:١٦٤] .

فقام النبيُّ ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحْدَه لا شريك له ؛ لينقذهم من هذا الجحيم الذي أشعلوه بأنفسهم ، وعشقوا التلظي بناره ،

(١) «السيرة النبوية» ابن هشام (١/ ٨٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي (٤٣٧٦) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠٦) ، ومن طريقه ابن الجوزي في «التلبيس» (ص٥٩) ط المدني .

وليقيهم من التردِّي في مجاهل الانحطاط البشري حينما ينفكُّ عن نور الوحي الإلهي ، وليرشدهم إلى سبيل السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة .

نعم .. فببعثته ﷺ تنفست الإنسانية الصعداء ، وأزاحت عن صدرها ذلك الكابوس الرهيب الذي صنعه بعض البشر ليزهقها ، فلقد جاء النبيُّ ﷺ ليحررها من العبودية للمهازيل من العبيد ، وللحقير من الآلهة المكذوبة ، وليجعل كمال عزها في عبوديتها لربها ـ جَلَّ وعلا ـ وحْدَه ، ومن ثم كان النبيُّ ﷺ آخر لبنةٍ من لبنات الكمال والتمام في بيت النبوة الكريم ، وكانت رسالته هي الرسالة الخاتمة لجميع الرسالات .

« وإن المتأمل في سيرته ﷺ بعد البعثة ليجدها سلسلةً متصلة الحلقات من الجهاد الدائب ؛ لإعلاء كلمة التوحيد ، وتقويض دعائم الشرك ، ومحاربة الوثنية في كلِّ صورها ومظاهرها ، ولقد قامت قريشٌ تريد أن تحول بينه وبين الاستمرار في ذلك ؛ فهددت وتوعَّدت ، وأرغت وأزبدت ، ثم تجاوزت نطاق التهديد بالكلام إلى الفعل ، فتفننت في إيذائه وإيذاء أصحابه ، وبلغت في ذلك ما شاءه لها الجهل والحمية لدين الآباء والخوف على مركز الرياسة الذي كانت تتمتع به في العرب ، ولكن ذلك كلُّه لم يزد هذه الفئة المؤمنة التي ذاقت حلاوة التوحيد إلا استمساكًا بدينها ، وصلابة في إيمانها ؛ حتى جاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجًا »[1].

وظلَّت الأمة ترفلُ في ثوب التوحيد الخالص الذي كساها إياه إمام

---

(١) بتصرف من كتاب : «دعوة التوحيد» للدكتور/ محمد خليل هراس .

الموحدين وقدوة المحققين محمدٌ ﷺ ، حتى أطلَّت الفتن برأسها الظلوم ووجها الكالح ، وراحت الأمة تبتعد رويدًا رويدًا عن حقيقة التوحيد .

ومن ثَمَّ وجب على كلِّ موحدٍ غيور أن يهب من جديد لنجدة العقيدة التي تقتلع من جذورها ، ولحماية حمى التوحيد الذي عطَّل مقتضاه !! على يد أهل الإرجاء قديمًا وحديثًا .

ووالله لن تعود للأمة هويتها وسيادتها ، وكرامتها ، وقيادتها ، وعزتها ، إلا إذا صححت العقيدة ، وأخلصت التوحيد لله ـ جَلَّ وعلا ـ وتحررت من عبوديتها لغير الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ واستنصرت الله وحده ، وتوكَّلت على الله وحده ، واستعانت بالله وحده ، وتبرأت بصدق من كلِّ حول وطول وقوة إلا من حول الله وقوته ، وعادت مرةً أخرى إلى الله ـ جَلَّ وعلا ـ تائبةً ، ودموعُ الخشوعِ والندم تنحدرُ على وجهها ، وهي تلهجُ في خشوع وخضوع قائلةً : اللهم إنا نبرأ من العبودية إلا لك ، ونبرأ من الثقة إلا بك ، ونبرأ من الأمل إلا فيك ، ونبرأ من التسليم إلا لك ، ونبرأ من التفويض إلا إليك ، ونبرأ من التوكُّلِ إلا عليك ، ونبرأ من الذل إلا في طاعتك ، ونبرأ من الرهبة والخوف إلا لجلالك العظيم ، ونبرأ من الرجاء إلا لما في يديك الكريمتين ، ثم انطلقت لتحوِّل هذه المعاني إلى واقعٍ ملموس ، ومجتمعٍ يتحرك .

فهيا أيها الموحِّدون الصادقون .

هيا يا أبناء هذه الأمة المباركة .

هيا يا شباب الصحوة .

هيا يا مَنْ مَنَّ الله عليكم بالتوحيد الخالص بفهم سلف الأمة .

هيا تحرَّكوا فورًا بكلِّ ما تملكون من جهدٍ وقوةٍ وطاقةٍ لدعوة الناس إلى هذا التوحيد الصحيح الشامل الذي يظلِّل كلَّ نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية والإعلامية وغيرها .

واعلموا بأن هذه هي الخطوة الصحيحة الأولى على طريق بعث الأمة مرةً أخرى في عهد الغربة الثانية .

واعلموا بأن الاكتفاء ـ فقط ـ بإصدار الأحكام على الناس دون دعوتهم إلى الحق لن يغير من واقع الأمة المر الأليم شيئًا على الإطلاق .

والله أسأل أن يردَّ الأمة إلى توحيدها الخالص ردًّا جميلًا ، وأن يجعلنا من جند التوحيد ، وأن يرزقنا خاتمة الموحدين ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه ، وهو على كلِّ شيء قدير .

وأختمُ الحديث عن الشرك في السطور القادمة بإيجازٍ شديدٍ عن أقسام الشرك :

الشرك نوعان : أكبر وأصغر :

أما الشركُ الأكبر : فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه ؛ أي : بخلع رداء الشرك على أول عتبة باب التوحيد ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

والشرك الأكبر : هو اتخاذ الند لله أو مع الله يحبه العبد ؛ كما يحب الله ويخافه كما يخاف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا هو شرك التسوية ؛ كما قال الله حكاية عن هؤلاء المشركين لآلهتهم وأندادهم في النار : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨] .

يقول الإمام ابن القيم :

والشِّرْكُ فاحْذَرْهُ فشركٌ ظاهر ... ذا القِسْم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ النِّد للرحمن أيًّا ... كان من حَجَرٍ ومن إنسان
يَدْعوه أو يَرْجوه ثُمَّ يخافه ... ويحبُّه كمحبَّة الديَّان[1]

قال الله ـ عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥] .

وقد لا تتمثل هذه الأنداد التي تعبد مع الله أو من دونه في هذه الصورة القديمة التي كان يزاولها المشرك الأول ؛ حيث هذا الصنم الحجري الذي لا يضرُّ ولا ينفع ، ولا يسمع ولا يبصر ، وبين يديه عابده يقدم له من فروض الولاء والإذعان والطاعة والمحبة والرضا ما لا يقدمه لله ـ عَزَّ وجَلَّ !!

بل لقد تعددت صورُ الشرك ، وكثرت الأنداد والآلهة التي تعبد في

(١) «نونية ابن القيم» وتقدَّم عزوها .

الأرض من دون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من دول « عظمى !! » وأفراد من الأحياء والأموات !! وشارات ، واعتبارات ، وقيم ، وأفكار ، وقوانين ، ومنظمات ، وهيئات ، ومجالس ، وبرلمانات ، وأهواء ، وشهوات ، وأموال ، وحجارة ، وقبور ؛ بل وأبقار وفئران !!!

نعم .. ففي الهند إلى يومنا هذا في عصر المدنية والعلم والذرة أكثر من مائتي مليون بقرة تعبد من دون الله ـ عَزَّ وجَلَّ !!

وفي الهند ذاتها تقام المعابد الفخمة وتقرب إليها القرابين والنذور ؛ فهل علمتم ما هي الآلهة القابعة في هذه المعابد ؟! إنها الفئران ، نعم ، إنها الفئران !!

« وقد قطع الله تعالى كلَّ الأسباب التي تعلَّق بها المشركون جميعًا قطعًا يعلم من تأمله وعرفه : أن من اتخذ من دون الله وليًّا أو شفيعًا فهو : ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت:٤١] ؛ فقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣] .

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريده عابده منه ؛ فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك ؛ فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له

وظهيرًا ؛ فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده ؛ فنفى سبحانه وتعالى المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه ؛ فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهي الشفاعة بإذنه .

فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد ، وقطعًا لأصول الشرك » (١) .

النوع الثاني : الشرك الأصغر :

وقد عرفه النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح حينما قال :

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ : الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » .

قَالُوا : وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله ؟

قَالَ : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟ » (٢) .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٢) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨و ٤٢٩) ، والبيهقيُّ في «الشعب» (٦٨٣١) من حديث محمود بن لبيد مرفوعًا ، وسنده جيد ، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٤٣٠١) من حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج مرفوعًا ؛ لكن هذا الوجه غير ثابت .
قُلْتُ : وله شواهد ؛ فأخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٥)، والطبرانيُّ في «مسند الشاميين» (٢١٤٦) ، والبزار في «مسنده» (البحر الزخَّار ٢٩٤٢) ، والحاكم (٧٩٣٧) (٤/ ٣٦٥) ، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٤٢) و (٦٨٤٣) و(٦٨٤٤) ، وابن الأعرابي في «معجمه» (٢١٨٨) من أوجه عن شداد بن أوس مرفوعًا ، والحديث صححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٥١) و «صحيح الجامع» (٢٤٣٥).

والرياء لغةً: مشتقٌّ من الرؤية ؛ أي : أن يُري غيره خلاف ما هو عليه [١].

ومعناه شرعًا : إرادة العباد بطاعة ربِّ العباد ؛ فهو لا يبتغي بعمله وجه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن يبتغي المحمدة والسمعة والشهرة والجاه عند الخلق !!

قال الجرجانيُّ [٢]: «الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه».

والرياء محبطٌ للأعمال على تفصيل بديعٍ للحافظ ابن رجب الحنبليِّ ؛ إذ يقول :

« واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضًا ؛ بحيث لا يراد به سوى مراءات المخلوقين لغرض دنيوي ؛ كحال المنافقين في صلاتهم ؛ كما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء:١٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾[الماعون:٤-٦] .

وكذلك وصف الله الكفار بالرياء في قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٤٧]

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ١٦) ، و«القاموس المحيط» (٤٨٠) .

(٢) «التعريفات» (١١٥).

وهذا الرياءُ المحضُ لا يكادُ يصدر من مؤمنٍ في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة الواجبة ، أو الحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها ؛ فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشكُّ مسلمٌ أنه حابط وأن صاحبه يستحقُّ المقت من الله والعقوبة .

وتارةً يكون العمل لله ، ويشاركه الرياء ؛ فإن شاركه من أصله ؛ فالنصوص الصحيحة تدلُّ على بطلانه وحبوطه أيضًا .

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ »(١) .

وخرجه ابن ماجه وفيه : « فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ »(٢) .

ثم قال : وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأت عليه نية الرياء ؛ فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه ؛ فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ، ورجَّحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازي بنيته الأولى ، وهو مرويٌّ عن الحسن البصري وغيره ...

فأما إذا عمل العمل لله خالصًا ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٤) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

المؤمنين بذلك ففرح بفضل الله ورحمته ، واستبشر بذلك لم يضره ذلك ، وفي هذا المعنى جاء حديث أَبِي ذَرٍّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ :

قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ قَالَ :

« تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ »[١]. اهـ [٢].

وأختم هذا الحديث عن الرياء في هذه العجالة بهذا الحديث الخطير الذي رواه مسلمٌ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ: كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب إذا أثني على الصالح ، فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢).

(٢) «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب (ص: ٧٩-٨٤) ، طبعة مؤسسة الرسالة.

أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» (1) .

فالله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا، والخالص هو ما ابتغى به وجه الله تعالى ، والصواب هو ما كان موافقًا لهدى رسول الله ﷺ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف:١١٠] .

فيا أيها المسلمون : احذروا الشرك ؛ فإنه أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وأخلصوا توحيدكم وعبادتكم لله ـ جَلَّ وعلا .

فلا يكن ـ أيها الحبيب ـ حلفك إلا بالله وحده ، ولا يكن نذرك إلا لله وحده ، ولا يكن ذبحك إلا لله وحده ، ولا يكن طوافك إلا ببيت الله وحده .

وإذا سألت فاسأل الله وحده ، وإذا استعنت فاستعن بالله وحده ، وإذا طلبت المدد فاطلب المدد من الله وحده ، وإذا توكلت فتوكل على الله وحده ، وإذا رجوت فارْجُ الله وحده ، وإذا فوضت فإلى الله وحده .

فوالله الذي لا إله غيره لا يملك الضر والنفع ، والموت والحياة والرزق إلا الله وحده .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ

---

(1) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥) .

فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾

[الأنعام:١٧، ١٨]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[يونس:١٠٧] .

فيا صاحب الهمِّ إن الهمَّ منفرجٌ   أبشر بخير فإن الخالق الله

وإذا بليت فثق بالله وارض به   إن الذي يكشف البلوى هو الله

الله يُحْدِثُ بعد العسر ميسرة   لا تجزعن فإن الخالق الله

والله مالَكَ غيرُ الله من أحدِ   فحسبك الله في كلٍّ لك الله

أسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الموحدين المخلصين ، إنه وليُّ ذلك ومولاه ، وهو على كلِّ شيء قدير.





الفصل الخامس

فضل تحقيق التوحيد

الفصل الخامس
فضل تحقيق التوحيد

من خلال هذا الفهم التام الذي قَدَّمْنَاهُ لمعنى التوحيد وأنه ليس مجرد كلمة ينطقها اللسان ، بل وليس مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ، كما أقر عباد الأصنام بذلك وهم مشركون .

بل التوحيد يتضمن من الكفر بالطاغوت ، والأنداد ، والآلهة ، والأرباب ، ومن الولاء والبراء ، ومن الإذعان والانقياد لشرع الله وحده ، ومن توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ، وتجريد العبادة كاملة إلى الله وحده ما يحول بين صاحبه وبين النار .

وبهذا الفهم وحده لحقيقة التوحيد يزول هذا الإشكال الذي نتج عن عدم فهم الأحاديث الشريفة التي بينت فضل التوحيد حتى ظنها بعضهم منسوخة !!

وسأذكر بعض هذه الأحاديث لتوضيح المراد ، وبيان الفهم الصحيح لها كما علمنا سلفنا الصالح رضوان الله عليهم .

الحديث الأول :

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ،

وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ »(١) . وفي رواية : « مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيُّهَا شَاءَ » .

وفي حديث عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ : « فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ »(٢) .

وبإيجاز نقول مستعينين بالله تعالى : إن هذا الحديث من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ؛ كما قال الإمام النووي(٣) ـ رحمه الله .

فقد تضمن هذا الحديث بوضوح على نفي الألوهية عما سوى الله تعالى ، وهي العبادة بجميع أنواعها وصورها ؛ لأنها إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل رغبًا ورهبًا ، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى وهو معنى « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » .

وقوله : « وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » تأكيد حاسم ، وبيان واضح لمضمون

---

(١) رواه البخاريُّ ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ (٣٤٣٥)، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨).

(٢) هذا جزءٌ من حديث عتبان بن مالك الطويل الذي رواه البخاريُّ في كتاب الصلاة: باب المساجد في البيوت (٤٢٥)، ومسلم في كتاب المساجد ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر(٢٦٣/ ٣٣) ، وكتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا . وفي آخر الحديث كما جاء في رواية البخاري: « ... فقال قائل منهم : أين مالك ابن الدخيشن أو ابن الدُّخْشُن؟ فقال بعضهم : ذاك منافق لا يحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ؟» قال : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين » . قال رسول الله ﷺ : « فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ » .

(٣) «مسلم» بشرح النووي (١/ ٢٢٧) .

كلمة التوحيد ؛ لأن من أعظم الشرك المنافي لهذه الكلمة هو توجيه العبادة في أي صورها إلى غير الله عز وجل « والشهادة بأن محمدًا عبده ورسوله تتضمن تصديقه ﷺ في كل ما أخبر ، وطاعته في كل ما أمر ، والانتهاء عن كل ما نهى عنه وزجر ، فما أثبته وجب إثباته ، وما نفاه وجب نفيه ، وما أحله فهو الحلال وما حرمه فهو الحرام .

فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله »(١) .

ومعنى قوله ﷺ : « وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ » وذلك خلافًا لما يعتقده المثلثة عباد الصليب في عيسى ـ عليه السلام ـ فمنهم من جعله إلهًا ، ومنهم من جعله ابنًا لله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ ولن يصح توحيدُ عبدٍ إلا إذا اعتقد عن يقين عبودية عيسى ـ عليه السلام ـ لربه ـ عزَّ وجلَّ ـ كما قال الله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢] .

وقوله ﷺ : « وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ » : قال الإمام أحمد في «الرد على الجهمية» : « الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له :«كن» فكان عيسى : « بكن » وليس عيسى هو : « كن » ولكن كان« بكن » فكُنْ من الله تعالى قولاً ، وليس « كن » مخلوقًا ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى » انتهى(٢) .

---

(١) بتصرفٍ من « اقتضاء الصراط المستقيم » لابن تيمية ـ رحمه الله (٤٥٢) .

(٢) انظر :« فتح المجيد » (ص ٤١) وما بعدها ، و«الرد على الزنادقة والجهمية»لأحمد (٣٢) ط السلفية .

وقوله : « وَرُوحٌ مِنْهُ » أي : من الأرواح التي خلقها الله تعالى واستنطقها بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ كما قال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه[(١)] .

وقوله : « وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ » : أي: وشهد أن الجنة التي أخبر الله تعالى في كتابه أنه أعدها للمتقين حق ، أي : ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ، ومن لم يؤمن بالجنة والنار ، فقد كفر بالقرآن والرسل .

وقوله : « أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ » .

قال الحافظ[(٢)] : « معنى قوله : «عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» أي من صلاح أو فساد ؛ لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات » .

وقال القاضي عياض[(٣)] : « ما ورد في حديث عبادة يكون مخصوصًا لمن قال ما ذكره النبيُّ ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه ، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة » .

---

(١) المرجع السابق : (ص ٤٣) ، والأثر أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٣، ٤٠٥) ، والطبري في «تفسيره» (١٠٨٥٥) ، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٩٩١) ، وعبد الله بن أحمد في «زوائده على المسند» (٥/ ١٣٥) ، والفريابي في «القدر» (٥٢).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٧٥).

(٣) «شرح مسلم» للنووي(١/ ٢٢٠).

وما ورد في رواية عتبان بن مالك ـ رضي الله عنه : « مَنْ قَالَ لَا إِلَـهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ » يؤكد أيضًا حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك ، والصدق والإخلاص متلازمان ، فإن لم يكن مخلصًا فهو مشرك والشرك درجات ، وإن لم يكن صادقًا فهو منافق .

هذا حديث واحد من الأحاديث التي وردت في فضل التوحيد ، يبين لنا بوضوح حقيقة التوحيد الذي ينبغي أن يكون عليه العبد بمجرد نطقه بالشهادتين .

وبهذا الفهم المتكامل لهذا الحديث ، ولجميع الأحاديث التي وردت في فضل التوحيد ، ينتهي أيُّ إشكال وأيُّ غموض في معانيها ومقتضياتها .

فمن لقي ربه تعالى بهذا التوحيد الخالص الذي بيناه ، فلا ريب أنه من السعداء الفائزين ، وإن هذا التوحيد لكفيل بأن تحرق أنوارهُ كلَّ ذنوبه ومعاصيه .

كما قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «المدارج» :

يقول : « ... ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته ، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك ؛ لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر الله له ، ويسامحه ما لا يسامح به المشرك ، وكلما كان توحيد العبد أعظم ، كانت مغفرة الله له أتم ، فمن لقيه تعالى لا يشرك به شيئًا البتة غفر له ذنوبه

كلها كائنة ما كانت ولم يعذب بها ، ولسنا نقول : إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد ، بل كثير منهم يدخل بذنوبه ، ويعذب على مقدار جرمه ، ثم يخرج منها ، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدمناه ، واعلم أن أشعة « لا إله إلا الله » تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه ، فلها نور ، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفًا لا يحصيه إلا الله تعالى ، وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته ، وأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها ، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته ، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر ، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه أو حصل أضعافه بكسبه ، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزانته وولى الباب ظهره ، وليس التوحيدُ مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله ، وأن الله ربُّ كل شيء ومليكه ، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون .

بل التوحيد يتضمن من محبة الله ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع والعطاء ، والحب والبغض ، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي ، والإصرار عليها ، ومن عرف قول النبي ﷺ : «فَإِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله» ، وقوله : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله » .

وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس ، حتى ظنها بعضهم منسوخة ، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع ، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأوّل بعضهم الدخول بالخلود ، فقال : المعنى لا يدخلها خالدًا ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة .

والشرع الحكيم لم يجعل ذلك حاصلًا لمجرد قول اللسان فقط ، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم ، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار ، فلابد من قول اللسان وقول القلب ، وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات ، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله المختصة به سبحانه التي يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنى بالقلب علمًا ومعرفة ويقينًا وحالًا ما يوجب تحريم قائلها على النار » .

ثم يقول ـ رحمه الله : « فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة ، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض ، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا ، وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض ... وتأمل حديث البطاقة [(١)] .

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢١٣، ٢٢١) ، والترمذيُّ ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) وقال: «حديث حسن غريب» ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠) ، والحاكم (١/ ٦) و(٢/ ١٨٨، ١٨٩) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وابن حبان (٢٢٥) ، والبغوي في «شرح السنة» (٤٣٢١) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥) .

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه ، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل وطاشت من أجله السجلات ، لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات ، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة »(١).

ومن خلال هذا الفهم الواضح لحقيقة أحاديث التوحيد يمكن لنا الآن أن نذكر بعض الأحاديث التي وردت في ذلك بعد أن أرسينا القاعدة الرئيسية لفهمها ، دون حاجة إلى التوقف عند كل حديث كما فعلنا في حديث عبادة ـ رضي الله عنه ـ الذي سبق آنفًا .

الحديث الثاني :

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ ؛ فَقَالَ: « يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟» قَالَ : قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : « فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوه وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ : « لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا »(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» ، طبعة دار الحديث (١/ ٣٥٨) وما بعدها .

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب الجهاد والسير ، باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وفي كتاب الاستئذان ، باب من أجاب بلبيك وسعديك(٦٢٦٧)، وفي كتاب الرقاق ، باب من جاهد نفسه في طاعة الله (٦٥٠٠)، وفي كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تعالى (٧٣٧٣)، وفي كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل(٥٩٦٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠) .

ويتضح من هذا الحديث المبارك أن حق الله تعالى على العباد أن يوحدوه بالعبادة والتخلص من كلِّ شوائب الشرك ، وقد أجمل الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ حيث عرف العبادة هذا التعريف الشامل فقال :

وعبادة الرحمن : غاية حبه مع ذلِّ عابده ، هما قطبان

وعليها فَلَكُ العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر ـ أمر رسوله ـ لا بالهوى والنفس والشيطان[1]

فالعبادة : خضوع ومحبة لله ـ عز وجل ـ وهذا هو دين الله تعالى .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله :

« ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له ، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ؛ ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله »[2].

ولا شك أن من لقي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا التوحيد ؛ فهو من أهل الجنة : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم:٦] .

نسأل الله أن يتوفانا وإياكم على التوحيد ، وأن يختم لنا بالسعادة ، وأن

---

(١) «القصيدة النونية» (١/ ٢٥٣) ط المكتب الإسلامي .

(٢) «العبودية» (ص١٣) .

يرزقنا وإياكم الحسنى وزيادة ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الحديث الثالث :

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ: أَحْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ فَقَالَ : إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ »[(١)] .

ولقد سبق الكلام عن هذا الحديث المبارك للعلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ ولا شك أن السر الذي ثقل بطاقة الرجل وطاشت من أجله السجلات هو كمال التوحيد وتحقيقه ، فإن للتوحيد نورًا يبدد ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك النور ، وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أنه يغفر أي ذنب مع التوحيد ، ولا يغفر أي ذنب مع الشرك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الحديث سبق تخريجه مع الحديث الأول .

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾[النساء:١١٦] .

« ... فإنه إذا قالها ـ أي كلمة التوحيد ـ بإخلاص ويقين تام ، لم يكن في هذه الحال مصرًّا على ذنب أصلًا ، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ، فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرمه الله ، ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذي يحرم على النار ، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الإيمان ، وهذا الإخلاص ، وهذه التوبة ، وهذه المحبة ، وهذا اليقين ، لا يتركون له ذنبًا إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مصر على ذنب أصلاً ، فيغفر له ويحرم على النار ، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات ، فيرجح بها ميزان الحسنات ، كما في حديث البطاقة ، فيحرم على النار .

ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه ، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ، ومات مصرًّا على ذلك ، فإنه يستوجب النار . وإن قال : لا إله إلا الله ، وخلص بها من الشرك الأكبر . لكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده ، فإنه في حال قولها كان مخلصًا ، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ، فإن

حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ، ولا يكون مصرًّا على سيئات ، فإن مات على ذلك دخل الجنة .

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه ، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر ، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات ، فإن السيئات تُضعف الإيمان واليقين ، فيضعف قول : « لا إله إلا الله » فيمتنع الإخلاص بالقلب ، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم ، أو من يُحَسِّن صوته بآية من القرآن من غير ذوقٍ وحلاوة ، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك ، بل يقولونها من غير يقين وصدق ، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة ، فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ، وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح ، وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غيره ، واطمأن إلى الباطل ، واستحلى الرفث ، ومخالطة أهل الغفلة ، وكره مخالطة أهل الحق ، فمثل هذا إذا قالها ، قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وبفيه ما لا يصدقه عمله .

قال الحسن : « ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قبل منه ، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يقبل منه »[1] .

---

(١) أخرجه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل» (٥٦) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٢٢) و (١٣/ ٥٠٤) ، وابن المبارك في « الزهد» (١٥٦٥) ، وعبد الله بن أحمد =

وقال بكر بن عبد الله المزني : « ما سبقهم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بكثرة صيام ، ولا صلاة ، ولكن بشيء وقر في قلبه »(١) انتهى ملخصًا(٢) .

أعاذنا الله وإياكم من سوء الخاتمة ، وختم الله لنا ولكم بالسعادة . كما نرجوه ألا يحرمنا الزيادة .

الحديث الرابع :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ :

« قَالَ الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »(٣) .

= في « زوائد الزهد » (٣٢٢) ، والآجري في « الشريعة » (٢٥٥ ، ٢٦٠) ، وابن بطة في « الإبانة الكبرى » (١٠٩٤) .

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » كما في « الضعيفة » (٩٦٢) وقد ورد كذلك عن أبي بكر بن عياش كما في « المنار المنيف » لابن القيم (١١٥) وقد ورد مرفوعًا ، ولكن لا أصل له ، وانظر « الضعيفة » .

(٢) « فتح المجيد » (ص٤٦) وما بعدها .

(٣) أخرجه الترمذي : كتاب الدعوات ، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٣٥٤٠)، وقال الترمذي : « حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه »، وأخرجه مسلم : كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٧) ، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « **يَقُولُ الله تَعَالَى : مَنْ تَقَرَّبَ لِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ لَهُ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** » .

وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس في « الكبير » (١٢٣٤٦) ، و« الصغير » (٢/ ٢٠ ، ٢١) وقال الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٣٦٣) : « وفيه إبراهيم بن إسحاق ، وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف في توثيقه وبقية رجاله رجال الصحيح » ، وحسنه بشواهده الألباني في « الصحيحة » (١٢٧) ، و« صحيح الجامع » (٤٣٣٨).

وهذا الحديث الكريم يبين فضل التوحيد الذي هو السبب الأعظم من أسباب المغفرة .

كما يقول الإمام ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذا الحديث في كتابه القيم « جامع العلوم والحكم » وهو الحديث الثاني والأربعون يقول :

« .. ومن أسباب المغفرة « التوحيد » ، وهو السبب الأعظم فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦].

فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض ـ وهو ملؤها أو ما يقارب ملؤها ـ خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ... فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه ، وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ، ومنعه من دخول النار بالكلية ، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبةً وتعظيمًا وإجلالاً ومهابةً وخشيةً ورجاءً وتوكلاً ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات ..

فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات »(١) .

نعم .. فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب بإذن الله .

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (الحديث الثاني والأربعون) (ص٣٤١) ، ط دار الفكر.

الحديث الخامس :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« مَنْ لَقِيَ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » (١).

وهذا الحديث المبارك أيضًا يؤكد أن نفي الشرك مقتضى لوجود التوحيد .

فمن لقي الله تعالى لم يشرك به شيئًا فهو من أهل الجنة باتفاق .

ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار . أعاذنا الله وإياكم منها .

الحديث السادس :

روى ابن ماجه والحاكم (٢) وغيرهما عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ ، وَلاَ صَدَقَةٌ ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي لَيْلَةٍ ، فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَنَحْنُ نَقُولُهَا » .

---

(١) أخرجه مسلم ؛ كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات مشركًا دخل النار (٩٣) ، (١٥٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم (٤٠٤٩) ، وقال البوصيري في «الزوائد» : «إسناده صحيح، ورجاله ثقات» ، والحاكم (٣/ ٤٧٨، ٥٠٥، ٥٤٥) ، وصححه على شرط مسلم ، وصححه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢٨٧) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة» (٨٧) ، و«صحيح الجامع» (٨٠٧٧).

قَالَ صِلَةُ بن زفر لحذيفة: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ مَا صَلاَةٌ وَلاَ صِيَامٌ ، وَلاَ نُسُكٌ ، وَلاَ صَدَقَةٌ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلاَثًا كُلُّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ ، فَقَالَ :« يَا صِلَةُ ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّار» ثَلاَثًا.

الحديث السابع :

روى البزار والبيهقي وابن حبان[(١)] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ ، يُصِيبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ** » .

الحديث الثامن :

وفي «الصحيحين»[(٢)] عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً** ».

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٠٠٤) ، وابن الأعرابي في «معجمه» (٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ١١٦٣) ، والطبراني في «الأوسط» (٦٣٩٢) ، والبزار (٣) ؛ كما في «كشف الأستار» ، والبيهقي في «الشعب» (٩٧ـ ٩٩) ، وفي «الأسماء والصفات» (١٩٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٤٦) ، والخطيب البغدادي في «موضح أوهام الجمع والتفريق» (٢/ ٢٠٥) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٣٢) ، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) .

الحديث التاسع :

وفي « الصحيحين»[(١)] عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال : « يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ الله تَعَالَى: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَان».

الحديث العاشر :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ :

« عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي ، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ ، وَلَا يَكْتَوُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ : أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ : «نَعَمْ» ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ : «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (٢٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (١٨٤) ، وانظر (١٨٣، ١٨٥).

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو(٥٧٠٥)، ورواه كذلك في كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب (٦٥٤١)، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٢٢٠).

والحديث يبين كذلك فضل تحقيق التوحيد، إذ إن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هم الذين تركوا الشرك رأسًا ولم ينزلوا حوائجهم بأحد سوى الله، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله، وتفويضهم أمورهم إليه سبحانه، فلا يرغبون إلا إليه، ولا يرهبون إلا منه.

وهذا منتهى تحقيق التوحيد «إذ لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل إن حقيقة التوكل هي توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل.

فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

ومن ها هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح»[(١)].

فالتوحيد هو الأصل، وهو أول واجب، وهو آخر واجب، وهو أول الأمر وهو آخر الأمر، وأول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يجب أن يخرج به الإنسان من الدنيا؛ نسأل الله أن يختم لنا به إنه ولي ذلك ومولاه.

وأختم بهذه الأبيات الرائعة للحافظ ابن رجب ـ رحمه الله[(٢)]:

تبارك ذو الجلال والإكرام ومن شهد أن لا إله إلا هو

من يغفر الذنوب ومن يمحصها غيرك يا من لا إله إلا هو

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥، ١٢٦).

(٢) «تحقيق كلمة الإخلاص» (١٠٥، ١٠٦) ط ابن رجب.

جنـــان خلـــده لمـــن يوحـــده　　أشـــهد أن لا إلـــه إلا هـــو

نـــاره لا تحـــرق مـــن　　يشـــهد أن لا إلـــه إلا هـــو

أقولهـــا مخلصًـــا بـــلا بخـــل　　أشـــهد أن لا إلـــه إلا هـــو

وأكتفي بهذا القدر من الأحاديث في هذا الباب ، والأحاديث فيه كثيرة مستفيضة ؛ نسأل الله أن يتوفانا على التوحيد ، وأن يحشرنا في زمرة الموحدين ، في جنات النعيم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



الخاتمة

نسأل الله حسنها

وبعد ـ أحبتي في الله ـ هذه هي حقيقة التوحيد التي يجب أن تستقر في القلوب ، وأن يحولها المسلمون في حياتهم إلى منهج حياة .

ولا ريب أن هذه الخطوة الأولى على طريق بعث الأمة من جديد ، كما كانت أول مرة .

وهذا الأمل الكبير.. يحتاج إلى جهد جليل ، وصبر جميل .

أمانة عظيمة نطوق بها عنق كل مسلم ؛ فلقد حان ـ وبحق ـ وقت العمل والبذل والعطاء دون توان أو كسل ، فإن الذي يعيش لنفسه فقط قد يعيش مستريحًا ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا !! وليس المسلم كذلك .

فهيا .. تحرك فلقد جاء دورك أيها العملاق الحنون .

هيا .. قم وَدَثِّرْ العالم كُلَّه بِبُرْدَتِك ذاتِ العبق المحمدي .

هيا .. ضُمَّ العَالَمَ كُلَّه إلى صدرِك ، وأَسْمِعْهُ خفقاتِ قلبِك الذي وحَّد الله ـ جَلَّ جلاله .

هيا .. قم واسق الدنيا كأس الفطرة ؛ لتحيا بعد موات .. ولتروى بعد ظمأ .. ولتهدى بعد ضلال .

هيا .. انطلق أيها الموحد الصادق ؛ لتؤدي دورك الذي من أجله خلقك الله ـ عزَّ وجلَّ .. لتمزق غشاوة الكفر ، والكيد الشيطاني ، بشعاع النور

القرآني والنبوي .

هيا .. فلقد آن الأوان لتفيء البشرية على يديك مرة أخرى إلى منهج الله بعد أن أحرقها لفح الهاجرة القاتل ، وأرهقها طول المشي في التيه والظلام !!

وبعد هذه الرحلة الطويلة في رحاب التوحيد أضرع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يردَّ الأمة إليه ردًّا جميلاً ، وأن يقر أعيننا بنصرة الإسلام ، وعز الموحدين ، وأن يشرفنا وإياكم جميعًا بالعمل لهذا الدين .

وأخيرًا ـ أيها الكرام ـ أنشدكم الله ، من وجد في كلامي زيغًا أو نقصًا أو خطئًا فليهد إلينا الصواب والحق . نشكر له سعيه وندعو له بظهر الغيب ، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم ، والله وحده هو العليم بالنيات ، وإلى الله سبحانه أمد كف الضراعة والابتهال ألا يجعله حجةً عليَّ يوم الأهوال ، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه

الفقير إلى عفو الرحمن

محمد بن حسان



فهرس أطراف الحديث

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث	الصفحة
كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء	٢٨٣
كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى	٢٢٨، ٢٦٥، ٣١٦
لئن صدق ليدخلن الجنة	٢٣٨
لقد ظننت يا أبا هريرة	٢٤٨
اللهم اهد أم أبي هريرة	١٢٩
اللهم اهد دوسًا	١٣٠
اللهم اهد ثقيفًا	١٣٠
ما أصاب أحد قط همٌّ ولا حزن فقال	٨٢
ما من أحدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله	١٩٣، ٢٣٥
ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له	١٦٠
ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم	٣٢٣
مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير	٢٢١
من أتى كاهنًا أو عرافًا	١٥٩
من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله	١١٩، ٢٦٢، ٢٦٩
من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله	٣١٦
من حلف بغير الله فقد أشرك	١٥٧، ١٥٩
من رأى منكم منكرًا فليغيره	١٦٠
من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله	٢٠٢
من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده	٣٦٧
من صلى يرائي فقد أشرك	٢٤٥
من عادى لي وليًا	١٠١
من قال لا إله إلا الله نفعته يومًا	٣٨٢

طرف الحديث الصفحة



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الأدلة على وجوب حب النبي ﷺ	٣٢٨
علامات لمعرفة محبة النبي ﷺ	٣٣١
بيان أن مقتضيات محبته ﷺ عدم الغلو فيه	٣٣٢
صور من الغلو فيه ﷺ	٣٣٣
الأدلة النبوية في النهي عن الغلو فيه ﷺ	٣٣٥
الفصل الرابع : ما يناقض التوحيد : « الشرك »	٣٤٣
الأدلة على بيان عظم الشرك	٣٤٤
رحلة الشرك	٣٤٩
أنواع الشرك	٣٥٦
النوع الأول : الشرك الأكبر	٣٥٦
النوع الثاني : الشرك الأصغر « الرياء »	٣٥٩
معنى الرياء : لغة	٣٦٠
معنى الرياء : شرعًا	٣٦٠
بيان أن الرياء محبط للعمل	٣٦٠
وأخيرًا : تذكير وتحذير	٣٦٣
الفصل الخامس : فضل تحقيق التوحيد	٣٦٥
الحديث الأول : عن عبادة بن الصامت	٣٦٧
الحديث الثاني : عن معاذ بن جبل	٣٧٤
الحديث الثالث : عن عبد الله بن عمرو بن العاص	٣٧٦
الحديث الرابع : عن أنس بن مالك	٣٧٩
الحديث الخامس : عن جابر بن عبد الله	٣٨١
الحديث السادس : عن حذيفة	٣٨١

الموضوع	الصفحة




منتدى إقراء الثقافي